دقيقة حُب

دقيقـــــة حـُــــب

روايـــــــة

نهـــى أبـــو الـــرُب

دقيقـة حُـــب

روايــــة

اسم الكاتبة: نهى أبو الرُب

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٤٩٩٩ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

هل علينا دائمًا أن نتعلم؟ ألا نستطيع أن نحول الثواني في أيامنا إلى مزيج بحر دافئ ونسمات ربيع خلاب؟ ألواننا... ضحكاتنا... حتى همساتنا، لا بد أن تشق يومًا عنان الحياة، لابد أن تعني لنا شيئًا، حتى بعد رحيلنا، و لا حزن... لا حزن... إلا حين اكتشاف أرواحنا أنّ ثمّة مساحة صغيرة من حياتنا ينقصها الشجاعة لنقاوم بها المستحيل.

ثلاثة وجوه كانت تشرق من بعيد... تومئ بالفرح... تضحك... تخبئ عنفوانها بألوان من الخجل ترتسم على المحيا، ومن هنا وهناك... ومن البدء وكان يا ما كان بدأت قصة الرضوخ لذلك العبير المنسدل من الحب، كيف أقاوم هذا الحب؟!

المكان هادئ رغم أنه يضج بالحركة، هل علينا أن نقطع كل هذه المسافة لنصل إلى المعسكر؟ كانت هذه كلمات تلك الفتاة "نور" التي تحمل ملامح سمراء وشعر داكن ينسدل كأنه يعشق التاريخ كله.... يحمل المرح طياته ويلقيه في وجهها مع كل نسمة هواء، كان الضحك يتبعثر بين الفتيات الثلاث قبل الوصول إلى المعسكر، لم تكن تعني لهن الحياة إلا تحدي الزمن بعنفوانهن وأحلامهن.

- صباح الخير.

خرجت هذه الكلمة متتالية من "لينا"، "رُبا"، و "نور"، تحركت سيارة فجأة، فلم تركز إحداهن على هذا الشاب الذي رددن عليه تحية الصباح، تقدمت نور بابتسامه لطيفة وقلب جريء، ثم قالت:

- لو سمحت أين نقدم طلبات الالتحاق إلى المعسكر؟

كان الشاب صامتًا، يقف بعينين خضراوين وشعر أسود، ويبدو أن الغضب والجدية يسكنان وجهه، لم يقل شيئًا... بقي صامتًا مما أثار هذا فضولها وضحكها، ثم قالت:

- هل أنت عامل نظافة هنا؟ أم أنك زائر لا تعرف شيئًا؟

تغيرت ملامح الشاب إلى جدية أكبر، ثم قال:

- نعم، أنا عامل نظافة هنا، هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

ضحكت نور بخجل، وقالت:

- نريد أن نقابل لجنه القبول؛ لنقدم طلبات الالتحاق بالمعسكر، فهلا أعلمتنا لو سمحت عن مكانها؟

- نعم، إنها في المبنى الذي أمامك مباشرة.

- شكرًا جزيلًا.

تحركت الفتيات الثلاث للقاء تلك اللجنة، لا شك أن الخوف كان يحيط بهن، لكنهن لم يكن يعلمن أن عيني ذاك الشاب لم تغادرهن أبدًا، أما أعينهن فلم تغادر ذاك المبنى الضخم الذي يكاد يخلو من الناس، إلا من بعض المراجعين لتقديم طلبات الالتحاق بوظائف في المعسكر، كانت هذه أمنية يتشارك فيها الجميع؛ لأن الالتحاق به كان يحمل الكثير من الامتيازات، رغم أن المقبول عليه أن يمكث سنوات دون أن يرى أحدًا من أهله أو أقاربه.

اللجنة مكونة من شخصين؛ أحدهما شاب لطيف رغم جديته –كونه يحمل رتبه عسكرية- أما الآخر فيبدو أنه أقل جدية و أكثر مرحًا، كان الكرسي بينهما فارغًا، يبدو أنه كرسي يخص رئيس اللجنة، أو لعله في الأصل لا أهميه له.

جهّزت الفتيات أور اقهن ينتظرن دورهن، وكان جو الارتباك يفرض نفسه بقسوة عليهن ممّا حدا بـ"لينا" أن توجه كلامها إلى نور بصوت مختنق قائلة:

- اسمعي نور، هل تعتقدين أن... نـ... ننا سنقبل في المعسكر.

كانت لينا توجه كلامها إلى نور وهي خائفة.

ضربت نور بأناملها يد لينا ودعتها إلى الصمت.

- آسف للتأخير.

كلمة كانت صاعقة نزلت عليهن حين نظرن جميعهن إلى الباب حيث يقف ذلك الشاب الذي وصفته نور بعامل النظافة.

ارتبكت الكلمات، وذهبت يمينًا وشمالًا، وقفت نور وهي تعض على شفتيها، ثم جلست؛ لعلها تهدئ من قلقها واضطرابها، كانت تود أن تتوقف حبات العرق عن التساقط بسرعة، وكذا دقات قلبها التي كانت تهمس لها قائلة:

- هل هو رئيس اللجنة؟! كيف؟! متى؟ يا إلهي، كيف تفوهت بتلك الكلمة؟

ابتسم الشاب ابتسامة تحمل خبثًا و انتصارًا في طياتها، اقترب من نور.... أومأ عليها وأخذ منها ورقة القبول، وهمس في أذنها:

- أنا آسف يا آنسه؛ لأنني مضطر لأخذ أور اقك، مع أنني عامل نظافة.

هنا توقفت الكلمات حين أدركت نور أن هذا الشاب كان رئيس اللجنة، ولكنها لم تدرك بعد وتعلم ماذا كانت ستفعل لو علمت أنه قائد المعسكر نفسه.

انتهى ذلك اليوم، كان ثقيلًا... متعبا، تحول الفرح فيه إلى هدوء طويل والفتيات الثلاثة يجلسن في الحافلة استعدادًا لرحلة العودة الطويلة إلى بيوتهن، كانت الكثير من الأغنيات تُغنّى متتالية والصمت سيد الموقف، الأسئلة

كثيرة والأجوبة أقل، هل سنُقبل في المعسكر؟ كيف سنُقبل بعدما حدث ما حدث؟ هل تستطيع "ربا" و"لينا" أن يلقيا باللوم على نور التي تخنقها العبرات؟ والتي أضاعت فرصه ثمينة بسبب كلمة تافهة لم تكن تقصد نفسها.

وشق الصمت عبارة هي آخر ما قيلت في ذلك اليوم وجهتها لينا قبل نزولها قائلة:

- نور، هل تعتقدين أننا سنقبل في المعسكر؟

- لا أعرف.

ردت نور بكلمة شعرت أنها استغرقت منها وقتًا طويلًا، لا تعرف كم مرة تكررت قبل أن تخلد إلى النوم بثقل ونوم عميق.

كان الشتاء يلقي بظلاله على المدينة، والغيوم السوداء والبيضاء تتنازعا لاحتلال بقعة من السماء، تتلألأ حينًا غيومًا بيضاء تملأ المكان، وحينًا غيومًا سوداء تزرع الغضب والحزن في نفس نور، طرق الباب طرقات خفيفة، لكن الملل الذي يحيط بذلك الصباح منع نور من التحرك لفتحه، إلا أن كثرة الطرقات أحيَت في نفسها بعضًا من النشاط، فما أن فتحت الباب حتى كانت دون إدراك تلقي بنفسها على ذاك الشاب وتحتضنه بقوة، ومازالت ضحكاته تتردد في أذنها، مروقت طويل قبل أن تفرغ نور حبها وهمومها على صدره.

- صباح الخير أيتها المجنونة.

- هذا أجمل صباح مرعليّ منذ وقت طويل.

قالت نور هذه الكلمات وصوتها يحمل حزنًا بسيطًا، قبض الشاب على يديها وأعادها خطوات إلى الوراء قبل أن يسألها:

- هل قدمتِ أور اقك إلى المعسكر؟

- أجل يا خالي... قدمت أوراقي، ولن أُقبل؛ لأن ثمة أمر حدث.

انتظرت نور لحظات ليسأل خالها عما حدث، ولكن مروقت دون سؤال.

جلست وهي تقبض على فنجان القهوة ليشعرها بالدفء، وليغدو بخاره ما يعبر عن أنفاسها.

- غريب... اعتقدتُ أن الأمر سيكون مختلفًا نوعًا ما.

قال هذه الكلمات، ولم تعرف نور عمّا يتحدث خالها أيمن، الذي أكمل قائلًا:

- لقد قرأتُ اسم لينا وربا واسمك من المقبولين في المعسكر.

توقف الزمن لحظات ونور ساكنة في مكانها، لا تعلم ماذا تقول.... وماذا تفعل، كان الفرح يملؤها وهي تقفز سعيدة، ولا تعلم ماذا يخبئ لها الزمان!

لم يبدأ الشتاء بعد، لكن رائحته تملأ الآفاق.... كل المعاني كانت تنتقل بين الأجواء، الجميع يعدّ العدة للتوجه نحو المعسكر، بقي شهر أو اكثر وتتغير معالم الحياة للمجندين الجدد فيه، ورغم برد الشتاء الذي يحتمل في كثير من الأحيان إلا أن ذلك لم يمنع نور ولينا من الخروج للتسوق استعدادا للعيش في المعسكر، ولحضور ذاك الاجتماع الذي يسبق التدريب ويحمل جملة من القوانين الصارمة التي يتوقعها الجميع.

بدأت نور تتناسى ما حصل في أول لقاء لها مع القائد، شكلها الجديد بزيها العسكري كان يخفي الكثير من معالم شخصيتها و انفعالاتها وهي ترقب الجموع تتوالى إلى قاعة الاجتماع، كان القائد يجلس في مكانه، يحاول أن يتقبل تلك الفوضى التي بدأت في أول الاجتماع، ابتسم ابتسامة خفيفة، تأكدت نور أنها باردة.... حلّق الصمت... وكانت كل العيون تتوجه إليه؛ لسماع ما يقول، شعرت نور أن عينيه كانت لا تغادر أحدا وهو يقول: - مساء الخير.

كل انتباهٍ توجه إلى هذا الشاب الذي كان في الثلاثين من عمره، عرّف بنفسه وأصدقائه؛ "ليث" صديقه ومساعده، "مجد" الحارس الشخصي له، أما هو "أحمد" قائد المعسكر، والذي لا يجوز أن يناديه أحد إلا بالقائد أو السيد، سمعت نور ولينا وربا والجميع الكثير من القوانين حتى تصدعت رؤوسهن، هي حياة جديدة تخيف في كثير من تفاصيلها، لكنهن سمعنَ من أفواج أخرى أن الجميع سيعتاد على هذه الحياة التي لا يعرف أحد ماذا تخبئ؟!

بدأت الأيام تتوالى... نور كانت تشعر أن هذا الشهر سريع وأنها ستتأخر كثيرًا لتعود إلى أهلها مرة ثانية، إلا أن دموعها لم تنهمر أبدًا إلا حين قبّلت واحتضنت صديقها وخالها أيمن التي كانت تحبه أكثر من نسائم الصيف.

المزرعة.... هي المكان الجميل الذي يطمح كل الجند أن يلجؤا إليه ولو ليوم واحد، وهو المكان الذي سينتقل إليه الجميع قبل التوجه إلى المعسكر، خيول و أشجار.... وصيف جميل.... حتى الشتاء كان له جمال ورونق لا يميزه أحد إلا هناك، يا لهذه اللحظات التي نسرقها من الزمن، نحاول أن نزرع فيها سعادتنا الصغيرة لتكبر، تُرى لو علم الزمن بها هل يحاربنا عليها؟ أم ينتزعها منّا؛ لنخلد إلى الأحزان ثانية؟ كل الفتيات شعَرْن بالغربة والخوف رغم أن كل من في المزرعة حاول خدمتهن وتحقيق السعادة لهن، لكن هذا حال الأمور الجديدة دومًا، كما قالت الجدة -التي هي سيدة المزرعة والمرأة الخارجة عن قوانين المعسكر كما يتداول الجميع- إنها امرأة جميلة في الستينات من عمرها، لا تخاف القائد كما يفعل الآخرون، ولا تفعل إلا ما تريد، كم مرة حاولت تهدئة الفتيات وشرح محاسن العمل في المعسكر كمجندات، و قد استغرق هذا منها يومين كاملين قبل رحيلهن الى المعسكر.

سكَنت الفتيات مبنًى ضخمًا، كل غرفة فيه تحوي أربعة أَسِرّة، اختارت نور وربا ولينا غرفه واحدة، وبدَأْنَ يحطُطْن رحالهن فيها، كان من الصعب على أي فتاة أن تستوعب كل شيء في لحظات، أو حتى أيام؛ فهو عالم جديد مليء بالعمل الممزوج بالأوامر العسكرية في الصباح، وبعيدًا عن الأحبة والأهل في المساء، لم تركز أي صورة من المعسكر في ذهن أحد، ولم يكن هناك معرفة مسبقة تجمع بين الفتيات، وهذا ما كان يزيد الأمور تعقيدًا وصعوبة، إلا أنّ الرغبة الجامحة في قلب كل فتاة لكسر هذه القيود القاسية بدأت تسهل الأمور أكثر.

الباب مغلق.... كل مجنّد عليه أن يدخل إلى القائد حتى يأخذ ورقة المباشرة في العمل، هل عليّ أن أدخل إليه؟ هذا هو السؤال الذي كان يشغل ذهن نور قبل دخولها، لم تكن تعلم ماذا يمكن أن يحدث في هذه الغرفة الصغيرة والتي شعرت للحظات أنها العالم كله، فتحت الباب... خطوات بسيطة تفصلها عن القائد و"ليث" الذي كان يجلس على مكتبه ويبادله كلمات لا يستطيع أحد سماعها، اقتربَت بخطوات مترددة وسريعة، ثم ألقت التحية قائلة:

- صباح الخير.

لم يرفع القائد نظره عن الأوراق التي بين يديه، لكنه رد بهدوء بالغ:

- صباح النور.

أنا... جئت... لآخذ ورقة مباشرتي بالعمل.

شعرت نور أن القائد للحظة سيصرخ في وجهها، فربطت جأشها وانتظرت الجواب.

حرك القائد تلك الورقة التي بين يديه وقدمها لنور دون أن يقول شيئًا.

الْتقطَتْ نور أنفاسها وخرجت من المكتب دون أن تتلفظ بكلمة واحدة.

يا لهذا اليوم الثقيل...

تبادلت الفتيات الحديث قبل الخلود إلى النوم في اليوم الأول من الدوام في المعسكر.

- أثقل ما فيه الطابور العسكري في الصباح.
- لا، أثقل ما فيه جدية القائد.
- هل سنعتاد على هذه الحياة القاسية؟
- ربما..
- اشتقت إلى أمي.

قطعت نور الحديث عن المعسكر والقائد، وهي تحنو لرائحة أمها حين تصنع الشاي في الصباح، هل علينا حين نحزن ونبعد عمن نحب أن نلجأ إلى أحضان أحبائنا الذين يكتب لنا الزمن دائمًا أن نبتعد عنهم؛ لنحيا في خضمه القاسي؟

صوت نور كان يخبئ حزنًا لمحته لينا في عينيها، فهمست لها قائلة:

- نور، ما الذي يحزنك؟ ثمة ما أزعجك في المعسكر؟

تنهدت نور ورفعت رأسها بهدوء، ثم قالت:

- إنه.... انسي الموضوع لعل الأمور تتغير، فما زال أمامنا خمس سنوات متتالية علينا أن نصادق فيها الصبر حتى النهاية.

كيف ينام العشاق؟ كيف يقضون الليل والنهار؟ هل ثمة شتاء أو صيف خاص بهم؟ أم أن الخريف والربيع وجهان لقلب واحد في صدورهم؟ تلك الجبال التي كانت تحيط بالمعسكر وذاك الجسر المهترئ القديم كان يضرب

تاريخه بينه وبين البلدة القديمة التي تحمل ذكريات الماضي، أسماء كثيرة وحب عتيق ورائحة التراب كلها تحتضن الجسر الذي يضحك من تراكم السنين عليه وهو ينظر إلى أفواج المجندين تتوالى والزمن يعود إلى الوراء.

ماذا نفعل حين نلاقي الحب وجهًا لوجه؟ هل نستعين بالشمس لنَصْف حبنا؟ أم نستنشق هواءً عميقا لتخرج الآهات معه؟ فإن تسرب العشق إلى أنفاسنا دون أن نشعر به كيف لنا أن نقنع بما يقوله العشاق: أن الشوق والصمت والهيام هي أجمل نار يصطلي بها العاشق؛ ليغير لون الشمس حين الغروب، أو يلملم أوراق الشجر ويضعها إكليلًا على جراحه المتجددة على الدوام.

شهر مضى ولم يكن أحد في المعسكر يجد غير القوانين الصارمة والحياة القاسية، في النهاية الموت مع الجميع رحمة كما يقول الأحباب دومًا، جو الشتاء كان يفرض نفسه حيث عبق الشراب الساخن يملأ استراحة المعسكر، ضجيج وأصوات ضحك وطلبات تملأ المكان كانت أشبه بخلية نحل صاخبة، فلم تكن تميل إلى الهدوء والجدية إلا حين تواجد القائد فيها بين تارة وأخرى، وهذا كان حالها اليوم... القائد يتوسطها مع أصدقائه، وكلٌّ يجلس في مكانه بهدوء، همست نور بصوت منخفض وهي ترقب القائد بطرف خفي موجهة كلامها إلى لينا، وبيدها الأخرى ملعقة صغيرة تداري بها خوفها:

- لينا، أريد أن أتأخر قليلًا عن الالتحاق بعملي اليوم، فماذا أفعل؟

نظرت لينا إلى نور مستغربة جرأتها، ثم ردت عليها بحدة:

- لماذا يا نور؟!

- أتوق لسماع صوت خالي أيمن ولو للحظة.

- ها هو القائد، اسأليه إذا رغبتِ.

- أريدكِ أن تأتي معي؛ لأنني خائفة بعض الشيء.

ترددت لينا، واستبعدت أن تذهب مع نور لطلب إذن لها.

- لا نور، لا أستطيع، اذهبي وحدك.

- أرجوكِ لينا، لن أزعجك مرة ثانية.

تحركت مقاعد نور ولينا للتوجه إلى طاولة القائد، ثم اعتدلتا بوقفتيهما وبدت الجدية تسيطر عليهما.

- صباح الخير سيدي.

لمعت عينا القائد، و ابتسم بهدوء قبل أن يحرك عينيه للنظر إلى نور ولينا، ثم قال وقد أعاد نظرة إلى فنجان القهوة:

- صباح النور... نعم؟

صمتت نور للحظات، ثم أبعدت مشاعر الجبن المحيطة بها قليلًا وقالت:

- سيدي، أنا... كنت... أريد أن أستأذن في التأخر نصف ساعة عن العمل.

- لماذا؟

- لأن.... لسبب خاص.

- هل عليّ أن أغفر أخطاءك دومًا يا آنسة؟

تفاجأت نور برد القائد، و أيقنت أنه لم ينسَ ما حصل بينهما في أول لقاء، خانتها الكلمات للحظات، ثم تداركت نفسها وقالت:

- أنا آسفة.

- على ماذا تعتذرين؟

- على ما تريد.

شعرت لينا أن نور تود أن تجهش بالبكاء؛ لفرط حساسيتها ولنبرة القائد المستهترة.

فتفاجأت بها تدير ظهرها وتهم بالعودة إلى مقعدها دون انتظار الجواب، وقبل أن تخطو خطوتين أوقفها صوت القائد بغضب أصمت الجميع:

- حين أُنهي كلامي تغادرين يا آنسة.

لم ترد نور بأي كلمة، بل حبست دمعة أرادت أن تذرف من عينيها، ثم عادت إلى مكانها؛ ليكمل القائد حديثه قائلًا:

- أحب دائمًا أن تكون لأفعالنا أسباب نقتنع بها قبل الآخرين يا آنسة، هذا أولًا، أما ثانيًا... فلا بأس من تأخرك هذا الصباح على أن لا يتكرر مرة ثانية.

انتهى الكلام وفي نفس نور ضيق؛ فقد نسيت كل شيء.... جمال الشمس حين تشرق في الشتاء، وخجل الأشجار في خريف لا نهاية له، نسيت كل المشاعر الجميلة، ولكن ثمة لحظة أو ابتسامة أو نظرة توقظنا من غفلتنا؛ فننفض الغبار عن قلوبنا، ونجدد فيها لحظات الحب والعطاء؛ لنغدو قادرين على العيش مجددًا دون عناء، كل هذا لم يلمحه أحمد وهو ينظر إلى عيني "ليث" المتلألئة والذي كان يداريها حينًا كي لا يراها صديقه، حتى جاءت تلك اللحظة من الليل الهادئة التي قبض فيها أحمد على ساعد ليث وهو يلف فنجان القهوة متمعنًا فيه، ثم قال: ليث، ماذا يدور في ذهنكَ يا صديقي؟

تلعثم ليث وصمت، استجمع قواه ثانية وقال:

- لا شيء.

ضحك أحمد وجلس على كرسي إلى جانب صديقه، ثم قال:

- ليث، نحن وُلدنا وتربينا وتعلمنا سويًا، منذ ثلاثين عامًا لم نفارق بعضنا، أتسخر مني لتقول لي لا شيء؟!

كان صمت ليث مزعجًا، تنهد مرارًا ثم قال:

- لا أعرف..

علا صوت أحمد، وضحك بصوت مرتفع، ومشى خطوات نحو النافذة التي كانت تحتمل برد الشتاء القارص، وقال:

- لا تعرف؟ أنا أعرف، على أية حال أعتقد أنها تستحق ما أنت فيه.

زان الخجل وجه ليث وشعر أنه وقف إلى جانب أحمد دون أن يدرك الخطوات، أراد أن يدافع عن نفسه، لكنه لم يستطع؛ فهو يقف أمام شقه الثاني؛ لذا حاول أن يخفي بعض ارتباكه قليلًا، فقال:

- من تقصد؟

- من أقصد؟!

- إنها هي التي نالت إعجابك...

كل الأسماء اختفت، ولم يظهر اسم فتاة، إلا أن كليهما كانا يعرفان بعضهما تمامًا.

منى... تلك الفتاة التي كانت غرفتها تقابل غرفة نور وصديقاتها، إنها فتاة جميلة هادئة، كل أحزان العالم تسكن عينيها، تاريخها مقسوم إلى قسمين؛ أحدهما حزين والآخر سعيد كيف؟! لم تكن تعلم كيف تجمع هذه التناقضات التي لم تشعر بها إلا حين تلتقي بـ"اعتدال"... هذه الفتاة التي تقع غرفتها في آخر الممر من الجهة اليسرى، والتي كانت دائمة السعادة والضحك، تعرفن

جميعهن على بعضهن، فكانت كل واحدة منهن تشكل عالمًا، أو لنقل فصلًا يكمل بعضه بعضًا، حين تحزن نور كانت ترى حزنها في عيني منى، وحين كانت تسعد أو تريد السخرية من كل الأشياء تعود إلى اعتدال الذي كان اسمها يثير السعادة في قلوب الجميع.

كانت قوانين المعسكر تقتضي أن تكون الفتيات في السكن تمام السابعة مساءً، ويمنع الدخول أو الخروج بعدها إلا بإذن من القائد؛ لذا الجميع يفرغ نفسه للنشاط وشؤونه الخاصة بعد السابعة، وكان هذا حال نور التي كانت تسهر كل يوم خميس عند اعتدال وصديقاتها حيث أكواب القهوة والشاي الدافئة والطعام الذي لا ينقطع، وبين كل لقمة وأخرى ضحك ولعب وسهر طويل، وسهرة اليوم مميزة... فـ"ربا" افتتحتها بإسكات الضحكات قائلة:

- أريد أن أطرح عليكن سؤالًا مهمًا.

الْتفتَتْ كل العيون إلى "ربا" باهتمام... بينما كانت تفوح رائحة العشاء لتملأ جو الغرفة المفعم بالكثير من الدفء والابتسامات.

السؤال هو: لو قدّر لاعتدال أن تخرج في رحلة منفردة مع القائد، ماذا يمكن أن يحصل يا ترى؟

انفجرت الفتيات بالضحك، وكل واحدة في ذهنها ألف جواب، وهنّ يتذكرن هذا الموقف الذي يجمع متناقضين... كما بين الصيف والشتاء.

إحداهن قالت أنه ربما يموت من الضحك، والأخرى قالت أن اعتدال يمكن أن تموت هي من القهر، أو ربما يموتان من شدة التناقض.

تاهت نور قليلًا في خيالها لبرهة، ثم قالت:

- أنا أعتقد أن أمه ستكون غاضبة عليه.

وقفت اعتدال وهمست بصوت منخفض.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن... هل للقائد أمٌّ مثلنا؟ لا... لا أظن ذلك، وهل تحتضنه كما يحتضن الابن، لا أتصور هذا الأمر أبدًا.

لحظات صمت.... تاهت كل واحدة منهن في خيالها، يستذكرن كلام اعتدال ويحاولن الجمع بين جدية القائد وحنان أمه، عجبًا؛ هل لاؤلئك الناس الذين يقسون على الآخرين قلوب يعشقون بها؟ هذا ما لمحته اعتدال وهي تنظر إليهن دفعة واحدة، ثم ركزت على "لينا" التي قالت والابتسامة تزين وجهها الهادئ:

- أنا أعتقد أن مَنْ مثل القائد يملكون جانبًا من الحب والعطاء لا يظهر إلا في لحظات معينة ولمن يحب فقط.

قفزت اعتدال قائلة:

- إذن علينا أن نختار له فتاة مناسبة؛ لتستخرج الحب الكامن في نفسه؛ لعلنا نرتاح من عناء قسوته.

كل الفتيات جمعتهن ضحكة صغيرة وهن يسمعن كلام اعتدال الساخر الذي ختمته بقولها:

- إنها منى... لقد وقع الاختيار عليها، ما رأيكن أيتها الصبايا؟

أنهى اسم منى تلك السهرة، وكانت لينا ما تزال تبتسم ابتسامة غريبة لم يفهمها أحد وسط ضحك الفتيات المتواصل.

شوارع البلدة القديمة.... أضواؤها الحمراء الدافئة..... وغبار شوارعها، هذا هو ما نحنو إليه ويحنو إلينا في الوطن؛ فنصبح روحًا واحدة دون انتهاء للزمن، وهل يمكن للوطن أن يكون هو والعاشق شيئًا واحدًا؟ ربما... حين تتحرك ذرات ترابه ودقات قلب العاشق في لحظة واحدة... هي لحظة لقاء الحبيب.

مرت الأيام وجميع الفتيات أخذن على الوضع الجديد في المعسكر، الأمور بدأت تتضح أكثر، حتى نور التي لم يعد يخفى عليها وجه لينا المتغير باستمرار، حين كان الجميع يأوي للفراش وهي تحتضن فراشها بشدة تشكو البرد حينًا واشتياقها لأمها وقريتها حينًا آخر، أرخت نفسها على الوسادة، ثم قالت:

- لينا، أخبريني بما تشعرين الآن؟

تفاجأت لينا بسؤال نور وضحكتها المخبأة، فردت باستغراب:

- لا أشعر بشيء؛ فأنا لستُ مريضة.

- آهه.

- ماذا تعنين بهذه الكلمة؟

أخفت نور رأسها تحت الفراش وهي تضحك، إلا أن لينا هاجمتها وكشفت عن وجهها قائلة:

- إما أن تخبريني أو.....

حاولت نور أن تهرب من لينا، لكنها استسلمت وقالت:

- أعني... أعني... سأقول لكن اتركيني بعدها.

- سأتركك، ولكن أخبريني ماذا تعنين؟

- أعني... كيف تشعرين و أنتِ عاشقة؟

نزلت هذه الكلمة قاسية على لينا؛ فهزت مشاعرها، وصمتت وقتًا طويلًا قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا وتقول:

- من؟... من تعنين؟ بالتأكيد أنكِ تفهمين الأمر بشكل خاطئ.

صمتت نور، وشعرت بندم؛ لم سببته للينا من حرج، فاعتذرت لها قبل أن تعود إلى فراشها قائلة:

- لينا حبيبتي، أنا آسفة.

- لا تعتذري، أنا لست غاضبة منك، ولكن أخبريني من هو ؟ وكيف علمتِ؟

قفزت نور من فراشها ضاحكة وهي تقول:

- إنه ليث، أليس كذلك؟ أما كيف علمتُ فهذا أمر هيّن؛ من النظرات والخفية والابتسامات الجذابة.

تنهدت لينا وهي تداري خجلها، ثم قالت:

- أصبحتِ خبيرة في العشق يا صديقتي.

نهضت نور مسرعة من فراشها إلى سرير لينا وهي تحرك رأسها بمرح قائلة:

- لا يا صديقتي، أبعدني الله عنه؛ فأنا لا أحتمله، ولا أحتمل أن أعشق غير أمي وخالي وقريتي الجميلة.

نظرت لينا إلى النافذة لتلمح تراكم أضواء المعسكر التي شكّلت نورًا أشبه بأطياف نهر متتالية.

هذا هو حال المعسكر حين سقوط المطر؛ زخات متعرجة، وكرات مليئة بالماء تتناثر فيه حيث لم يتبق إلا هواءٌ خفيفٌ ليثير البرد في أطراف الجميع، يهمس لنا أن الشتاء لا يزينه إلا حب النساء للعشق فيه؛ فالقلوب تميل إلى حب الدفء وقسوة الحبيب، وهذا لا يكون إلا في الشتاء القاسي، لكن قطرات المطر لم تكن تعني لنور شيئًا إلا أنها تشبه إلى حد كبير دموع منى التي كانت تداريها وسط زخات المطر، حاولت نور كثيرًا أن تختبئ بين طيات الزمن وترجو

بعينيها قلب منى أن يظهر ما يخفيه، لفّت بيديها الدافئتين يدي منى، ونظرت إليها بحنو بالغ، بينما كانت منى تبعد عينيها حتى لا تلتقيا بعيني نور.

- منى.

خرجت الكلمة من فم نور كأنها العالم كله، تنهدت قليلا وتابعت:

- أرجوكِ منى، أخبريني ما يحزنكِ ويضعف من فرحك وشوقك؟

حركت منى أصابعها بين يدي نور وأجهشت بالبكاء، فكان بكاؤها دوامة صغيرة لا تنحني لها الأشجار ولا برودة الشتاء، كم من سؤال طرحته نور في نفسها لتعرف الجواب، هي حزينة... وكم حزينٍ في هذا العالم لا يجد حبًا، ولا حتى جوابًا لأسئلتهن وحين أسعفت العبرات وجه منى توقفت ومسحت دموعها الغزيرة وهي تقول:

- لا شيء، هو حزن يلازمنا منذ استنشاقنا هواء هذا العالم الكريه.
- أي حزن هذا الذي يسكن دون حراك يا عزيزتي؟
- حزن من نوع ليس له نهاية ولا بداية، كأنه عالم يعشقنا ونعشقة.
- منى، أخبريني... أرجوكِ؛ لعلي أستطيع أن أصنع لكِ حبًا... فرحا... عالمًا جديدًا كما تحلمين به؛ فضحكاتنا... ابتساماتنا... سهراتنا... كلها لم تستطع أن تخرجكِ من أحزانك.

ضحكت منى باستهزاء بالغ وهي تردد كلمات نور:

- عالم... حب... فرح، يالهذه الكلمات التي لا تتحقق إلا بالاحلام.

شعرت نور بالذنب، عادت للحظات إلى الوراء ولم تعرف ماذا تقول، لم تفكر إلا في إخراج منى من حجم الحزن الهائل الذي تعيش فيه.

- منى.... حبيبتي، أنا لن أتركك حتى تبتسمي وينتهي هذا الشتاء بابتسامتك الجميلة.

- كيف أبتسم وقلبي حزين؟

- كلنا يستطيع أن يعيش للحظات بسعادة بالغة، وكلنا يملك أن يقضي هذه اللحظات بالحزن واليأس، ولكن علينا أن نذكر دائمًا أن السعادة والأحزان هي أشجار تنام على قارعة الطريق يمكن لأي منا أن يقطف ثمار أي منها في أية لحظة.

- وكلنا يمكن أن يعيش دون حبيب، إذا كان الحبيب سيسعد ببعدنا عنه.

كانت اللحظات التي جمعت بين نور ومنى غريبة؛ تحمل بؤسًا لم يستطع أن تصل من خلاله نور إلى معرفة أي سبب لأحزان منى الكثيرة.

- نور... نور.

كان الصوت بعيدًا وخائفًا... مترددًا و حزينًا، شعرت نور أن لينا تناديها، ولكن بحلمها دون يقظتها؛ فعادت تحاول الاستغراق في النوم مجددًا إلا أن أصوات لينا العنيفة حركتها عن فراشها.

- نور، استيقظي لتعلمي ما حدث.

فركت نور عينيها بدهشة، ونظرت إلى لينا التي كان يظهر عليها آثار بكاء طويل؛ فخافت وارتعشت راغبة من لينا أن تُعلِمها بما حدث.

- ماذا هناك يا لينا؟ أخبريني؟

- نور، إنّ... لا أعرف ماذا أقول لك.

شعرت نور أن كل الكلمات اختلطت في فم لينا؛ فصرخت في وجهها خائفة وقالت:

- أخبريني ماذا حدث؟
- منى..

وقبل أن تكمل لينا كلامها وقفت نور مرتعبة، وقالت بسرعة:

- ما بالها؟ تكلمي.
- لقد قتلت نفسها.
- قتلت نفسها! منى! ... كيف؟ متى؟ بالأمس كانت معي... بين أحضان يدي... كانت أخروجه ودّعتُه، لماذا؟

أسئلة كثيرة..حزن... ويأس متنام سكن قلب نور وقلب المعسكر، كانت الدهشة تملأ الجميع، والصدمة تسكن عيني نور التي أخذت تتجول في الغرفة.... تسأل جدرانها... أسِرّتها... حتى صورها... بحثت عن جواب في عيني خالها... في اشجار الصنوبر التي كانت تحيط بالمعسكر، لم تجد جوابًا... شعرت بالغرفة تدور من حولها حتى استسلمت للبكاء في لحظات، ودموعها لا تنهمر إلا في يديها الصغيرتين... كأن الزمن أصبح حياديًا لا يملك هدفًا ولا لونًا، لم تعرف كم من الوقت بقيت نور على حالتها حيث يلفها الجميع باكين وتملؤهم الحيرة، أفاقت نور من غفلتها على صوت لينا وهي تناديها:

- نور، أليس أنتِ آخر من كان مع منى ليلة أمس وتحدّث إليها؟

أومأت نور برأسها مو افقة ولم تقل شيئًا؛ فأكملت لينا كلامها قائلة:

- لهذا السبب القائد يريد أن يراكِ حالًا في مكتبه.

بدأت دقات قلب نور تتسارع، ودموعها تنهمر ببطء، ما هذا اليوم الذي لن ينتهي؟

من أين أبدا؟ وكيف أنتهي؟ لا أعرف؛ فالموت هو الحقيقة التي أنهت كل شيء في لحظات، وسهّل ما نراه صعبًا في لحظات أخرى.

كان الحزن يسيطر على المكان، وجدت نور نفسها أمام مكتب القائد، تهيأ لها أن شجاعتها ستخونها طوال هذا اليوم العصيب، طرقات خفيفة كانت تفصل بينها وبين القائد الذي ما أن سمعت إذنه بالدخول حتى تسارع الحزن والخوف والقلق إلى جسدها؛ لتتنهد طويلًا قبل أن تدخل.

كان القائد حزينًا، وإلى جانب حزنه كانت تسكن دهشة واستغراب، من لم يحزن على فراق منى؟! كان موتها سريعًا كوردة جبل برية، وكانت حياتها كنرجسة شتاء وحيدة، هز القائد رأسه وقال موجهًا كلامه إلى نور:

- تفضلي..

تنهدت نور وضمت شفتيها بحزن قائلة:

- هل استدعيتني سيدي؟

لم يرد القائد بكلمة، بل مرت لحظات قبل أن يرفع عينيه إليها وهي تقف مواجهة له، ويقول بكثير من الحزن:

- هل صحيح أنكِ كنتِ بالأمس مع منى؟

حركت نور رأسها والدموع تنعقد في عينيها البريئتين، ثم قالت:

- أجل سيدي.

- وماذا دار بينكما من كلام؟

- كان كلامًا عاديًا.

- يعني ماذا كان كلامًا عاديًا؟

ساد الصمت للحظات، كانت ترى فيهما نور عيني القائد تبرقان بغضب، خافت وعادت قليلًا إلى الوراء، تحولت اللحظات إلى ثوان ودقائق، اقترب فيها القائد أكثر منها، وكلما اقترب كان الخوف يشلّ من حركتها اكثر، وخاصة بصوته الصارم ونبرته الحادة حين قال:

- لماذا قتلت منى نفسها؟

- لا أعرف سيدي.

ضرب القائد الطاولة بعنف بالغ؛ ليعلن نفاذ صبره عن نور التي لم تجب على أي سؤال كما يريد، تمنت نور لو أن الزمن يعيدها إلى الوراء؛ فلا تفكر في الالتحاق بالمعسكر والوقوف بهذا الموقف أبدًا، لم يكفها الحزن الذي كان يلفها، بل أسئلة القائد المتكررة كانت تزيدها يأسًا وألمًا.

حاولَت أن تقول شيئًا؛ لتطفئ غضب القائد الحاد، ولكنها لم تكن تعرف شيئًا؛ لذا أغمضت عينيها وهمست بهدوء قائلة:

- سيدي، صدقني أنا لا أعرف شيئًا.

- بل تعرفين.

تحولت نبرة القائد إلى تهديد، ونور فضحتها حبات العرق المتساقطة وارتعاش يديها، حتى دموعها التي بدأت تتساقط، كيف لها أن تقنع القائد بأنها لا تعرف شيئًا؟ عادت لتلملم شجاعتها ثانية وتستسلم لآخر لحظات قوة جمعتها حين تذكرت صديقتها، ثم قالت:

- سيدي، أقسم أنني لا أعرف شيئًا، كانت حزينة ويائسة و..

أجهشت نور بالبكاء، ولم تستطع أن تكمل كلامها المتقطع، بينما كانت عيون القائد تحيطها بغضب من كل مكان، شعرت أنها تنهار تمامًا وهي تهمس لصديقتها بحزن قائلة:

-لماذا تصرين يا منى على تعذيبي حتى آخر لحظة؟ لو كنت أعلم أنكِ ستموتين لحضنتك بعنف وقبّلتك بحب وشغف.... لقبضت على يديك لأنتظر معك أفاقًا جديدة للحياة، لو كنا نعلمها لفكّرنا طويلًا قبل أن نبكي أحزاننا، ماالذي أفقدَكِ حياتك في ثوان يا صديقتي؟ ترى يا سيدتي هل يكفيك هذا الفضاء كله ليكون قبرًا لكِ، كم شجرة زيتون تكفيك لتزينك يا عروس الشتاء؟

قطع الصمت المتوتر صوت ليث وهو يدخل إلى المكتب الذي فهم للحظة كل شيء، وعلم أن نور تقف موقفًا صعبًا، خاصة وهو يرى غضب القائد يتسارع بحذر.   - هل أستطيع أن أتدخل في الموضوع يا أحمد؟

بدأت أسارير نور تنفرج، وشعرت أن ثمة من جاء لينقذها، لكن صمت القائد أشعرها بأنه لن يُحدث ما هو جديد.

تبادلت الوجوه الثلاثة صمتًا غريبًا، وقطعه صوت نور موجهة حديثها لليث:

- أنا لا أعرف كيف أثبت براءتي للقائد.

- أنا أقترح يا أحمد أن نؤجل الحديث في هذا الموضوع حتى نشارك في العزاء.

سمع أحمد كلامهما، و أشاح بوجهه متجهًا إلى مكتبه؛ لينهي هذا اللقاء الغريب الذي ملأ نور حزنًا واشمئزازًا. ارتاحت نور قليلًا وهي تخرج من مكتب القائد، لكن قلبها كان حزينًا في كل لحظة تتذكر فيها أن غدًا ستتجه للمشاركة في عزاء صديقتها الحزينة.

صوت ضجيج الحافلات كان يثير جوًا من الألم والحزن المتزايد حيث كانت تستعد لحمل بعض من أصدقاء منى للمشاركة في العزاء، جو الاختناق والكلمات المردودة إلى الشفاه كان يسيطر على الجميع، كم جملة تحدثوا؟ جمل معدودة تكاد تحصى بسهولة؛ فالمصاب كان جللًا، وأجَلّه هو الشعور بأن تراكض الأيام يجعلنا في شوق لمن رحلوا، نتذكر أنهم كانوا بالأمس معنا، وأنهم ذات يوم ضحكوا هنا وبكوا هناك، وأن آمالهم لم تتحقق بعد، بل إن كل ما يملكونه الآن هو التراب المتراكم فوقهم؛ فيا للأسى.

ويالتلك الساعة التي تفصل بين المعسكر وبيت منى الذي يقع بين طرق متعرجة و أشجار زيتون كثيرة، وبعد صمت دام ساعة تبادلت فيها النظرات والدموع الساخنة ترجل الجميع والهيبة تسكن أنفسهم؛ فالحزن لا يفارق أحدًا، ولا يترك حتى لنسمة هواء أن تمضي، ليتكِ يا منى لم تفعلي ما فعلتِ، ولا لونتِ أيامنا بهذا السواد المقيت.

لماذا اخترتِ الشتاء؟ حتى لا يحتضنك ورد الربيع؟ أم أقحوان الصيف الهادئ؟ كنت تعلمين أن الشتاء وحده لن يرحمك؛ فصيف وربيع وطني سيمنعانك من هذا الحزن الذي ملأتِ به قبركِ و أيامنا.

كان يومًا حزينًا طويلًا انتهى بتلك الحفرة التي سكنت فيها منى للأبد، و انتهت بها أيامها وليالي عمرها، هل ثمة دموع لم تنزل؟ هل ثمة عيون لم تبكِ؟ لا... لم يكن هناك أمل في رؤية لمحة أمل واحدة في عيون أحد، فرغم أن والدَي منى سبقاها إلى تلك الحفرة، لكن وجه شقيقها ازداد بؤسًا وحزنًا؛ لأنه فقَدَ برحيلها أجمل فرحة في حياته... شقيقها الشاب متوسط العمر... شديد

احمرار العينين... كثير البؤس، كان يبحث بعينية عن شيء، أو شخص، أو حقيقة، لا أحد يعلم إلا حين توقفت قدماه عند نور قائلًا:

- أنتِ نور؟

نظرت نور بسرعة إلى الوراء لتسمع هذا الصوت الغريب الذي يناديها.

أومأت برأسها والدهشة ما زالت مرسومة على وجهها، وهي تقف أمام شقيق منى الذي أكمل قائلًا:

- كانت منى صادقة حين أخبرتني ذات يوم أنها حين تموت تريد أن تختبئ بين عينيكِ؛ لعلهما يحميانها من تراب القبر.

ازداد حزن نور فجأة، تمنت لو أن هذه اللحظات كانت كابوسًا سينتهي إلى غير عودة.

تنهد شقيق منى بحزن وكانت نور لا تفارق بعينيها عينيه، رفع ورقة وقدمها لنور قائلًا:

- تفضلي... هذه الورقة أوصتني منى أن أعطيكِ إياها بعد موتها.

خفق قلب نور، وخشيت قليلًا من أن تمد يدها؛ لتلتقط تلك الورقة، خاصة أن عيون القائد لم تفارقها أبدًا.

"عزيزتي نور، أحبكِ لأنكِ نسمة هواء ربيعية... وصيف هادئ، أنتِ خريف متفتح الأوراق، وبرد شتاء جميل، كم أحببتكِ، وكم تمنيت أن أخبركِ ماذا فعلت بي الدنيا ولكن!... حين تعشقين وحين تحبين يصبح للزمن لونٌ آخر، وتصير أيامنا بثوان ودقائق أكثر روعة وقسوة، وحين نلتقي بمن نحب نشعر أن عالمنا فقط هو تلك العينين اللتين هما لذاك الحبيب، أرأيتِ شجر اللوز آخر الشتاء؟ إنها قلب العاشق حين يرى حبيبه، أبيضه نبضات القلب

تزداد جمالًا وعشقًا حين تختبئ الألوان في جبين العاشق، أخضره لون الربيع الذي لا ينتهي إلا بالصيف الهادئ، ولونه البنفسجي هو وطني يضمنا في لحظة حب دون توقف، أنا يا نور عاشقة في هذا الكون الصغير، أحببته وكان عالمي، وبدأت من هنا الحكاية، ينبوعٌ بل شلالٌ من السعادة نقطفها حين نوقن أن من نحب هم أقدارنا التي لن تكون إلا لنا، هل ثمة ما يعكر هذه الشفافية؟ نعم... إنه ذاك الشيطان الآدمي الذي تملكني وأخذ عذريتي وهي أعز ما أملك، فلم يعد لديّ ما أقدمه لمن أحب دليلًا على صدق حبي وتوحدي له، وحين أصبحت عذريتي ملك لآخر ما عاد يلزمني أبدًا أن أعيش، و انتهت هنا الحكاية، فشكرًا لكِ، شكرًا على كل حب قدمته لي وكل حزن و ألم قدمته لك؛ فتحملتني به، ووداعًا"

كانت هذه الرسالة صاعقة ألم وعاصفة حزن لفّت نور؛ فالحزن تحول إلى دهشة وصدمة شعرت بها نور أن منى كانت كتلة من الأحزان لا تنتهي، لماذا انتهت هنا الحكاية؟ ولماذا أنتِ من أرخى ستائرها؟ هم وحدهم الجبناء يا صديقتي من يستحقون الموت دون رحمة، أما أنتِ فما كان لكِ إلا أن تنتظري شجر اللوز الذي تحبين ليزهر مجددًا؛ فيزيدك تألقًا ولهفة لذاك الشاب الذي تحبين، والذي لا يعلم ماذا أخفَت له السنون، كم مرة حكمتِ على نفسك بالموت يا صديقتي؟ ألف مرة! ألهذا رغبتِ في الموت مرة واحدة حتى تنهي كل أحزانك دفعة واحدة، قبضت نور على الرسالة وهي تذرف دموعًا لها معنى وطعمًا آخر مختلف.

كان باب الغرفة يطرق بهدوء بينما كانت الفتيات يتحضرن للطابور الصباحي، فتحت ربا الباب حيث يقف ليث وإلى جانبه فتاة جميلة.

- صباح الخير.

ابتسم ليث موجهًا نظراته للجميع... نور، لينا، وربا.

- صباح النور.

رددن جميعهن وجملة من المشاعر تملؤهن، لينا خجل وغيرة، نور خوف واستغراب، وربا مجاملة واحترام.

- أعتذر لإزعاجكن، في الحقيقة أنا هنا لسببين: أولهما: أحضرت لكنّ علا... مجندة جديدة، ستسكن معكن في نفس الغرفة، وهي شقيقة القائد.

أوجمت وجوه الفتيات دون إرادة منهن تعبيرًا عن عدم سرورهن بهذه المفاجأة، فهم ليث ما يدور في أذهانهن، ابتسم وعقّب قائلًا:

- يؤكد القائد أن وجود علا معكن لن يؤثر أبدًا؛ فهي مثلكن تمامًا؛ لها نفس الحقوق والواجبات، وليس لها أفضلية في أي حق.

دخلت علا وكان يبدو عليها أنها فتاة مرحة... بسيطة... جذابة... حيث لا تكاد الابتسامة تفارق محياها بعكس شقيقها، وهذا ما أكده الجميع، رحبت بها فتيات الغرفة فيما كان يخطو ليث خطوات قصيرة باتجاه نور هامسًا لها:

- أما الأمر الثاني فأريد أن أعلِمَكِ أن القائد من حقه أن يعرف ما جاء في رسالة منى؛ لأنها كانت مجندة عنده ومسؤولة منه.

أرادت نور للحظات أن تتجاهل كلام ليث؛ فقد طلبت منى منها أن تمزق الورقة ولا تُعلِم أحدًا بها، لكن إصرار ليث منعها من التهرب وهو يقول:

- هلا أعطيتني الورقة من فضلِك؟

- لا.

أجابت نور بإصرار، وكانت في حزن وألم أثار استغراب الجميع.

- نور، من فضلك... أنا أرغب بمساعدتك كصديق، في المرة السابقة كنت متأكدًا أنكِ لا تعرفين شيئًا عن وفاة منى؛ فتوسطتُ لكِ أمام القائد، أما الآن فالأمر مختلف، أرجوكِ لا تجبري القائد أن يتصرف معكِ بما لا تحبين.

تدحرجت بعضًا من الدموع على وجنتي نور وهي تدافع عن تلك الورقة الحزينة وما جاء فيها، إلا أن القوة لم تفارقها في الدفاع عن صديقتها قائلة:

- أنا لن أعطي هذه الورقة لأحد مهما حدث.

- هذا شأنكِ.

خرج ليث من الغرفة، وكان يعلم تمامًا ماذا ينتظر نور.

حاولَت نور أن تصرف عينيها تمامًا عن المكان الذي يتواجد فيه القائد؛ لأنها كانت تعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، فالاستراحة تضج بالجميع، الشتاء على أبواب الرحيل والجميع يعد العدة لاستقبال الربيع.... دخان وقهوة و ابتسامات تملأ المكان.... يتخللها ضحكات تقتل جمود الحياة العسكرية التي لا تناسب النساء.

وما أن اقترب مجد قليلًا حتى علمت نور أن ثمة ما يريده القائد منها، قدم لها أور اقًا وطلب منها أن تجيب على استجواب القائد لها حول وفاة منى وتلك الورقة، شعرَت نور أن المواجهة قادمة، ماذا تكتب؟ هو يعلم أنها كاذبة إن أنكرت، وهي لن تفضح صديقتها التي تحبها، شكرت نور مجد وتناولَت الأوراق، قلبتها وكانت تعلم أن القائد ير اقب كل حركة وكل انفعال منها.

"أنا لا علم لي بأسباب وفاة منى، وتلك الورقة هي رسالة خالصة منها إليّ" هذه الكلمات التي كتبتها نور وهي تتمنى أن تسعفها في ترك القائد لشأنها.

أعادت نور الأوراق لمجد الذي بدوره قدمها للقائد؛ فقلبها بين يديه وهي تشعر أنه كان يقلب دقات قلبها، كانت متوترة والجميع من حولها غير آبهين بما يحدث... يشربون الشاي والقهوة، بينما هي لا ترى إلا غضب القائد الذي لمحته نور بيده وهي تطلب منها الاقتراب إلى طاولته، استأذنت صديقاتها ومشت بخطى ثقيلة إليه... جلست، الخوف يملأها... الحزن يلفّها... الارتباك لا يفارقها..

- ما زلتِ تصرين على الانكار؟

قطع صوت القائد الصمت متوجهًا إلى نور التي لم تجب؛ لأن ردها كان إجابة واضحة.

أعاد المحاولة ثانية، وقال:

- حاولتُ معكِ بالطرق الهادئة تقديرًا لوضعك النفسي، ولكن دون فائدة.

مسحَت نور بأناملها جبينها المرتجف، وقالت بتوتر:

- سيدي، أرجوك أن..
- أنا أرجوكِ أن تقدّري موقفي يا نور.
- ولكني لا أستطيع أن أخون عهد صديقتي.
- و أنا لا أستطيع أن أخون مهنتي.
- وما العمل؟
- أعطيني الورقة.

خفضَت نور رأسها كأنها تحتمي بالطاولة لما سيحدث بعد أن فهم القائد من صمتها رفضها الشديد لتسليم الورقة.... دقائق مرت أعطى فيها القائد فرصة لنور في أن تفكر قبل أن يقف هامًا بترك الاستراحة وموجها كلامه لها بجدية واضحة وهو يقول:

- إذن انتظري عقوبتي.

السجن... هي كلمة... كلمة واحدة.... كم معنى تحمِل؟ كم وجهًا تعيش؟ تشرق الشمس صباحًا... تومئ برأسها... تركض... تنتصف السماء كعروس... وتميل إلى الغروب؛ لتنام بهدوء... هذا كل ما يعرفه السجين... برودة الجدران... قسوة السجان... زمان بلا عنوان... فكل أنواع الظلم هي سجن... الاغتصاب... القتل... كتم الحرية... كل هذا اسمه سجنًا، كيف يعيش السجين وهو يتذوق طعم مرارة الظلم؟ كيف؟!

كانت نور تسكن وحدها غرفة تتسع لعشرة سجناء، هي في السجن؛ لأنها تدافع عن كلمة عهد وشرف، ومن قال أن للسجن أذو اقًا مختلفة؟ فهو سجن في أفضل الأحوال، هذا أول يوم لها في هذا المكان الضيق رغم اتساعه، تقلب نظراتها بين أرض السجن وتلك النافذة الصغيرة التي تطل على شجر المعسكر وذاك الجسر العتيق، دموع غزيرة كانت تحبسها نور في عينيها... حزن وألم... ليس لأنها هنا، بل لأنها لم تفكر يومًا ولم تشعر كيف يعيش السجين، سجين فكره وطموحه ومن يريد الدفاع عن كرامته، هل سأصمد؟ ترى كم سجينًا في هذا العالم صمد ببطولة وشجاعة؟ هل سأصمد؟ كم يومٍ؟ كم دقيقة؟ كم ثانية؟ ولكن كيف يقاس زمن السجن؟ حتمًا ليس بثوانينا ودقائقنا ونحن أحرار، يا للحزن حين نشعر أن السجناء لا يملكون فصولًا خاصة بهم؛ فالسجان ألغى لهم كل الفصول، و أبقى لهم فصل الشتاء البارد؛ ليعيشوا فيه كما يشاء هو، فكل السجناء يسهرون مع أحبابهم في الشتاء، وكذا حال نور التي لم تَذكُر وسط هذه الجدران إلا خالها أيمن... ذاك الحبيب المغادر دومًا... منذ عام لم أره... لم أسمع صوته، تبًا للدموع التي تتساقط حين نذكر الأحبة، دموع حزينة... حارة... مليئة بالأسى... فكم نتوق أن لا نرحل

عنهم، وكم نتوق لأن نفكّك أرواحنا ونصلها مع أرواحهم؛ لنعيش معًا إلى الأبد، ما الفائدة؟ علينا أن نُلملِم شجاعتنا وتلك البقعة الصغيرة في أنفسنا والتي اسمها قوة، تنمو معنا وتعيش معنا، ولا نعرفها إلا في لحظة المواجهة مع الخوف اللامحدود.

مرّ يوم... يومان... ونور تعيش مع ذكرى الشمس تحاول أن تسألها عما فعلته للسجناء، ماذا فعلتِ أيتها الشمس للسجناء؟ أخبريني، هل نقلتِ لهم دموع أمهاتهم؟ هل قبضتِ يد السجان عن تعذيبهم؟ هل نفضتِ عن قلوبهم مرارة الحزن والألم؟ وأحبابهم... ماذا يفعلون بغيابهم؟ من هذا الذي يملك الحق في أن ينهي حياة شخص بقتله أو سجنه أو ظلمه؟ متى سنتحرر من هذه القسوة؟

بدأ الظلام يخنق نور والعزلة تقتلها، صوت باب السجن أيقظها من غفلتها، شعرت للحظة أنها تحلم، لكن صوت إغلاقه أوقفها؛ لتعلن أنها بشوق لترى أي إنسان وترتمي في أحضانه، حتى لو كان القائد نفسه، نظرت نور، كانت لينا بابتسامتها الحزينة وحزنها المبتسم... بشعرها الهادئ... إلى جانبها يقف ليث الذي كان يبدي بانفعاله تعاطفًا كبيرًا مع نور، ألقت نور بنفسها في أحضان لينا؛ ليضج المكان الهادئ بالبكاء الصامت، حب وكلام ومشاعر كثيرة تسارعت في تلك اللحظات، ونور تودّ أن تخبر لينا بكل أحزانها التي لمحتها دون كلام.

- نور.

نادى ليث نور وكان يشعر بأن بينهما زمن طويل ومسافة شاسعة.

نظرت نور إليه والدموع تتحدث بما فيها.

- لقد جئت بصفتي صديقك، ومن تلقاء نفسي، فهلا سمعتِني؟

- أجل.

مسحت نور دموعها وجلست بجدية موجهة رأسها لليث ويديها في أحضان يدي صديقتها.

- يا صديقتي، أنا أقدر تمامًا شجاعتك في الدفاع عن صديقتك، وأعلم أن الصداقة هي الملح الذي نفقده في الطعام اللذيذ، ولكن هذا لن يكفي أبدًا لأن يخرجك من السجن.

- هذا ظلم.

قطع صوت نور حديث ليث الذي تنهد بعمق في محاولة لكسر عناد نور.

- هذا قانون، وفي كل الأحوال ضعي نفسك مكان القائد، ستفعلين ما فعل، أنا لا أدافع عنه، بل أدافع عنكما.

لم تجب نور، فقد كان الشعور بخيانة صديقتها يحاصرها ويشل حركتها، فلا أحد يملك الحق في كشف هذا السر المقيت، حرّكت رأسها متوجهة به إلى لينا التي كانت توافق على ما يقوله ليث حتى انتهى ذلك اليوم كغيره، ونور لم تقتنع بعد.

مرّ أسبوع كامل.... فيه أيقنت نور أن السجن له جناحان: الصبر والشجاعة.... بهما يطير السجين إلى حريته وسعادته، وحتى إلى أحبابه، وفيه حفظَت نور أرض السجن.... أحجاره الصغيرة المتناثرة، ونافذته ذات الأبعاد القذرة، حتى أنها بدأت تلوم الشمس على تأخرها في اقتحام غرفتها؛ فهي وصلت الى حقيقة صغيرة لم تعرفها يومًا؛ أن السجين لا ينتظر أي شيء جميل إلا الحرية.

- مساء الخير.

إنه صوت القائد الذي تسلل على غفلة من نور عند المساء، فعدلت جلستها ولم تحرك شفتيها حتى بابتسامة مجاملة.

- لماذا على السجان ألا يزور سجينه إلا ليلًا؟ ليخيفه؟ أم ليزيد ألمه وحزنه؟

صمت القائد لبرهة و هو يستمع لكلام نور، فجلس مقابلًا لها وقال:

- أنا لست سجانك.

- فمن تكون إذًا؟

- سجانك هما عنادك وصلابة رأيك، أما أنا فمطالبٌ بحقي في معرفة الحقيقة.

- و أنا؟ أليس من حقي الدفاع عن حريتي؟ أم لأنك تمتلك السلطة عليّ وتريد أن تسحقني بها؟.

علت نبرة نور قليلًا، وبدا عليها انفعال ضغط السجن واضحًا، حاول القائد أن يستوعب غضبها ويهدئ من انفعالها المتسارع قائلًا:

- أنا اعترف بشجاعتك، و أقدّر موقفك تجاه صديقتك.

- لهذا تعاقبني بذنب ارتكبته منذ أول لقاء بيننا، ومازِلت، وربما أنك ستزيد من عقوبتي كلما أصررت على موقفي أكثر.

ضجت غرفة السجن بصوت ضحكات القائد وهو يستمع لكلام نور التي كان يملؤها الغضب، ثم قال:

- أنا نسيت تمامًا ما حدث بيننا في أول لقاء، صدقيني.

لونت الدموع عيني نور وقد شعرت باليأس يتملكها وبالشجاعة تخونها، تنهدت بحزن وهي تبكي قائلة:

- هذا ليس عدلًا، أنت تحكم عليّ بأن أقتلها مرة ثانية.
- نور، من فضلك... ضعي العاطفة جانبًا، فأنا مكلفٌ بإعداد تقرير حول هذا الموضوع بأسرع وقت.

انتهى الحديث بسرعة، وكانت نور تعيش في سجن داخل نفسها، لم تعُد تقوى على المقاومة، ولم يعُد لها مفرٌ من تسليم الرسالة، وإلا فإن السجن مكانها الدائم، بل إن تهديد القائد لها بزيادة العقوبة أضعفها، لكن الوصول بالأمور إلى نهايتها أوقف يد نور التي كانت تمتد إلى جيبها الذي يحتضن الرسالة بدفء كبير، فاستسلمت للصمت الذي فهم القائد منه أن محاولته باءت بالفشل؛ فخرج دون أن يقول شيئًا.

مرت ساعات الليل ثقيلة على نور وهي تشبك يديها وتفرشهما وسادة لرأسها المليء بالهموم والأحزان، لا تعرف ماذا تفعل، ترى لو كانت منى هي التي تقف موقفها ماذا كانت ستفعل؟ ذاك السؤال وشعور نور بالزهو؛ لأنها تدافع عن نصر صغير كان آخر ما علق في ذهنها ذاك المساء.

الأسبوع الثاني بدأ يطرق أبوابه على سجن نور وهي تقف أمام النافذة ترقب الجسر العتيق بحزن متمتمة له بهدوء:

- يا أيها الجسر العتيق، قلبي مثلك عتيق... باهت حزين... فقَدَ أحبابه وهو في سجن صغير، أنت قوي تحارب الزمان بوجودك الأزلي، وأنا جبانة لا تمتلك الشجاعة لتواجه بها المستحيل.

عاد القائد ثانية ليقف أمام نور التي كانت تحتضن الرسالة بوهن مقيت، لم

تجرؤ على الصمود طويلًا وهي تستعد لسماع عقوبة جديدة تنزل على رأسها، بل قدمت الرسالة إلى القائد ولم تجد إلا بعضًا من بقايا الشجاعة في قلبها لتقول له:

- أنا أكرهك؛ لأنك اقتحمت على صديقتي قبرها وقتلتها ثانية؛ لترضي فضولك، فهي لا تستحق منك كل هذا العذاب، ولا تستحق مني كل هذا الضعف، يجب أن تذكُر دائمًا أنني لن أسامحك أبدًا.

لم يستطع القائد أن يداري ابتسامته الساخرة وهو ينظر إلى نور التي هزها السجن القاسي؛ فمد يده ليأخذ الورقة وهو يقول:

- لن يتوقف العالم عن الدوران حين تكرهينني، لكنه يتوقف حين أشيح بوجهي عن حقيقة عليّ أن أعلمها ولو بالقوة.

طَرقُ الباب ليلًا أيقظ بعضًا من فتيات المعسكر، وفرحة اللقاء بنور وهي تقف على باب غرفتها أيقظ جميع الفتيات، احتضنَت لينا نور بقوة وقبّلتها بعشوائية وشوق؛ حيث بدأت ترتمي بأحضان صديقاتها والدموع الحزينة لا تكاد تفارقها، السعادة والفرح كانت تعم الجميع، بينما نور انهالَت على سريرها بالبكاء المتواصل، شعرت للحظات أن دموع السجن وقسوته كانت العزة تخالطها، بينما دموعها المتحررة الآن هي قاسية... باردة؛ لأنها خالطت طعم الخيانة، التفَتَت جميع الفتيات حول سريرها يساندنها ويخفّفنَ آلامها، كانت علا متوجسة من الحديث مع نور، خشيَت أن تصرخ في وجهها أو تقلّل من شأنها، وقفت بعيدة... متوترة... وحزينة، وفي هذه اللحظات دخلت اعتدال بصوتها العذب وضحكتها المميزة حملت نور من سريرها وأجلستها بحب.

ثم قالت:

- كيف حال وردة المعسكر؟ اشتَقنا إليك و إلى سهراتك و ضحكاتك وابتسامتك الجذابة، ولن... لن أغادر سريرك حتى أرى ابتسامتك الوضاءة.

تنهدت نور بحزن، توقفت عيناها عن ذرف الدموع، ونظرت إلى الجميع من حولها سعداء بعودتها، ثم قالت:

- أنا آسفة، لم أقصد أن أضيع فرحتكن بلقائي، ولكن..

حاولت نور أن تتماسك قليلًا دون جدوى، تقدمت علا بخطوة جريئة ومسحت على شعر نور، قبّلتها قائلة:

- نور، حبيبتي، أنا آسفة لما حصل لك.

تداركت نور أنها تسبب الحزن لعلا؛ فتنهدت بعمق... ابتسمت بهدوء واحتضنَت يد صديقتها مخففة من أحزانها، نظرت حولها مجددًا وكانت عدة حقائب تملأ المكان، قفزت اعتدال وهي تقول:

- هيا انهضي، لقد جهّزنا حقائبنا؛ لننطلق غدًا في رحلة للمزرعة مدتها يومين.

ضج المكان بالحركة، لينا وربا يرتّبْن حقيبة نور، علا وبعض الفتيات يجهّزن الطعام، وما زالت مشاعر السعادة بالذهاب إلى المزرعة يشوبها القلق في قلب نور من مواجهة القائد بعد أن يقرأ الرسالة.

ما أجمل رائحة الربيع، خاصة إذا خالطها وجود الأحبة، أرض خضراء وضحكات تنطلق من جميع الفتيات؛ فالمزرعة الآن عروس ليلة زفافها، جميلة... خيولها سعيدة، وأرضها عطشى لجمال فتياتها، صوت الأغاني والكلام العالي يملأ المكان، نور كانت تتمنى أن تنطلق الحافلة بسرعة؛ لتغادر أرض المعسكر، وفعلًا طارت الحافلة وسط الربيع الخلاب لتقضي الفتيات ربيعًا مميزًا يودعن فيه الحزن والأوامر العسكرية.

كانت هذه المرة العاشرة التي يقرأ فيها تلك الورقة، وفي كل مرة يطويها ويقلّبها ثم يتنهد بحزن، وما زال ليث يرقبة بحذر: أحمد.

أفاق أحمد من مخيلاته التي لا يعلم أحد أين وصلت، نظر إلى ليث بصمت وقال:

- نعم.
- هل ندمت أنك عرفت الحقيقة؟

لم يعرف القائد بماذا يجيب، كان يرغب بالصمت لسنوات، كرّر النظر إلى ليث وكأنه لا يراه، ثم قال:

- إذا رغبت في أن أكون صادقًا مع نفسي؛ فأنا نادم.
- إذًا فأنت قسوت كثيرًا على نور.
- كان عليّ أن أعرف الحقيقة، وفي كل الأحوال لقد انتهى هذا الأمر للأبد.

كانت نور رغم كل الصراخ من حولها والضحك المستمر غارقة في التفكير، شعرت لينا ان عليها انهاء حزن نور وتجربة السجن فقالت:

- نور، أما زلت حزينة؟

نظرت نور إلى الفتيات من حولها، وتمنّت لو أن كل هذه السعادة التي تملأ الحافلة تسكن قلبها، ابتسمت وقالت:

- لا ، إذ علينا أن نتقبل تغير حياتنا حتى ولو للأسوأ، وإلا فقدنا القدرة على العيش في خِضَمّ هذه الحياة القاسية.

- أرجوكِ نور، انسي أمر تلك الورقة والسجن و القائد والأحزان وكل شيء.

ابتسمت نور بهدوء وهي تومئ برأسها مو افقة وتقول:

- حسنًا يا صديقتي، سأنسى كل شيء، على الأقل في رحلتنا الممتعة هذه، فأنا أتوق الآن لأن أطلق لنفسي العنان وسط الشمس والهواء؛ فأنسى كل الآلام.

ماهر... شيرين... الجدة... وجملة من سكان المزرعة كانوا في استقبال الفتيات اللواتي وصَلْن قُبَيل العصر، لم تتفرغ أي منهن لنقل الحقائب أو إنزالها، بل أخذن جميعهن يركضن ليعانقن الربيع الخلاب والخيول الممشوقة وأهالي المزرعة الأحباب.

ماهر... سائس الخيول ومدربهن، شيرين... عاملة في المزرعة ترعى شؤون الجميع، الجدة... هي تلك الحبيبة التي لا يختلف اثنان على حبها؛ فهي زينة المزرعة والمعسكر معًا، وهي الوحيدة التي كانت تمتلك السيطرة على القائد.

انتهى اللقاء الأول بين الجميع، وجلست الفتيات بهدوء و صخب أحيانًا؛ لتناول الطعام في ساحة المزرعة وعلى بساط الأرض العشبي، تبادُلُ الضحكات والابتسامات كان يزيد في تطلع الجميع إلى أن تطول هذه اللحظات ويتوقف الزمن؛ لتتأخر عودتهن إلى المعسكر، لكن كثرة سؤال الجدة عن القائد كان سببًا في انسحاب نور من الجلسة إلى ساحة تدريب الخيول؛ حيث لامسَت لأول مرة أكثر الخيول جمالًا كما تقول، وقفت إلى جانبه وقبلته بحنان موجهة كلامها لماهر.

- هذا أجمل حصان في المزرعة.

نظر ماهر إلى نور، و ابتسم باهتمام قائلًا:

- أعتقد أن لكِ نظرة ثاقبة في الخيول، فعلًا؛ فلونه الأسود القاتم وعزته تجعله أجمل الخيول، عوضًا عن أنه حصان القائد.

ابتعدَت نور فجأة عن الحصان، وتأففت بصوت عالٍ؛ مما أثار فضول ماهر حيث دارى فضوله بابتسامة مصطنعة، والْتَفَتَ إلى نور بشغف وهي تعود إلى صديقاتها بعد سماعها ما قال.

انتهى اليوم الأول بمحاولة اعتدال ركوب الخيل دون فائدة، معلقة فشلها على حماقة الخيول، ولم يكن الكثير من الفتيات يتشجّعن على ركوب الخيل؛ لعدم تعودهن على ذلك، باستثناء علا التي كانت قد تعلمته من شقيقها.

كل الفتيات استيقَظْنَ مبكرًا، إما لتعودّهن على ذلك، أو لرغبتهن في الاستمتاع باليوم منذ صباحه، الجميع يشارك في إعداد الطعام، ابتسامة نور عادت وقد زيّنَت المزرعة، الطعام كان له رائحة مختلفة، عبقه أغرق الجميع في السعادة، حتى أن اعتدال كانت ما تزال تحاول ركوب الخيل دون فائدة، ليتَ لحظات السعادة تدوم طويلًا، ولكن لدوامها طعم الملل؛ فعلينا دائمًا أن نشعر بالحزن لنعرف طعم الفرح، ولا قيمة للأشياء دون ضدها.

اتفقَت جميع الفتيات على الخروج؛ للتسوق بعد الغداء، فكم وقتًا مضى دون أن يخرجن للتسوق، ولهذا كانت المزرعة أشبه بخلية نحل مفتوحة، والجدة التي لم تعتد إلا على الهدوء كانت بصوتها تُسكِت الجميع بين لحظة وأخرى.

السوق... كان له طعم جميل ممتع لم تكتشفه الفتيات قبل دخول المعسكر، أحذية وثياب وأدوات زينه اقتنتها الفتيات رغبة في زيادة جمالهن وسعادتهن؛ فنور ولينا سويًا سعدتا وضحكتا وتبادلتا شرب العصير وشراء الثياب الجميلة، فمنذ وقت طويل لم تطلق نور شعرها الجميل؛ ليداعب أنفاس الربيع في أريج الوطن.

حان وقت العودة، هذا ما أشار إليه السائق وهو ينتظر الفتيات في المكان المتفق عليه، ضجر الجميع إلا نور التي طلبت منه عشر دقائق إضافية؛ لتشعر فيها بالسعادة.

كان صوت رنين الهاتف مضطربًا... سعيدًا... مشتاقًا... فبعد أكثر من عام رغبَت نور في أن تسمع صوت من تحب.

- نعم؟ من على الهاتف؟

سمعت نور صوت خالها وبدأت الدموع تنذرف من عينيها، لكن السائق الذي كان يجلس في الحافلة ينتظرها كان يذكّرها بأن هناك عشر دقائق فقط لتتحدث فيها.

- أنا نور.

- نور!

نزلت الكلمة على أيمن أشبه بنور وضّاء ملأ قلبه سعادة وفرحًا.

- لقد ملأني الشوق لرؤيتك وسماع صوتك أيتها الحبيبة.

ضحكت نور وتمايلَت بخصلات شعرها سعادة وغرورًا؛ لسماع كلام خالها.

- هل ثمة من أحب أكثر منكَ يا خالي؟

- صوتك لا يعجبني.

- إنها قسوة المعسكر وألمه.

- ولكن..

- ولكن ياخالي أنا لا أمتلك الوقت الكثير، فقط أريد أن أطمئن عليك وعلى أمي وسأراك لاحقًا.

- نحن جميعًا بخير ومشتاقون لك؛ فلا تتأخري علينا يا حبيبتي.

شعرت نور وهي تغلق الهاتف أن قسوة المعسكر تلاحقها إلى هنا، وتحرمها من سماع صوت أعز أحبائها.

- ما هو برنامجنا التالي أيتها الجميلات؟

كان هذا صوت اعتدال الذي أخذ يذكّر الفتيات أنّ ساعات الليل فقط تفصِلُهنّ عن المعسكر.

تبادلت جميع الفتيات النظر باستغراب؛ فهل ثمّة برنامج بعد الساعة السابعة مساءً؟!

- يا أيتها الفتيات الغبيات، نحن هنا؛ لسنا في المعسكر لننام بعد الساعة السابعة، نحن هنا في المزرعة وعلينا أن نستغل كل لحظة فيها، فلعلنا لا نرجع إلى هنا إلا بعد أن نصبح في السبعينات من عمرنا.

انفجرت جميع الفتيات بالضحك؛ لتزهو المزرعة بأصواتهن العذبة السعيدة، حيث وقفت نور على الطاولة ثانية بعد انزال عتدال عنها وقالت:

- أنا من أنصار تغيير ثيابنا وشرب الشاي في ساحة المزرعة إلى وقت متأخر من الليل.

- أما أنا فمن أنصار النوم.

هذا ما قالته لينا وهي تتجه إلى غرفتها؛ فانقسمت الفتيات إلى قسمين، ولكن في النهاية ذهَبْن جميعهن إلى غرفهن إمّا لتبديل الثياب والسهر، أو للنوم.

- طبعًا.

قالت نور موجهة كلامها إلى لينا، نظرت لينا باستغراب إليها وقالت:

- ماذا تعنين بهذه الكلمة؟

- أعني أنكِ بشوق لِلِقاء الحبيب، فلا تستطيعين السهر حتى لا يمنعك من رؤيته غدًا.

شعرت لينا أن نور تقرأ ما في صدرها وقلبها، فابتسمت بعتاب وقالت:

- و أنت؟!

نظرت نور بجدية إلى لينا التي ضحكت قبل أن تكمل كلامها، خشيَت نور للحظة أن لينا تريد أن تقول ما يغضبها أو يدور في ذهنها.

- أنتِ أطار صوت الحبيب أيمن النوم من عينيك.

- يحق له ذلك.

تباهت نور بغرور وهي تتحدث عن خالها، صمتت لحظة... لاحظت أن أبواب الغرف كانت تُفتَح وتُغلَق بسرعة؛ حيث لم يخيّم الهدوء على المكان، جاء دور غرفتهن التي ما أن طرق بابها حتى أسرعت نور بقولها:

- تفضلي.

عرفت نور أن اعتدال من كانت تقف على الباب تهم بالدخول.

فتحت اعتدال الباب ووقفت وهي تنظر إلى نور فقط دون النظر إلى باقي الفتيات.

استغربت نور ونظرت إليها بقلق قائلة:

- ماذا هناك؟

- لا... لا شيء، إنما أريد أن أخبركن أن... أن..

نظرت جميع الفتيات إلى اعتدال يساورهن الخوف، وقلن بصوت واحد:

- أن ماذا؟

- أن القائد جاء ليصطحبنا غدًا إلى المعسكر.

خيم الصمت، شعرت لينا بالسعادة لقدوم ليث؛ فبدلت ثيابها بسرعة؛ لتغير رأيها بإبداء رغبتها في السهر، وتفاعل الجميع حيث بدأ جو المزرعة تدب فيه الحيوية من جديد، خاصة أن جميع الفتيات أبدين رغبتهن في شرب الشاي والسهر مع القائد؛ ليخرجْن معه من جو المعسكر القاسي، كانت عيون اعتدال لا تفارق وجه نور الذي تلوّن بألوان كثيرة، يتسارع مع صوت أنفاسها الغاضبة، هي لم تقل شيئًا، لكن اعتدال كانت تعلم أن نور تضايقت من قدوم القائد؛ فغيرت ثيابها ولبست ثياب النوم موجهة كلامها إلى اعتدال، حيث قالت:

- أنا... في الأصل كنت من أنصار النوم وليس السهر، تصبحين على خير.

خرجت اعتدال من الغرفة وكانت تعلم أن نور لن تُحسن النوم أبدًا؛ فأصوات الضحك والمرح والسهر الطويل كان عاليًا إلى درجة يبعث القلق في الأنفس.

بدأت خيوط الصباح تُلقي بظلالها على المكان، وبدأ النسيم العليل يضرب بعيون من في المزرعة، لم تشأ نور أن تخبر أحدًا أنها لم تنم بسبب صوت الضحك والاستمتاع ليلة أمس، ولم ترغب حتى أن تسأل عما حدث، كانت فقط ترغب في أن تجمع أغراضها وتكون آخر الجاهزين؛ حتى لا تقابل القائد، نزلَت من غرفتها واستعد الجميع للرحيل، حيث جلست الفتيات في الحافلة بعد وداع أهل المزرعة، وكالعادة جلست نور إلى جانب لينا، تبادلتا تحية الصباح في نظرة أخيرة للمزرعة على أمل العودة لها في أسرع وقت، كان الهدوء يخيم على الجميع رغم بعض أصوات الضجيج، وكذلك التعب والسهر الطويل تبدو آثاره واضحة على عيون الفتيات.

استنشقَت نور هواءً عليلًا، وشبّكت أناملها ببعض خصل من شعرها؛ لتستقبل هذا الصباح الجديد، فقد شعرت للحظات أن مجيئها للمزرعة قد غيّر كثيرًا من نفسيتها وحزنها، نظرَت إلى لينا مرارًا وهي تبتسم بصمت، كانت تود أن تستفزها بشيء من الحديث.

- لينا، صباح الخير.
- صباح النور يا عزيزتي.
- كيف كان أمسكم؟
- لطيفًا، لقد استمتعنا كثيرًا، وكنا نتمنى لو كنتِ معنا.
- صحيح! أنا في الحقيقة شعرت ببعض النعاس؛ لهذا غيرتُ رأيي فنمت.

لم تردّ لينا على عبارة نور الأخيرة في إشارة منها إلى أنها لا تصدقها، فهمت نور هذا الشيء؛ فعدلت جلستها في المقعد وأطلقَت لعينيها العنان في التمتع بربيع المزرعة الرائع، بقيَت للحظات تفكر فيما مرّ عليها من وقت جميل في المزرعة، هي متأكدة أنها ستفقده حين عودتها إلى المعسكر، ولكن... قطع تفكيرها صوت لينا وهي تهمس لها:

- نور، أعتقد أن هناك ما سيعكر صفوك بعد قليل.

نظرت نور باستغراب اختلط مع بعض القلق وأجابت:

- لماذا يا لينا؟

- لأن بعض الفتيات –وببراءة مطلقة- أخبرن القائد أنكِ عدَلتِ عن رأيك في السهر عندما علمتِ بقدومه.

أظهرت نور تأففها وغضبها فيما سمعت؛ فضربت على جبينها بطرف يدها وقالت:

- يا للغباء! مَنْ هذه الحمقاء التي قالت، وهل ينقصني أنا الآن سخط القائد؟

- نور، قلت لكِ أن هذا كان ببراءة ومزاح فقط.

- صباح الخير.

كان لهذه الكلمة طعمًا آخر حين يقولها القائد؛ لأنها تحمل معنى الرغبة في الصمت، آثرت نور أن تصمت وتبقِي عينيها في إطار أشجار الزيتون و الصنوبر؛ لتستمع إلى قوله:

- أنا سعيد برؤيتكن جميعًا، وسعيد أنكُن استمتعتن بهذه الرحلة الجميلة، أرجو أن تصلْنَ بالسلامة.

بدأ القائد يحصي أسماء الفتيات، الجميع أشار إلى وجوده إلا نور التي شعرت للحظة أنها تود أن تثير القائد وتنتقم لما حصل لها ولو بموقف بسيط، ثم أن مبررها كان في رؤية القائد لها، فلم يكن هناك من داعي لأن تشعره بوجودها بكلمة "نعم".

بدأت الحافلة بالتحرك بعد أوامر القائد لها، الهدوء يخيم على الجميع، اقترب القائد من مقعد لينا ونور، شعرت نور بمزيج من الجرأة والاضطراب، كتمَت أنفاسها وأصرّت على النظر من النافذة، كانت لينا تفصِل بين نور والقائد بينما يقف مجد خلفه مباشرة، وهذا ما كان بالتأكيد يعطي للموقف جدية وطمأنينة لنور.

- أعتقد يا آنسة نور أنّ خلافاتنا الشخصية يجب أن تبقى جانبًا في أثناء تعاملنا الرسمي.

لم تجب نور على كلام القائد واكتفت بالصمت؛ مما اثاره فأصر على تغير لهجته إلى التحدي قائلًا:

- أليس كذلك يانور؟

بدأ التوتر والاضطراب يسري على الجميع؛ فالجوّ مشحون بالغضب والتحدي، فيما كانت لينا تحثّ نور بالإجابة على القائد بهمس بسيط، لم يكن أحد يعلم ماذا كان سيحصل لو أن نور لم تلملم شجاعتها وتجيب بصوت واضح.

- لم أعد أعرف شيئًا.

كانت نور كلما تذكُر -أنها هي والقائد وحدهما اللذان يعرفان ما جاء في رسالة منى- تتأثر وتحزن، وتشعر برغبة في أن تصرخ بوجهه بعد أن كشف سر صديقتها المخجل.

اقترب ليث بخطوة واحدة في محاولة لتهدئة الوضع بينهما، فيما اصر أحمد على إخماد بركان الغضب الذي يشعر به يتأجج في نفس نور؛ فهدّأ من غضبه وقال:

- أعتقد أن ما حدث لا يستدعي منكِ كل هذا الغضب، ولا يستدعي حضوري أن تعدِلي وحدكِ عن فكرتك في السهر إلى النوم.

كلّ من في الحافلة كان يستمع لكلام القائد باهتمام ويخمن بما ستجيب نور بعد أن توقفت الحافلة للحظات، لم تُجب نور؛ كانت تحاول أن تهدئ من انفعالها قليلًا حتى لا تغرق في البكاء، بدأ موقفها يضعف... لم تكن تنظر للقائد... بل كانت تنظر فقط للمقعد الذي أمامها مباشرة، مرت دقائق طويلة، ثم قالت:

- أولًا: أنا وحدي الذي أقرر حجم غضبي على ما حدث، فأنا أدرك ما يعني أن أخون صديقتي الميتة، ثانيًا: أنا حرة في تغيير رأيي بالسهر أو النوم، وهذا لا يتوقف على أحد، أما ثالثًا: فأنا موجودة و أنت تراني؛ فلا داعي لإعلامك بوجودي.

كان رد القائد جاهزًا على كلمات نور القاسية، والتي استغلت فيها خروجهم عن الحياة العسكرية قليلًا، ابتسم القائد وقال:

- أنا لا أحتاج إلى هذه القائمة من القرارات لإعلامك أنني أصلًا لا أراكِ في الحافلة.

كان القائد أكثر قسوة، و أثار في نفس نور رغبة في البكاء، إلا أن ليث قطع كل المشاعر المتأججة قائلًا:

- إن لم تكفّا عن الشجار لن أكلم أحدًا منكما.

صمت الجميع وعاد كلٌّ إلى مكانه، شعرت نور أن غضبها ازداد قليلًا، لكن كلمات ليث أنقذتها من موقف سيء؛ فأشاحت وجهها ثانية لرؤية ربيع القرية، وهي لا تعلم أبدًا ماذا يخفي لها المعسكر بعد عودتها.

أخيرًا وصلت الحافلة، نزلت الفتيات بجدية وكل منهن عادت بحقائبها إلى غرفتها إلا نور التي أوقفتها مشرفة السكن لتعطيها ورقة رسمية من القيادة العامة، ساور الخوف والقلق نور وشعرت أن الطريق لغرفتها طويل جدًا، وما أن وصلت حتى ألقَت بكل ما في أيديها وفتحت الكتاب، كان الجميع ينظر إليها، تغيّرت ملامح نور إلى الأسوأ وسكن فيها مزيد من الغضب ومشاعر من القهر، ماذا في الكتاب؟! ألقته نور بغضب على الطاولة والضيق يخنقها، وفي لحظة تبادلت كل الفتيات الكتاب والاستياء منه، هو أمر عسكري بضرورة الالتحاق بمعسكر الصيانة لمدة ثلاثة أشهر... وقت طويل جدًا وممل، حتى وإن كان الراتب أعلى والامتيازات أفضل، ولكنها لا تعرف أحدًا هناك، ولن يحق لها رؤية أحد من صديقاتها أو العودة ثانية إلى المعسكر إلا بعد انتهاء المدة، هذا ما كان يدور في خلد الجميع وهم يقرأون الكتاب، بدأت نور في تجميع أغراضها بغضب وصمت، والجميع حولها إما يساعدها أو يكتم دموعه، كان الموقف أكبر من أي كلام؛ فغدًا أول يوم لها في عملها الجديد... لا تعرف ماذا تكتب لها الأقدار هناك، وهذا كان سببًا كافيًا لأن تتحول الومضات في عيني نور من الحزن إلى البكاء، كانت تبكي بصمت، أرادت لينا لو للحظة أن تخرج نور كلّ ما فيها من ضيق وغضب؛ فاقتربت منها قليلًا وقالت بصوت حزين:

- كان يومًا سيئًا يا صديقتي.

لم تعرف لينا أثر كلمتها على نور التي ضجت بالبكاء بعد أن تركت كل ما في يديها وهي تصرخ:

- منذ جئت إلى المعسكر و أيامي كلها سيئة، لماذا كان عليّ أنا وحدي أن أكون مع منى ليلة وفاتها، ولماذا لم تترك رسالتها إلا لي؟ ولمَ أنا تصدرتُ لأكلم القائد فأتهمه بأنه عامل نظافة، و أنا بالذات التي وقع عليها الاختيار للمغادرة إلى معسكر الصيانة، و أنا... و أنا... و أنا..

شعرت الفتيات أن نور توشك على الانهيار؛ فقسوة القائد عليها اليوم وما جاءها من أوامر أزعجتها وسببت لها الضيق، تقدمت اعتدال نحوها بحنوٍ وعطف، مسكت يدها واحتضنتها قائلة:

- نور عزيزتي، هلّا تركتِ كل شيء بين يديك وقبلتِ دعوتي لكِ بشرب الشاي.

لم تقُل نور شيئًا، بل وقفت ومسحت دموعها التي ملأت وجهها، ثم خطت مع اعتدال إلى غرفة الجلوس، كل شيء تغيّر في لحظات، الْتفَتَ جميع الفتيات حول نور، كؤوس الشاي كانت تملأ أيادي الفتيات، بدأت ملامح نور تعود إلى هدوئها والحزن يفارق محياها، وقفت اعتدال تتوسط جلسة الفتيات قائلة:

- مَن تخبرني منكن عن الميزة التي ستمتاز بها نور في ذهابها إلى معسكر الصيانة؟

كان السؤال غريبًا، قصدَت منه اعتدال إضحاك نور، بدأت علامات الاستغراب تظهر على وجوه الفتيات.... الجميع يفكر في الجواب... صمتٌ ساد للحظات، لترفع لينا يدها للإجابة:

- الطعام اللذيذ، فقد سمعت كثيرًا عن شهرتهم بلذة الطعام.

حركت اعتدال رأسها رافضة إجابة لينا مما أثار الفضول لمعرفة الإجابة، ابتسمت رُبَا في إشارة لمعرفتها الجواب قائلة:

- أنها سترى خالها بعد عودتها وذلك لأن قانون معسكرهم يسمح لهم بأجازة لمدة شهر كامل في الوقت الذي يحدده المجند.

نظر الجميع إلى اعتدال التي قالت بمرح:

- لا... لا... أبدًا.

ابتسمت نور وهي ترى محاولات صديقاتها لإسعادها، فوقفت اعتدال لتقول لها الإجابة:

- الميزة الجيدة الوحيدة أنكِ لن ترِي القائد ثلاثة أشهر متتالية.

ضجّت الغرفة بالضحك فيما كانت عُلا تبتسم بخجل، وكانت نور تشارك الجميع بسعادتهن حتى آخر لحظة.

بزغ الفجر أخيرًا، لا تذكر نور كم دقيقة نامت وهي تصارع القلق؛ فالحزن يفطر قلبها ورحيلها عن صديقاتها يؤلمها؛ لهذا آثرت أن ترحل دون أن تودع أحدًا، أربع ساعات كاملة كانت تفصل المعسكرين عن بعضهما، و ألف سؤال لا يجد الإجابة في ذهن نور، وهذا ما سبَّب لها الصداع؛ فاستسلمت للنوم العميق ما أن دخلت القطار ورحلت عن معسكرها دون النظر إليه.

قسم أو معسكر الصيانة... تمامًا كالمعسكر بسكنه ونظافته وطبيعة عمله، إلا في قائده؛ فهو رجل متقدم في السن... ضخم... له بطن منتفخ... ابتسامته بريئة رغم قدمها، اللون الابيض يغزو شعره المتناثر بفوضوية واضحة... متعاون... بسيط، أبدَى مرحه برؤية نور ورحّب بها مما خفّف عنها مشاعر الحزن

والقلق، شرح لها طبيعة عملها وتمنى لها وقتًا سعيدًا وفائدة مرجوة، غادرت نور مكتب القائد وهي تشعر بالوهن يدبّ في أطر افها؛ فقد كانت رحلة قاسية، يا لهذه الأشهر الثلاث... كيف سأقضيها؟ لماذا عليّ أن أعيش في حزن كل ربيع رغم أني أنتظره دائمًا بحب؟

فقد شعرَت نور وهي في طريقها إلى السكن لتحط رحالها أن يومها كان طويلًا... مزعجًا... مقرفًا... لا تعرف فيه إذا كانت كل أيامها كهذا اليوم.

كان الانزعاج يبدو واضحًا على أحمد، وهذا ما لمحه ليث وهو ينظر إليه موجهًا سؤاله:

- أحمد، هل يزعجك شيء ما؟

كان أحمد ينظر إلى طعام الإفطار بملل، فيما كان يشرب الشاي ويعيده ثانية إلى الطاولة قائلًا:

- كان على القيادة أن تخبرني بما ستفعل مع نور.

- وماذا كنت ستفعل؟ ستمنعها مثلًا.

- لا، ربما كنت سأقترح عليهم فتاة أخرى.

- فتاة أخرى!

أثارت كلمة أحمد استغراب ليث، وهذا ما فهمه أحمد؛ فاستدرك قائلًا:

- أعني... أن نور من أكفأِ فتيات المعسكر، فمن الصعب أن نستغنيَ عنها، ولكن في كل الأحوال ربما كان هذا أفضل حتى تخفف من غضبها.

نظر ليث نظرات خفية إلى أحمد، ابتسم ثم قال:

- أهذا ما يزعجكَ يا صديقي؟
- لا أبدًا، ما يزعجني هو أمر آخر، سأخبرك عنه فيما بعد.
- أما أنا فلديّ خبران، أحدهما رائع والآخر أقل روعة.

ضحك أحمد من تعبير ليث، أعاد كوب الشاي للمرة الأخيرة وقال:

- صحيح؟ أتحفني بهما إذن.
- الأول وهو الأروع أنني ولينا سنُخطَب قريبًا.
- ممتاز، هذا أسعد خبر سمعته منذ وقت طويل، والثاني؟
- أن لينا تُصرّ على تأجيل حفلة الخطوبة لحين عودة نور.
- هذا حقها يا صديقي، فنور على ما أظن أنها صديقتها المميزة.
- وهي صديقتي أيضًا؛ لهذا وافقت على طلب لينا.
- جيد.

نظر أحمد إلى ليث وهما يداريان كلامًا كثيرًا مخفيًّا وراء القلوب لا يستطيعان البوح به.

كل يوم يمضي كانت نور تدفنه وراء خط أحمر كبير في أجندتها الصغيرة، فقد شعرَت أن وجودها في المعسكر جعلها كآلة لا تحمل فيها مشاعر الفرح والسعادة، حقًا أنها تتعلم أشياء جديدة، ولكن هذا لا يكفي لأن يعيش الإنسان، فلا فائدة من العلم دون روح؛ ففتيات معسكر الصيانة جديّات لا يحملن أشياء جديدة، وكان هذا ما يزعج نور ويشعرها بالوحدة، كل يوم يعُدْن من أعمالهن بعد تناول الغداء يجلسن أمام التلفاز قليلًا ثم ينام الجميع،

لتستغل نور وقت فراغها بكتابة رسالة وهمية إلى خالها أو أحد أحبابها؛ فتخبره بما كان عليه يومها، فإن فرغت نور من رسالتها استسلَمَت لذكرياتها... فكم كانت تحب أيامها تلك، كانت تضحك حين تذكر كم كانت غاضبة في آخر يوم وصفَت أيامها بالمعسكر أنها سيئة كلها، وكانت تبكي حين تذكر كيف أضاعت كل لحظة سعادة كان يمكن أن تستغلها، أسبوع واحد مَرَّ... يالهذا الزمان الذي يعود إلى الوراء حين نرغب بتقدمه، يا لغبائنا حين لا نعلم كم نحن سعداء ونحن لا ندري، فقط أسبوع واحد مر، هذا ما كانت تفكر فيه نور كل يوم قبل الخلود إلى النوم.

القمر هذه الليلة كان جميلًا ساطعًا، كل من في المعسكر عرف ذلك، حتى نور التي خلدت إلى النوم؛ فودّعته بقبلة صغيرة، فقد كان وحده ينير كل أقسام المعسكر، حيث لم يسمح ضوؤه البهيج لأحد بالنوم؛ مما أجبر الشباب على السهر حتى الفجر، خرج فيها السهر عن الأوامر العسكرية والأجواء القاسية، فكان الابتهاج والقهوة سيدَا المكان والزمان، لقد افتقد الجميع للضحك الذي يُنسي هموم الزمان الكثيرة، مجد... ليث... ماهر الذي قدم إلى المعسكر ليومين فقط، مصطفى الصديق القديم للجميع وأحمد، كلهم كان يجمعهم السهر ومسامرة ضوء القمر اللطيف.

كل الأنظار كانت تتجه إلى مصطفى الذي كان يحمل جوًا جميلًا ومتجددًا، وأحاديثه الغريبة لا تنتهي أبدًا، ينتقل من خبر لآخر ومن حديث لحديث دون ملل أو كلل، كان أحمد يسعد بصحبة هذا الصديق الممتع -كما يقول دائمًا- والذي يجب أن يستفزه باستمرار.

- قل لي يا صديقي مصطفى، ما آخر ما تحمِل من أخبار؟

وجّه أحمد سؤاله إلى مصطفى وسط صخب و ابتسامات؛ ليتحول الجميع إلى الهدوء.

نظر مصطفى إلى ضوء القمر مرارًا كأنه يفكر في أمر ما، وقال:

- يقولون يا سادة أن العاشق وحده من لا يستطيع أن يعيش مع غير حبيبه.

صمت الجيمع، كرروا النظر إلى مصطفى وإلى بعضهم، كل منهم كان يفكر في العبارة، حتى أحمد الذي فكر طويلًا ابتسم ثم قال:

- نحن لسنا بعاشقِين حتى نؤكد على ما تقول.

وقف ليث معلنًا رفضه لما قاله أحمد، وقال:

- أما أنا فعاشق، وأعلن عشقي بصراحة.

احتدم النقاش؛ مما اضطر مصطفى إلى التدخل قائلًا:

- بل نحن كلنا عاشقون ياسيدي، فها هي شجرة اللوز لا يظهر جمالها إلا في آخر الشتاء القاسي وهي عاشقة، تداري عشقها في قسوة الشتاء، تمامًا مثلنا؛ فنحن نداري عشقنا خلف ذو اتنا، وخلف ضوء هذا القمر الجميل.

شجرة اللوز!.... استوقفت هذه الكلمة أحمد، تذكر فيها منى ونور، تلك الفتاة التي غابت طويلًا، فلم يعد يعلم أحد عنها شيئًا، طرد أحمد من ذهنه كل الأفكار ووجّه كلامه إلى ماهر؛ رغبة في تغيير موضوع العشق قائلًا:

- قل لي يا ماهر، اذا غضبَت خيولك كيف ترضيها؟

جميع الشبان وجّهوا أنظارهم إلى ماهر؛ لسماع الجواب، إلا مصطفى الذي ألقى بسهام عينيه إلى أحمد مخفيًا وراءه كلامًا كثيرًا.

عدل ماهر جلسته، وتناول فنجانًا من القهوة كان أمامه، ثم قال:

- لا أفكر كثيرًا في إرضائها.

- فإن رغبتَ في إرضائها...؟

- أُطعمها قليلًا من السكر.

- فكرة جيدة.

أعجبَت فكرة السكر أحمد الذي لفت اهتمامه نظرات مصطفى الغريبة، ابتسم؛ ليداري فكرة في ذهنه، ثم قال:

- هل من شيء يا مصطفى؟

- لا، أبدًا يا سيدي.

- لمَ تنظر إليّ هذه النظرات الغريبة؟

- أخشى إنْ صارحتك أن تغضب مني.

- لا لن أغضب، ولكن قُل.

جمع مصطفى شجاعته وبعضًا من جرأته في ابتسامة خفية قائلًا:

- سؤالك...، كنت في الظاهر تود منه أن تغيّر الحديث عن العشق، وفي باطنه يظهر أنه سؤال رجل عاشق حتى الثمالة.

نزلت كلمات مصطفى على القائد والشباب كالصاعقة، فلم يستطع أحمد أن يقول شيئًا أمام اتهامات صديقة له بالعشق، إلا أن يداري رفضه لما قاله مصطفى بهز رأسه مرارًا، في حين كان يودع الجميع ضوء القمر الشارد.

كانت قطرات الماء الساخن حين تنزل على جسد نور تشعرها بنبض الحياة وروحها، خاصة حين تزرع نفسها في الفراش بعده، فما كانت فتيات معسكرها يرين ابتسامتها إلا في تلك اللحظات، كان كل شيء يبدو هادئًا في ليلة جميلة أنهَت فيها نور كل أعمالها متوجهة إلى فراشها استعدادًا ليوم جديد، وفجأه امتدت إليها يد زميلتها مروة التي تشاركها غرفتها الجميلة، نظرت نور بشيء من المجاملة لصديقتها التي أشارت إليها بمشاركتها في شرب الشاي، اقتربت نور وجلست بين زميلاتها اللواتي أحسَسْن نور بمزيد من الاهتمام، قطع الهدوء صوت مروة متجهًا إلى نور:

- هل أستطيع أن أسألكِ سؤالًا يا نور؟

- تفضلي.

أجابت نور بأدب جم وهدوء بالغ:

- لماذا لا تستطيعين أن تتكيّفي معنا رغم مرور شهر كامل على وجودكِ في المعسكر؟

أثار سؤال مروة استغراب نور التي لم تفكر في الإجابة، ترددَت قليلًا... تناولت كأس الشاي المقابل لها ومازالت آثار الاستغراب تلازمها، جمعت أفكارها للحظات ثم قالت:

- لا أعرف، ربما لأن ثمة اختلاف كبير بين المعسكرين، كلاهما رائعان وأحبهما، ولكن هناك صديقاتي اللواتي اعتدتُ عليهن وأحببتهن، ربما في النهاية هي مسألة اعتياد فقط.

ابتسمت مروة، تلك الفتاة الهادئه على الدوام والتي كان يعود إليها الجميع لحل مشاكلهم الشخصية، وكان لها مكان في قلب نور كغيرها، استأذنت في الحديث قائلة:

- عزيزتي نور، حياتنا قصيرة لا تحتمل أن نقسمها لنصفين؛ الأول فيها نقضيه بانتظار لحظات السعادة ولقاء من نحب، ونصفها الآخر في الحزن على تلك اللحظات، فليس من الضروري ألا نسعد إلا بلحظات اللقاء مع من نحب، لماذا لا نسعد بانتظار لقائهم؟ ابحثي يا عزيزتي عن السعادة؛ لتجديها في معسكرنا... اصنعيها... كفّي عن طوي الأيام، فالمرء قادر على أن يغير حياته كما يشاء، ما زال أمامك شهران كاملان معنا، نحن نحبك ونتمنى أن تكوني سعيدة بوجودك معنا، لكن طبيعه أعمالنا القاسية انعكست علينا؛ فحولتنا إلى آلات جادة تنعدم فيها الروح.

أشعرت كلمات مروة نور بالندم والصدمة، كلامها كان صحيحًا، تقبلته نور بكل حرف فيه، فقررت أن تلغي أجندتها ورسائلها الوهمية، وتعيش حياة جديدة تتوق فيها للقاء أحبابها، ولا تنسى فيها أنها ستتعلم أشياء جديدة لم تكن تعلمها لو لم تبتعد فيها عن المعسكر، ومنذ تلك اللحظة ونور ترى الأشياء أكثر جمالًا، حتى بركة الماء التي تزين وسط المعسكر كأنها تراها لأول مرة، لم يكن أحد يرى نور إلا مبتسمة ضاحكة غير آبهة بعدد الأيام التي تغادرها؛ فقد صنعت السعادة من الأشياء الصغيرة، ورأت أن تلك الأزهار التي تزين شرفة غرفتها هي عالمها الجديد، بل هي أجمل ما في هذا العالم.

مرت الأيام، كانت هادئة، لم تكن تعلم نور أي خبر عن أصدقائها، وكذلك العكس، كان يواسيها انتظار لُقيا صديقاتها؛ فقد أخبرتها مروة مرات عديدة أن انتظار السعادة أجمل من حدوثها، بل إن عدم انتظارها أكثر جمالًا؛ لأنها تفاجئنا ونحن ربما في استعداد؛ لترقب الأسوأ.

كل من في المعسكر كان يبحث عن نور ذاك اليوم، لا يعرف أحد السبب، الجميع يناديها للقاء القائد؛ فأُرغمت على قطع عملها والاستئذان في الدخول للقائد وأسئلة حائرة تملأ وجهها، استقبلها القائد كعادته بابتسامة جميلة ورقيقة أشعرتها بالطمأنينة:

- صباح الخير.

كانت أنفاس نور متقطعة، تظهر شيئًا من الخوف والاستغراب:

- صباح النور يا آنستي، تفضلي.

جلست نور وشعرت أن ملامح فرح تسكن عيون القائد، انتظرته أن يتكلم، كانت هناك ورقة بين يديه... وضعها جانبًا، نظر إلى نور وقال:

- لقد أثبتِّ كفاءتك المتناهية في عملك، وحققتِ أهداف وجودك في معسكر الصيانة، أليس كذلك يا ابنتي؟
- بلى سيدي، استفدتُ كثيرًا من وجودي، وتعلمتُ أشياء كثيرة.
- ولهذا السبب قررت القيادة أن تعفيك من بقائك معنا للشهر الثالث على التوالي عندنا في المعسكر.
- ماذا؟!

وقع الخبر كجبل ثلج في صيف حار على مسامع نور؛ فظهرت السعادة بسرعة على وجهها و انتقلت إلى عينيها لتسكن أجزاء جسدها، لم تستطع نور أن تكتم السرور بهذا الخبر؛ مما أضحك القائد بصوت مرتفع قائلًا:

- على رسلِكِ يا نور، هل تكرهيننا إلى هذه الدرجة؟
- أبدًا... أبدًا سيدي، لكنني اشتقتُ إلى صديقاتي.

في كل الأحوال لقد حصلتِ على امتيازات وجودك في المعسكر، تستطيعين أن تأخذي شهر أجازة كامل في أي وقت تشائين.

ازدادت سعادة نور؛ فقد بقي أسبوع واحد لتعود إلى المعسكر، استأذنت وحملت أور اقها لتهم بالخروج، لولا إشارة القائد لها بالبقاء للحظات، حيث قال:

- أود أن أسألكِ سؤالًا يا ابنتي.
- تفضل سيدي.
- أليس أحمد هو قائد معسكركم؟
- أجل سيدي، لماذا؟
- لاشيء، فقد رأيته قبل أيام في اجتماع خاص، و أثار استغرابي أنه لم يسأل عنكِ، رغم أننا جميعنا انتهزنا الفرصة لنسأل عن مجندينا.

شعرت نور بأن الغضب والألم حلّا محل السعادة التي كانت تغمرها، لماذا لم يسأل القائد عنها؟ لماذا لم يطمئن على أخبارها؟ ولماذا يسأل؟ تُرى لو كانت فتاة أخرى غيرها أكان يمكن أن يهتم بأمرها أكثر؟ لا اظن ذلك، فما حدث بيننا آخر مرة كان قاسيًا ولا يحتمل؛ فهو قد خُلق ليكون همًا ثقيلًا على كاهل كل من يعمل معه أو حتى يعرفه.

مر الاسبوع بطيئًا، كانت نور تنهي فيه كل أعمالها وتودع صديقاتها الجديدات بحرارة بالغة، للحظة خشيت من العودة للمعسكر وتمنّت لو تبقى هنا، إلا أن الأسبوع انتهى، تمامًا مثل أيامنا التي مهما طالت تنتهي ومعها لحظات السعادة والغضب والحزن وكل شيء.

ودعت نور صديقاتها، وكانت ترغب في ألا يعرف أحد بعودتها، استقلّت القطار ثانية في رحلة لمدة أربع ساعات، كانت سعيدة غاضبة، أما باقي الركاب فتختلف مشاعرهم؛ شوق... فرح... لا مبالاة... نعاس... جدية، كأن القطار هو نموذج صغير للحياةن فقد قضت فيه نور وقتها وهي تودع ربيعًا لتستقبل آخر في معسكرها، ما الذي كانت تفكر فيه؟ ذكرياتها... صديقاتها... حيث انتهى الأمر بها إلى أن ترخي جسدها وتنام بدلال.

هدوء كبير يسيطر على المعسكر، الجميع في عمله، رغبت نور أن تنثر سعادتها على كل ذرة في المعسكر، وقفت للحظات تستقبل أشجار الصنوبر، والجسر العتيق، سكنها، وغرف صديقاتها، ملأت عينيها بالنظر إلى كل المعسكر لحظة واحدة، فما أجمل لحظة اللقاء بمن نحب!

قضت نور فترة لا تعرف كم طول مدتها وهي تنعم باستقبال ذكرياتها مجددًا، شهران كاملان مرّا دون أن تعرف أو تسمع خبرًا عن أي من أصدقائها، والآن ها هي وجهًا لوجه مع الأحداث، لا تعرف ماذا حدث؟ من جاء؟ من غادر؟ كل من رأتهم نور قبل الوصول إلى مكتب القائد ابتسم لها بسعادة وحيوية ورحبوا بعودتها ثانية.

اقتربت نور... ملامح الغضب لم تفارقها، حتى أن الخوف والرهبة غادرا قلبها وهي تقف مباشرة أمام مكتب القائد... طرقت الباب... سمعت صوتًا هادئًا:

- تفضل.

تنهدت نور وفي نفسها أسئلة وغضب وحزن، فتحت الباب وتقدمت بخطوات جريئة؛ لترى القائد منهمكًا بترتيب أوراق بين يديه:

- صباح الخير.

لم تبتسم نور، كان نظرها موجهًا إلى النافذة التي توجد خلف القائد مباشرة، نظر القائد بسرعة إليها متفاجئًا والدهشة تسيطر عليه قائلًا:

- نور!

لم تقل شيئًا، ساد الصمت للحظات، كانت لحظات قاسية... أليمة... حزينة، وهي مُجبرة على الوقوف أمام القائد، الذي أمطرها بأسئلته قائلًا:

- متى عدتِ؟! كيف رجعتِ؟!

قطعت أسئلة القائد الصمت بينهما، إلا أنها لم تفلح في تخفيف حدة الغضب المسيطر عليها وهي ترد قائلة:

- هل ما زال أحد يذكرني في المعسكر؟

تفاجأ القائد بنبرة نور؛ ظن لبرهة أنها ما زالت غاضبة مما حدث بينهما في أخر لقاء، فقال بتوتر واضح:

- ماذا تقصدين يا نور؟

لم تقل نور شيئًا، بل آثرت الصمت لتستفز القائد الذي وقف باهتمام أمامها مباشرة مكررًا سؤاله؛ مما أثار لا مبالاة نور لترد عليه بقولها:

- لا أقصد شيئًا، جئت لآخذ مباشرة عملي وأغادر.

لم يرغب القائد في معرفة التفاصيل، كان اهتمامه منصبًّا على معرفة سبب غضب نور وحدّتها في الحديث، فقد فشلت الخطوات البسيطة التي تفصله عنها في تغيير رأيها؛ فبالغ قليلًا في تهدئة نفسه وقال:

- لماذا أنتِ غاضبة؟

- غاضبة! ولماذا أغضب؟

أثارت لهجة نور غضب القائد الذي تمالك نفسه قليلًا؛ فنور ما زالت ضيفة، أعاد محاولته ثانية لكشف الأسباب وراء هذا الغضب العارم قائلًا:

- هلّا خفّفتِ قليلًا من لهجة الاستفزاز في حديثك.

- جيد أن أحدًا قد اكتشف أنني غاضبة ومستفزة.

- أنا لست أحدًا، أنا قائد المعسكر إذا نسيتِ.

كان واضحًا أن صبر القائد بدأ ينفد، لكن هذا لم يؤثر في نور التي بدَا عليها العناد والصلابة أكثر، فقالت بقوة:

- أجل نسيت، نسيت كل شيء في هذا المعسكر، ولا أريد أن أذكر شيئًا.

- لماذا؟

- هكذا بدون سبب.

- لماذا يا نور؟!

وصلت نور إلى النهاية، صمتت لفترة طويلة تحاول أن تستجمع قواها ثانية وتدافع عن حقها قائلة:

- لأنني شعرتُ أنني مجرد جارية في هذا المعسكر، غادرتُ شهرين لم يسأل أحد عني، ولم يهتم شخص لأمري.

أوقف كلام نور القائد للحظات كأنه يستذكر ما حصل في شهرين، نظر إلى نور وقد أغضبه انفعالها وكلماتها القاسية، حاول أن يتناسى ما قالته، لكن الغضب الذي فجرته بوجهه أخرجه عن طوره، فقال بقسوة:

- أنتِ هنا فعلًا مجرد جارية جئتِ لتنفيذ أوامري فقط.

نظرت نور في تلك اللحظة بعينين ملأتها الدموع والغضب إلى القائد، لم تقل شيئًا، إنما خطّت بخطوات إلى الباب وفتحته قبل أن يكمل كلامه قائلًا:

- المحبة لا تأتي بالعشرة يا آنسة.

تركت نور كل شيء خلفها وخرجت من مكتب القائد بعد مواجهة حامية انتهت بها إلى التشبث بالبكاء.

كان المعسكر ليلًا أشبه بعرس جميل يشعر كل من فيه بالسعادة الحقيقية، حتى نور التي قررت أن تنسى كل شيء إلا الشعور بالسعادة مع صديقاتها اللواتي ملأنها حبًا وشوقًا، فلم تكن تبدأ بسرد حدث حتى تبدأ بآخر إلى أن حان موعد النوم الذي تأخر كثيرًا هذه الليلة، وجاء الصباح مثقلًا برائحة بدء الصيف العبقة، وضحكات الصبايا في السكن تملأ الغرف، كل الفتيات أعدَدن العدة للذهاب إلى الاستراحة، حيث ألقت اعتدال أوامرها بتجهيز إفطار شهي احتفاءً بنور، اصطفَت جميع الفتيات ينتظرن تجهيز طعام الإفطار متبادلات الحديث الشيق مع نور، فيما كانت اعتدال تجهز أسئلتها الخبيثة قائلة:

- نور، هل قائد معسكر الصيانة يشبه قائدنا؟

ابتسمت نور وترددت قليلًا في الإجابة، مروقت قصير قبل أن تجيب قائلة:

- إنه رجل متقدم في السن... لطيف... مرح... رغم جسده البدين.

اقتربت اعتدال قليلًا من نور، وهمست لها بصوت منخفض:

- إذن هو عكس قائدنا.

ضجت الاستراحة بالضحك، وقد سعدت اعتدال أن ليس ثمة أحد من الشباب قد سمعها.

وفجأة عدّلت من جلستها التي كانت تقابل بها نور، و ابتسمت بهدوء ثم قالت:

- صباح الخير سيدي.

عرفت جميع الفتيات أن القائد دخل الاستراحة؛ فتجهز الجميع لاستقباله.

- صباح النور.

رد القائد مع صديقيه على تحية اعتدال وتوقفوا قليلًا جانب الطاولة.

- تفضل سيدي.

وقفت اعتدال لتتجاذب أطراف الحديث مع القائد، الذي كان ينظر بخفية إلى نور وهي تدير ظهرها مظهرة لامبالاة كبيرة قائلًا:

- لا أحب أن أفرض نفسي على من لا يرغب بوجودي.

كان كلام القائد غريبًا، فنور لم تخبر أحدًا بما حدث معها الأمس، نظرت اعتدال إلى جميع الفتيات وقالت مداعبة:

- من هذا الذي لا يرغب بك يا سيدي؟! لأنزلَنّ عليه العقاب الشديد.

ضحك القائد والجميع من كلام اعتدال، وفي تلك الأثناء التي دخل بها مصطفى مسرعًا ومتجهًا إلى نور، نظر القائد إليه مستغربًا وقال:

- ما الذي جاء بك يا مصطفى؟

لم يرفع مصطفى عينيه عن نور التي كانت تبتسم بخجل، ثم قال:

- جئت أسلم على نور أرق وردة في هذا الصيف الجميل.

صمت الجميع، و ابتسمت نور حتى تلالأت عيناها خجلًا وفرحًا، وداعبها الغرور قليلًا فنهضت وسلمت على مصطفى شاكرة له حسن استقباله، ثم عادت إلى مقعدها ثانية.

نظر مصطفى إلى القائد الذي كان ير اقب ما يحدث باهتمام، ثم قال:

- هل تسمح لي بمغازلة مجندتك يا سيدي؟

تركت كلمات مصطفى آثارًا واضحة؛ فسببت السعادة لنور، واستغرابًا للقائد الذي رد على مصطفى بقوله:

- لقد تغزّلتَ بها و انتهى الأمر.

ثم خرج ومعه أصدقاؤه، فيما كانت مشاعر الضيق تتوزع بينه وبين نور واعتدال.

عاد الهدوء ثانية إلى الاستراحة والعيون تتجه إلى نور، لم يجرؤ أحد على قول شيء، إلا لينا التي تحدثت إلى نور بقولها:

- هل من أمر بينكِ وبين القائد؟

كانت نور ما زالت تنقل أصابعها بين فنجان القهوة والطاولة؛ أرادت ألّا تسمع شيئًا، لكن الجميع ينظر إليها وينتظر جوابها، تنهدت وقالت مبتسمة:

- لا شيء.

- شعرت أن الجو بينكما لم يكن صافيًا.

- ومتى كان صافيًا يا صديقتي؟

تأكدت الفتيات أن فعلًا قد حدث ما أغضب نور؛ لهذا لم تتفاعل في الحديث إلا مع مصطفى، إلا أن ملامحها ونبرتها كانت ترفض أن تتكلم عما جرى بالأمس.

لم يكن هذا المساء صاخبًا كالعادة؛ فالجميع يعود إلى سكنه مجدِّدًا نشاطه بعد يوم عمل شاق، كل فتاة تدخل السكن يبدو عليها الهدوء والاحترام. فما الذي حدث؟! أمر غريب، لم تعتد أيّ من الفتيات على رؤية القائد مساءً في السكن؛ حيث كان يقف إلى جانب المُشرفة ويتناول معها أحاديث رسمية، دخلت نور وصديقاتها فألقين تحية المساء و انطلقن إلى غرفهن، لولا صوت

القائد الذي أوقف نور بقوله:

- نور.

وقفت نور للحظات والخوف يحيط بها، بينما تبادلت صديقاتها النظر إليها وإلى القائد؛ فاضطرت نور إلى أن تكظِم مشاعرها وتلتفت باتجاهه ملبية ندائه:

- نعم سيدي.

اقتربت نور أكثر، فيما عادت صديقاتها إلى غرفهن والفضول يتغلغل في أجسادهن؛ ما سبب دعوة القائد لصديقتهن؟ استأذنت مشرفة السكن، فيما كان يفصل بين نور والقائد بضع خطوات، كان السكن هادئًا نسبيًا، إلا من بعض الفتيات اللواتي يلقين التحية ويدخلن، بدأ القائد يعدل من نبرة صوته وير افقها بابتسامة بسيطة قائلًا:

- على الأقل قولي مساء الخير.

كانت نور ما زالت تحمل بعضًا من الغضب والعتاب؛ فقد كان كلام القائد قاسيًا جدًا بالأمس، لكن احترامه يفرض نفسه دائمًا، استجمعت نور قواها وقالت بوجوم:

- مساء الخير.

تمعن القائد قليلًا في نور قبل أن يفرد ابتسامة هادئة على وجهه ويقول:

- أنا آسف؛ كنتُ قاسيًا معكِ في آخر لقاء بيننا.

تغيرت ملامح نور؛ هذه أول مرة يتحدث معها القائد بهذه الطريقة، أومأت رأسها وقد مالت ملامح وجهها إلى السكون والابتسام، وأبدت رغبتها في الاستماع لما يقوله حين أكمل قائلًا:

- حقيقة أنا أعتبركِ من أفضل المجندات في العسكر، ولكنني قلتُ ما قلته لكِ؛ لأنك صممتِ على اتهامي بغضب وقسوة دون أن تعطيني فرصة للحديث.

حاولت نور أن تداري خجلها بقليل من الابتسامات الخفيفة التي جمعتها بصعوبة، ثم قالت:

- لا بأس سيدي، فقد كنت مضطربه للغاية، أنا آسفة.

هو الصيف وأطياف قوس قزح، وتلك الأزهار التي تملأ أيادينا بلونها الأبيض، هو الفضاء الواسع، وملءُ عيوننا سعادة وفرحتنا باستقبال لون الربيع، كم مرة علينا أن نقفز بين ذكرياتنا وملاعب طفولتنا لنخبر قلوبنا بأن كل ما مرّ هو الحب، تلك الآهات... والليل الطويل والعتمة التي لا نهاية لها، وتلك الأشواك الصغيرة في دروبنا، حتى الدموع قصيرة العمر ونهاية النور وضوء القمر، أما كل هذا فهو الخيبة؛ حين نظن أنه كان هناك عشق وحب غادر إلى غير عودة، أو لعله لم يكن في القلوب له وجود، وبين هذا وذاك تاريخ قصير وحزن طويل، لماذا؟! لأنه الفرق بين الأمل والسعادة والابتسامة، وبين الحزن والحقد والألم، كيف كانت تلك الليلة؟ كل فتاة على سريرها... الصمت سيد الجميع، باستثناء لينا التي كانت تتبادل الهمس مع نور، ماذا قالت لينا؟

- نور، ستأتينا فتاة جديدة إلى المعسكر.

لم تبالِ نور كثيرًا بما قالت لينا؛ فقد كان لقاءها مع القائد يشغل تفكيرها، بل كل أحداث اليوم كانت غريبة، وما كان يسعدها أنها عادت إلى المعسكر وهي بين أحضان صديقاتها الآن.

كررت لينا ما قالته ثانية إلى نور، التي أشاحت الغطاء عن وجهها قليلًا وقالت:

- وماذا يعني؟ الكثير من الفتيات يجِئْن باستمرار.

- لا يا صديقتي، إنها فتاة غير عادية.

أثار كلام لينا استغراب نور؛ فجلست معتدلة على سريرها طالبة من لينا شرح ما تقول:

- ماذا تعنين يا لينا أنها غير عادية؟!

- لا أعرف، لكنهم يقولون إنها صديقة عزيزة على القائد.

كان وقع كلمات لينا على نور ثقيلًا ومستفزًا حتى وصل إلى درجة الغضب، فقالت:

- صديقة؟! للقائد! وعزيزة! منذ متى وهناك صديقات عزيزات على القائد؟!

أغلقت لينا ستائر الغرفة وأطفأت الضوء وهي تشعر بالندم على ماقالته، فرغبت في تغيير مجرى الحديث قائلة:

- انسي الموضوع يا صديقتي؛ لعل الأمور لا تكون كما تصورتُها، تصبحين على خير.

كل شيء بات هادئًا، إلا قلب نور الذي تأجج بالكثير من المشاعر المتناقضة، من تلك الفتاة؟!

إنها (سامية) التي غيرت مجرى أحداث المعسكر، فتاة جميلة، تحمل أسى وغضب ولا مبالاة، وأكثر ما يلفت النظر فيها هو التعالي والغرور، ماذا كانت تحمل للمعسكر وللفتيات؟ ليس هناك من يعلم سر الإجابة، ولكن حين الْتقَت عيناها بعيني نور، تأكدتا بأن الامور لن تكون على ما يرام، إلا أننا علينا دائمًا أن نتقبل الهزيمة والنصر بنفس الروح، كما كانت تقول الجدة للجميع دومًا.

بدأ القائد يُعرّف سامية على الجميع، وهي التي كانت قد وضعت الكثير من الحواجز بينها وبين فتيات المعسكر، لم يكن أحد يعلم السبب؛ فهي جريئة لدرجة أنها كانت ترافق القائد على الدوام، حتى في حفلة الخطبة لليث ولينا والتي امتازت بالبساطة والرسمية، إلا أن السعادة كانت تغمر الجميع، وفيها تبادَلَ العشاق نظرات الأمل في انتظار دورهم، وقفت اعتدال إلى جانب القائد نكاية بسامية التي كانت تقف إلى جانبه الآخر، وقالت:

- العقبى لكَ يا سيدي.

ابتسم القائد بعينين تحملان همًا وحزنًا صغيرين، وقال:

- شكرًا لكِ يا اعتدال.

- أعتقد أنها ستكون فتاة محظوظة وسعيدة.

شعر القائد بشيء من البهجة وهو يتحدث إلى اعتدال قائلًا:

- صحيح؟ أعتقد أن هذا لطف منك، ولكن لماذا أشعر دائمًا أنكِ

تتخذين منّي موقفًا؟

ضحكت اعتدال بصوت مرتفع وهي تذكر كلامها عن القائد دومًا، ثم قالت:

- لا سيدي أبدًا، هو من باب المحبة فقط.

شكر القائد اعتدال على كلامها اللطيف وغادر مودعًا العروسين ومتمنيًا لهما سعادة دائمة.

ما أجمل الصيف في قريتي؛ كل الفصول جميلة في الوطن... الصيف يهدي دفأه للشتاء، والشتاء يقدم نرجسه للربيع وهو يزدهر بألوانه؛ لينثر عشقنا للوطن كإقحوان، حتى قسوة الخريف تمتطي الصباح وتهدأ، فما أحلاك يا وطني! وما أقسى البشر حين يقابلونك بالجفاء.

عاد الحزن وكرر ذكراه في نفس نور وهي ترى سامية تحتل مكان منى في غرفتها، فما أبعدهما عن بعض، منى... رحلت وكانت نرجس القلب الدافئ، وجاءت هذه المتعحرفة المزاجية لتحل محلها، من هذا الذي يستطيع أن يتسلل إلى قلب نور؛ ليكتشف حزنها وألمها؟! فقد كان سلاحها منذ قدوم سامية الصمت... الصمت فقط، تراقب كل ما يجري حولها ولا تقول شيئًا، وجُلّ ما تخشاه أن تأتي تلك اللحظة التي تنفجر فيها فلا يكون هناك دواء لدائها، إلا أن الفرحة والسعادة التي كانت تضم لينا و ليث كانت تلقي بظلالها على نور رغم ما كان يزعجها، فقد كانت تقضي وقتًا طويلًا في الليل وهي تستمع للأحداث اليومية للينا، إلا يوم الخميس الذي كانت تقضيه نور عند صديقتها اعتدال؛ ليسهرا معًا حتى الصباح، فقد كان يعقبه يوم عطلة، وهذا كان شأن هذا اليوم، وما أن بدأت السهرة حتى وصلت ربا مستأذنه في الدخول وجملة من

الانفعالات تملأ وجهها

- مساء الخير.

ردت جميع الفتيات بسعادة على تحية ربا التي كان يظهر عليها الاستعجال، فقالت:

- نور، من فضلك القائد يريدك في الغرفة حالًا.

- أنا!

استغربت نور من مجيء القائد في هذه الساعة المتأخرة وطلبها بهذه الطريقة، فجمعت نفسها وأغراضها ورجعت مع رُبا إلى غرفتها؛ فوجدت صديقاتها يقِفْن جميعًا ومعهن القائد ومجد وليث وكذلك سامية، استأذنت ودخلَت، وكان يبدو أن هناك نقاشًا ساخنًا بين لينا والقائد الذي كان يحدق بلينا وكأنه يرغب بشيء ما، كانت نور تراقب الحديث بصمت، في حين وجه القائد حديثه لنور قائلًا:

- نور، أنا أريد أن آخذ رأيكن في أن تسكن سامية معكن في الغرفة، فما رأيك؟

لم تقل نور رأيها؛ لأن لينا لم تترك فرصة لأحد بالحديث؛ فقد كان الغضب يملؤها، في حين كان ليث يقف بصمت أمام وجود القائد، فقالت غاضبة:

- سيدي، من فضلك... غرفتنا لا تتسع لسرير إضافي.

كانت لينا توجه كلامها إلى القائد بقسوة مع الحفاظ على احترامها، في حين بدأ القائد يفقد أعصابه من حديث لينا، فعَلا صوته قليلًا وقال:

- لينا، لوسمحتِ أريد أن أستمع لرأي آخر غير رأيك.

لم تصمت لينا، كان مجرد وجود سامية يثير استفزازها وغضبها، فيما كان يلتزم الجميع الصمت؛ فأكملت قائلة:

- لن تجد رأيًا آخر؛ فكلنا مشتركات بنفس الرأي.

- لينا، من فضلك اصمتي.

- لن أصمت، فأنا من حقي أن أكون مرتاحة في غرفتي، فيما إن كثيرًا من الغرف لا تسكنها إلا ثلاث فتيات.

صمت القائد وهو يستمع لكلام لينا وكان قد نفذ صبره تمامًا، فصرخ في وجهها قائلًا:

- لينا، قلتُ لكِ اصمتي، ولا تستغلي منزلتكِ عندي ولا أنك خطيبة لليث، فسامية من حقها أن تختار الغرفة التي تناسبها.

بدأت الدموع تتأرجح في عيني لينا، وقد خفّفت من حدة نبرتها بعد أن رأت ملامح الغضب بدأت ترتسم على وجه ليث، فقالت بهدوء:

- سيدي، أنا لا أستغل أي شيء، ولكن سامية تسكن في غرفة مُنَى، فلماذا غيّرت رأيها فجأة؟

تقدمت سامية خطوة إلى الأمام متحدية الجميع وهي تقول:

- أنا لا أسكن في غرفة فتاة انتحرت.

كان وقع الكلام أليمًا جدًا في نفس نور التي انتظرت أن يرد القائد عليها بالرد المناسب، شعرت أن الشجاعة تخونها والكلام يطير من جنبيها... لم تقل شيئًا، بل استسلمت بهدوء للبكاء، وكان الجميع صامتًا أمام كلمات سامية في حق صديقتهم منى، حتى أنهى القائد الموضوع بقوله:

-سامية، عودي إلى غرفة منى، و أنا آسف لإزعاجِكُن، تصبِحن على خير.

لم يلحظ أحد حجم الحزن الذي كان يسكن عيني نور ودموعها إلا القائد الذي شعر به دون أن يراه، كانت ليلة قاسية... إلا أنها انتهت بهدوء، فلينا والقائد تبادلا كلمات الاعتذار بحرارة أنستهما كل ما دار من حوار، ربا وعلا خرجتا في نزهة قصيرة حول المعسكر؛ ليمرحا بجو الصيف الجذاب، إلا نور التي نسيت كل شيء، وبقي حزنها الذي أغرقته في سريرها باكية حتى الصباح.

علّنا نستيقظ يومًا فنجد حياتنا كلها قد تغيرت، كيف نتجاوب مع هذا التغير؟ هنا تظهر شجاعتنا، جميع فتيات المعسكر كن يتهرّبْن من هذا السؤال حين يُذكر اسم سامية أو يراها أحدهم، فقد أزعجت الجميع وضاقوا بها ذرعًا... وخاصة الفتيات.

- نور، صباح الخير.

كانت هذه أول مرة تستيقظ نور على صوت اعتدال، تقلّبت قليلًا في الفراش وهي تتذكر ما حدث بالأمس، نظرت ثانية فوجدت اعتدال مبتسمة أمامها وهي تقول:

- لماذا لم تعودي لنكمل سهرتنا بالأمس؟

جلست نور على سريرها ومازالت آثار الليلة الماضية بادية عليها قائلة:

- لا أعرف.

- على كل حال أخبرتني ربا بكل ما حدث، وقالت بأنكِ انزعجتِ حين تحدثت سامية عن مُنى.

تنهدت نور بحزن مدعية اللامبالاة، ثم قالت:

- ربما.

نظرت اعتدال باستغراب إلى نور، وقد بدأت تشعر بالملل رغم أن الوقت مازال مبكرًا، اقتربت وجلست إلى جانبها في السرير؛ لتغير من نفسيتها قليلًا، وقالت:

-نور، لماذا إجاباتكِ على أسئلتي مختصرة وغير واضحة إلى جانب أنها مملة؟

هزت نور رأسها وكأنها فعلًا لا تعرف شيئًا، إلا أن اعتدال رفعت الغطاء عنها وأخذت بيدها، وقالت بصوتٍ عال:

- هيا قُمن جميعًا، أنا أدعوكن لشرب القهوة في الاستراحة، هيا نور... تفضلي لو سمحتِ.

نهضت نور ومن بعدها جميع الفتيات في الغرفة متجهات إلى الاستراحة، إلا لينا التي أتعبها السهر وغلب عليها النعاس.

طوال الطريق لم تقل نور شيئًا، حتى أنها لم تبتسم وكأنها تعيش في عالم منفرد بها، وهذا ما شعرت به صديقاتها اللو اتي أحَطن بها ودفعنها إلى الاستراحة بمرح ودعابة، جلست نور مقابل اعتدال كعادتها، وكان باب الاستراحة مواجهًا لنور فيما جلست الفتيات إلى جانب اعتدال، بدأت الاستراحة تمتلئ بالجند رغم أن اليوم عطلة، حاولت اعتدال للحظات أن تغير من جو الغضب المشحون؛ فقدمت فناجين القهوة لصديقاتها قائلة:

- من تخبرني عن أسعد إنسان في العالم؟

كان سؤالًا غريبًا، ولكنها عادة اعتدال في طرح الأسئلة، الإجابة ربما تختلف من شخص لآخر، هذا ما أكدته نور في إجابتها والتي رفضتها اعتدال تمامًا.

فكّرت رُبا قليلًا... نظرت حولها لعلها تجد الجواب قريبًا منها، ثم قالت:

- أهو العاشق؟

أثارت الكلمة حنق نور، والتي أشارت إلى ربا بالصمت وكأن الجواب لا يناسبها أبدًا.

أعادت عُلَا فنجان القهوة إلى الطاولة قبل أن تهم بالحديث قائلة:

- ربما تريدين أن نقول أن الأسعد هو الذي لا يرى أخي أبدًا.

فتحت إجابة عُلا أبوابًا من الضحك، مما نقل الفتيات إلى أجواء أخرى أكثر شفافية وسعادة، فلم تلحظ أيّ منهن أي تغيير طرأ على الاستراحة في ذاك الوقت.

شعرت نور أنها تحتاج مزيدًا من الضحك والسعادة؛ لتغفل عما جرى بالأمس، فأشارت إلى اعتدال راجية لها أن تجيب، عدّلت اعتدال جلستها ورفعت من نفسها في إشارة إلى التكبر، وقالت بمرح:

- بعد التجربة، والأيام الصعبة، والسنين الطويلة...

- وبعد؟!

قالت الفتيات بصوت واحد في محاولة لكسر غرور اعتدال، التي ضحكت كثيرًا قبل أن تقول:

- اكتشفتُ أن أسعد إنسان هو الذي يشبك يديه خلف رأسه وينام بهدوء في أي وقت يشاء.

كان الجميع يحدّق باعتدال في اهتمام واضح، حتى انقضّت عليها عُلا؛ ليتحول الاندهاش إلى ضحك جميل في لحظات سريعة.

ومرت الأيام في بطئها أو سرعتها، لم تكن تحمل جديدًا للمعسكر، فقط هي نسائم الصيف التي تداعب مشاعر الفتيات وزهوتهن، كانت نور تستنشق هواء الصيف وتسعد بكتمانها سرًا لا يعرفه غيرها، وتلف نفسها بغطاء السرير الذي يبادلها السرّ والدفء، الساعة السادسة صباحًا... صوت طرقات غرفة نور أكّد للجميع أن الطارق هو مجد، جاء ليوصل خبرًا أو أمرًا عسكريًا، اقتربت رُبا من الباب وقد أتمت لبس زيها، نظرت إلى مجد الذي كان يقف بجدية، ثم قال:

- صباح الخير.
- صباح النور.
- من فضلك... القائد يريد رؤيتكن جميعًا في خلال عشر دقائق، إلا لينا.

دخلت رُبا مسرعة وأعلمت الجميع؛ لتفاجأ بـ"اعتدال" تقف أمامها فهي كانت مطلوبة معهن أيضًا، استعدّت جميع الفتيات... نور... رُبا... عُلا... اعتدال، وتوجهن للقاء القائد وفي أنفسهن استغراب حول طلب القائد لهن قبل الطابور الصباحي.

استأذنت الفتيات ودخلن إلى مكتب القائد، حيث مجد وليث وسامية التي كانت تجلس معهم وفي عينيها نظرات نصر وزهو لا يعرف أحد سببها، وقف القائد يتجول ذهابًا وإيابًا يرافقه الغضب والحدة، بينما الاستغراب والدهشة تملأ الجميع، توقف أمام اعتدال وجهًا لوجه موجهًا سؤاله:

- مع من كنتِ تجلسين يوم الجمعة الماضي في الاستراحة؟

لكأ الخوف والنسيان اعتدال قليلًا، ثم تداركت نفسها وقالت:

- نحن الموجودون هنا.

- ممتاز.

قال القائد ردًا على كلام اعتدال وكأنه يريد أن يصل لأمر ما، مشى خطوات نحو رُبا وسألها:

- هل شارَكَكُن أحد تلك الجلسة؟

- لا يا سيدي.

- جيد.

عرفت عُلا أن الدور قادم عليها في السؤال؛ فجهزت نفسها وبدأ الخوف يتلاشى قليلًا.

- و أنتِ يا آنسة، عن ماذا تحدثتِ في ذلك اليوم؟

حاولت عُلا أن تتذكر، ابتسمَت قليلًا حين تذكرت ما جرى ذاك اليوم؛ فتبادلت النظرات مع شقيقها الغاضب ووجدت أن لا مفر من الإجابة، فقالت:

- أحاديث عادية... عن المعسكر وأعمالنا اليومية، وكنا نضحك، ولم يكن هناك مشكلة.

ثم جاء دور نور لتقف مواجهة للقائد، وفي عينيه وميض لم تره نور، وهي لا تبارح في عينها عيني سامية التي بدأت تحرك شفتيها بغيظ وكراهية، بدأت دقات قلب نور تتسارع وتمنت لو ينتهي هذا الموقف بسرعة حين فاجأها سؤال القائد الحاد قائلًا: - على من كنتِ تضحكين يا نور؟

تفاجأت نور بكلام القائد فصمتت هنيهة؛ لتدارك ما سمعته، فقالت بعد وقت قصير:

- على كلام اعتدال؛ فقد كانت..

أوقف القائد كلام نور للحظة، وقال:

- تقصدين سامية؟

- سامية!

أثار اسم سامية غضب واستفزاز نور وباقي الفتيات؛ مما دعاها إلى الدفاع عن نفسها قائلة:

- أبدًا يا سيدي، نحن لم ننتبه إلى وجود سامية في تلك الاستراحة ذاك اليوم.

كانت نبرة السخرية واضحة في انفعالات القائد، بينما كان الحزن يسيطر على نور.

- أولًا: أنا لم أتهم أحدًا غيركِ؛ فسامية أخبرتني أنها ما أن دخلَت الاستراحة حتى انفجرتِ بالضحك عليها.

ذهلت نور من كلام القائد، وشعرَت أنها أمام تهمة كبيرة، فصارت كلمات الاحتجاج تصدر من جميع الفتيات:

- هذا ليس صحيحًا، نور لم تفعل ذلك... لم يحصل هذا أبدًا.

أشار القائد للجيمع بالصمت، وفي هدوء وغضب أمَرَهنّ بالخروج من مكتبه إلا نور، لم تتحرك أيّ من الفتيات، نظر القائد إليهن دفعة واحدة، وشق الصمت صوت عُلا وهي تقول:

- من حقنا يا أخي أن..

قطع القائد كلام عُلا قائلًا:

- أنا هنا لستُ أخاك، أنا هنا القائد، وليس لأحد الحق في الحديث دون أمر مني، و أنا آمركن بالانصراف... فتفضلن.

خرجت الفتيات بعد أمر القائد وكلهن قلق مما يمكن أن يحدث لنور، وما أن خرجن حتى بدأ الخوف يتملك نور... والحزن والألم، هي بريئة؛ فهي لم تلحظ أبدًا وجود سامية، وكل صديقاتها كن يشاركنها الضحك، أهو حظها السيء الذي جعلها مواجهة لباب الاستراحة؟ أم حقد سامية تجاهها؟ حاولت نور أن تلملم شجاعتها ثانية وهي تنظر إلى ليث لعلها تجد عنده المواساة في موقفها السيء هذا.

عاد القائد ليواجه نور ثانية بعد خروج صديقاتها قائلًا:

- لماذا ضحكتِ لحظة دخول سامية إلى الاستراحة؟

لم يكن الأمر يحتمل انفعال نور، التي حاولت كظم غيظها وقهرها، فقالت مدافعة عن نفسها:

- سيدي، أنا لم أفعل ذلك، كنت أشارك صديقاتي الضحك فقط.

- نور، لا تستثيري غضبي.

بدأت نور تفقد شجاعتها وهي ترى صمت الجميع وقد فقدت كل أسلحتها، فقالت:

- سيدي، لماذا عليك أن تصدقها وتكذبني؟

- لأنني أعلم تمامًا أنكن جميعًا تكرهنها وببساطة يمكن أن تتفِقْن عليها.

حاولت نور أن تكتم الدموع في عينيها وهي تلحظ نظرات الغلّ في عيني سامية ونظرات الشفقة في عيني صديقها ليث، تنهدت بحزن، وقالت وقد كاد صبرها ينفذ:

- سيدي، أنا لستُ مخطئة، ولو كنتُ لاعترفت بشجاعة واعتذرت.

- ومن قال لكِ أنكِ لن تعتذري؟

شعرت نور أن النقاش وصل إلى درجة الصفر، وأن ليس ثمة ما يمكن أن ينقذها من هذا الموقف العصيب، إلا ليث الذي تقدم بخطوات نحو القائد وقال:

- أحمد، هل أستطيع أن أتدخل في الموضوع؟

نظر أحمد بحدة إلى ليث وقال:

- لا، إنما تستطيع أنت ومجد الانصراف الآن.

كانت هذه أول مره يتحدث فيها القائد مع صديقه ليث بهذه الطريقة؛ مما دفع به للخروج دون أية كلمة إضافية.

بقي الثلاثة... نور أكثرهم حزنًا وألمًا وضعفًا، لم تكن تشعر بالضعف كما هي الآن؛ فقد ملأتها رغبة عارمة في البكاء والكتمان، لحظات صمت سادت قبل أن يتجه القائد؛ ليقف أمامها، وقد كانت لا تبعد عينيها عن النظر إلى الأرض، وقال:

- تفضلي واعتذري للآنسة سامية.

لم تنظر نور إلى أحد؛ كانت تخشى أن تنزل دموعها فتفضح ضعفها وحزنها، إلا أن هذا لم يمنعها من الجواب باضطراب قائلة:

- لن أعتذر.

لم يتأخر جواب القائد الذي زادت نبرة تحديه مع نور قائلًا:

- بل ستعتذرين.

- لن أعتذر.

كررت نور عبارتها بقوة غير آبهة بما سيحدث.

وقف القائد بين نور وسامية حيث اضطرب الموقف وتلون بكل ألوان التحدي الذي خالطه حزن كبير سكن قلب نور، كيف سينتهي الموقف؟ هل سأعتذر؟ لماذا يصر القائد على أنها الصادقة وكلنا كاذبون؟ ما السر وراء اهتمامه بمشاعر سامية إلى هذا الحد؟ كثير من الأسئلة ملأت ذهن نور تلك اللحظات، كل ما كان يهمها ألا تضعف أمام سامية مهما كلفها هذا الأمر، كانت تتوقع أن يعاقبها القائد، أو ينهي الموضوع بسلاسة، إلا أنه وقف أمامها وبصوت هادئ مستفز قال لها:

- الاعتذار لسامية أمر... يجب أن تنفذيه.

صمتت نور... طال صمتها، ماذا يعني أمر؟ هل ستتوقف حياتي العسكرية أمام عنجهية سامية؟ ولماذا أعتذر؟ وكيف رفع القائد من أهمية الموضوع إلى درجة الأمر؟ كل المشاعر ألغيت من قلب نور في تلك اللحظات؛ نسيت كل من تحب وشعرت أن الحياة أصبح لها لون واحد، كيف يمكن لقسوة إنسان أن تمحو ملامح الحب في قلوبنا بهذه السرعة وهذا الحزن؟ بدأت الدموع تتراكض من عيني نور دون توقف أو انتهاء، والعنف هو الذي سكن جسدها تلك اللحظة، فلم تَعُد ترى أي شيء أمامها... منى... أيمن... أمها... حتى وطنها الذي يسكنها وتسكنه، أرادت أن تستمد منهم الشجاعة دون جدوى، فقط ثمه خطوات تبعد سامية عنها، اقتربت... أكثر... فأكثر... لم ترافقها تلك اللحظات إلا صوت أمها وهي تحنو عليها حين كانت صغيرة، كان صوتها كموسيقى بحر

هادئ، تمنت نور لو أنها بقيت تسكن ذاك الحضن، تمنت لو أنها أبعد الناس عن هذه الخطوات، خنقت الكلمات صوتها... والدموع عينيها، فيما كان التعالي والبرود يملآن قلب وعيني سامية، ثمة خطوة تفصلها عن سامية، لم يكن هناك أي شجاعة أو بطولة يمكن لنور أن تشتريها لتسعفها تلك اللحظات، وقفت... الشحوب يملؤها، والحزن والغضب والقهر يسكن كل الفضاء من حولها وهي تقول:

- أنا آسفة يا آنسة سامية.

أخيرًا اعتذرت نور؛ حيث أغمضت عينيها دون انتظار للجواب ومشت خطوات ثقيلة إلى الباب تهم بالمغادرة، لولا صوت سامية الذي أوقفها قائلة:

- لا بأس على ألا يتكرر هذا ثانية.

سمعت نور كلمات سامية وخرجت من مكتب القائد... إلى حيث لا يعرف أحد.

- أين نور؟

كان الغضب يملأ القائد ونبرة صوته تحمل الكثير من التحدي وهو يقف مواجهة لمجد، فيما كان ليث يجلس على مكتبه دون كلام ولا حتى نظرات.

شعر مجد لوهلة أنه أمام مسؤولية كبيرة لا يستطيع تجاوزها؛ فرفع كتفيه معلنًا عدم معرفته وقال:

- لا أعرف سيدي.

- ومن يعرف إذن؟ أنا!

بدأ صوت القائد يعلو تدريجيًا في محاولة لمعرفة مصير نور التي تركت المكتب قبل ساعتين ولم تلتحق بعملها، لم يستطع مجد أن يمنع القائد من إبداء غضبه؛ فقرر أن يخفف من حدة التوتر السائد بينهم جميعًا، وقال:

- أمهلني ساعة واحدة يا سيدي أبحث فيها عن نور.

خرج مجد، وما زال القائد يقف متوجهًا إلى نافذة مكتبه يراقب بعينيه جمال الأشجار المحيطة بالمعسكر، ويسأل نفسه عن سبب عدم تذوقه لجمالها كما كان قَبلًا، بينما ليث ما يزال جالسًا... ابتسم مستهزئًا وقال بصوت حاد:

- هل علينا أن نصبح جميعنا خَدمًا لسامية حتى ترضى؟

عرف القائد أن ليث ما زال غاضبًا وأثر الغضب واضح في كلامه، هدّأ من نفسه قليلًا، واتجه نحو صديقه في محاولة لإرضائه قائلًا:

- لو قال هذه العبارة غيرك يا صديقي لكان لي معه شأن آخر.

وقف ليث و اتجه ليواجه القائد، وعيناه تلمعان بالحدية والقهر، وقال:

- وماذا تنتظر؟ هيا عاقبني.

لم يجب القائد على كلام ليث، بل أشاح وجهه و اتجه ليجلس على مكتبه قائلًا:

- وهل يعاقب المرء روحه؟

بدأت ملامح العتاب واضحة بين الأصدقاء؛ فالقائد لم يستطع إلى الآن إرضاء ليث، وليث غاضب... كان كلامه حادًا... جافًا... يشوبه العتاب، وهو يقول بانفعال:

- فأنا أعلم تمامًا و أنت لا تستطيع أن تخفي الحقيقة، يمكنك أن ترتدي أي قناع أمام أي إنسان سواي، أنت تحب نور وحبها يملأ قلبك؛ فقد كانت ملامح وجهك ستنفجر غيظًا حين تغزّل بها مصطفى في الاستراحة، لماذا تنكر؟ ولماذا تقدم سامية عليها؟ ولماذا سامية غيّرت مجرى المعسكر بأكمله؟

كان الحزن باديًا على القائد فيما كان ليث يواجهه بحقائق غفل عنها، تمالك نفسه وقال بهدوء:

- ما يهمني أن تكفّ عن غضبك مني، وأن تثق بي وتقف إلى جانبي فقط.

- ونور!

- انسَ أمرها.

- إلى متى؟

- إلى الأبد.

ساعة واحدة كانت تفصل بين منزل نور والمعسكر التي تركته لتقضي أجازتها في أحضان قريتها الصغيرة، كان صوت القطار عاليًا يصم الآذان، شعرت نور أنه قلبها... تركض دقاته مسرعة ويحيطه الحزن والألم، بماذا كانت تفكر نور؟ باللاشيء... وهي اللحظة التي نتوقف عندها حين نصل إلى ذروة القهر المؤلم، ماذا فعلت بها الأيام؟ الكثير؛ أفقدتها طعم البراءة والجمل السريعة التي تبعث فينا الضحك، أفقدتها لذة العودة إلى الوطن، كانت هذه أول مرة تغمض فيها نور عينيها مستسلمة للبكاء الحار، منذ متى لم تستقبل بعينيها تراب قريتها؟ كم مرة غفلت عن ذاك النفق الذي يزينه أضواء صفراء صغيرة، كانت تعدها نور كلما مرت من هناك، ألهذه الدرجة نقسو على أنفسنا وعلى حُبَيْبات الندى التي تزين أشجار الوطن؟ لم تجد نور لها بارقة أمل، أو ابتسامة شاردة تؤمل فيها ذكرى الحزن في وجدانها، حتى اعتدال التي تأكدت نور في تلك اللحظة أنها كانت محقّة حين تحدثت عن أسعد الناس، حتى هي زادت من أحزانها، ضلّ الزمان طريقه إليها؛ فقد بقي القليل ويتوقف القطار، كان لا بد لنور بعد اتخاذها هذا القرار أن تعقد صفقة بينها وبين نفسها في أن تترك كل ذكريات المعسكر في القطار وتفتح في قلبها غرفة صغيرة؛ لتعيش فيها شهرًا كاملًا بين أمها وخالها وغرفتها التي هي الوطن كله، هل توقف القطار؟ أجل... هذا ما أكده ذاك الطفل الصغير و هو يمد يده إلى نور لتفتح عينيها، كان بريئًا... يحمل ملامح سمراء وشعرًا بنيّ اللون، قد تلامست يده يد نور لدقائق، إلا أنه لم يقل شيئًا، كانت ابتسامته هي ما يعبر عنه، ابتسمت نور... تمنت لو تستعير هذه البراءة وتلك الحركات الصغيرة التي يحرك بها رأسه مداعبًا الهواء الجميل.

نزلت من القطار تحمل حقيبة سوداء وترتدي ملابس زاهية لم تلبسها منذ زمن بعيد، استنشقت هواءً عليلًا شعرت أنه يتخلل أجزاء جسدها.

ما أجملك يا وطني، وحدكَ من تبادلني الحب، وحدك من يعطيني دون أن ينتظر مني شيئًا، لو أنك يا وطني تنسيني همي وحزني وألمي؛ لامتزَجْتُ معكَ في قصة حب عنيفة بدايتها الزمن ونهايتها المجد.

شعرت نور وهي تضع قدمها على تراب قريتها بالندم، كيف أنها غفلت عن التغزل بقريتها؟ لماذا لم تفتح عينيها وتستسلم لذاك الشوق والوجدان الذي يتشابك في لهفة ليضمها؟ يا لقسوتي عليك يا وطني، لن أغمض عيني عنك ثانية، لن أبكي في أحضانك، أعدك بحبي وشوقي أن لا تعيش لحظة حزن معي طالما قدماي تطآن تر ابك المشتاق.

شوارع القرية كما هي؛ هادئة... ترقب غروب الشمس كل يوم، ذاك الغروب الذي ما زال يحاكي جمال الطبيعة وروعة الصيف، حيث تتنقل أسراب الحمائم بين السحب البيضاء الخجلى وبين شمس القرية الصفراء، أيّ روعة غروب يسكن في غير قريتي؟ حيث الشوارع المرتفعة حينًا والمنخفضة حينًا آخر، وتلك التلة التي حاكت فيها نور أيام عمرها مع خالها أيمن، وهذا ينبوع الماء الذي بقرب بيتي... أما زالت تتساقط فيه الأزهار البيضاء؛ فتتلألأ كأنها ماسة من السماء؟ ها هو بيتي كما هو جميل، أحنو إليه... أزرع فيه ذكرياتي، هل أمي هناك تنتظرعودتي؟ هل ما زال خالي يرقب فيه صوتي؟

رفعت نور يدها باتجاه الباب تريد أن تطرق عليه بعض الطرقات، ولكن.... غيرت رأيها في لحظة فأرادت أن تفتحه دون أن يشعر بها أحد، كان صوت أمها وخالها يملآن المكان، وصوت أطباق الطعام وكأنهما يهمان بتناول العشاء، فاجأتهم نور صارخة:

- مساء الخيريا أحبتي.

توقفت الأيدي عن الحركة، كانت المفاجأة مفرحة وكبيرة، نظر أيمن بسرعة إلى نور التي ألقت نفسها في أحضانه باكية سعيدة، كانت لحظات السعادة تطيربين الثلاثة و أيمن الذي رفع نور وكأنه يرشها عطرًا في الهواء، كان متلألأً ضاحكًا يعبر عن فرحه بحضنها؛ لتفريغ شوقها وشوقه في دفء الأم الحنون.

- نور، ما أجمل هذه المفاجأة، وكأنني امتلكت الدنيا بأسرها.

كانت نور تستمع إلى كلام أمها والدلال يملأ محياها، فيما كانت عيناها معلقة بعيني أحبابها والابتسامة لا تفارق ثغرها.

كانت خطوات القائد غاضبة متوترة؛ حيث كان هذا اليوم الأول لغياب نور عن المعسكر، شعر ليث بأن ثمة كلام كثير يسكن في نفسه وهو لا يتوقف عن الذهاب والإياب، فتوجه وأوقفه للحظات قائلًا:

- أحمد، هلّا كففتَ عن المشي بهذه الطريقة.

لم يقل أحمد شيئًا، بل حرك مقعدًا كان بجانبه وجلس عليه بتوتر مظهرًا لامبالاته، وقال:

- أرأيتَ ما فعلَت صديقتك؟

- أجل، هي مخطئه بدون شك، ولكن...

- ولكن ماذا؟ هل تجد لها تبريرًا بعد أن ذهبَت إلى القيادة العامة وأخذت إذنًا بالأجازة دون أن تأخذ رأيي؟

كان ليث يحاول تهدئة أحمد في محاولة لتبرير ما فعلت نور، فجلس إلى جانبه مبتسمًا وقال:

- لا تنس أن هذه الأجازة حق لها وقد مارست حقها، ثانيًا: أنت قسوتَ عليها، وهي أرادت أن ترد لك هذه القسوة بطريقتها الخاصة حتى إن لم تكن ترى أنها مخطئة، أنا لا أدافع عنها، بل ربما أنقل لكَ طريقة تفكيرها.

كان أحمد مستغرقًا في التفكير بما لا يعرفه أحد وهو يسمتع لكلام ليث، فتارة يغطي وجهه بكلتا يديه، وتارة يعضّ على شفتيه غضبًا، إلا أن صوته لم يكن مستسلمًا لهذه الانفعالات حين قال لليث مهددًا:

- كان يجب على صديقتِكَ أن تواجهني، في كل الأحوال هي التي اختارت، وحين تعود سوف أحاسبها حسابًا عسيرًا.

نظر ليث نظرات غريبة إلى أحمد الذي فهمها فورًا؛ فقال له:

- لماذا تنظر إليّ هكذا يا ليث؟

ابتسم ليث ابتسامة خفية قائلًا:

- أبدًا، إنما كنت أود أن أطرح عليكَ سؤالًا.

- ما هو؟

- هل ستحاسب نور حين تعود حساب قائد أم حساب عاشق؟

صمت أحمد وهو ينظر إلى ليث الذي أشاح بوجهه خشية من غضب أحمد الذي قال:

- قلتُ لكَ ألف مرة أن تنسى هذا الموضوع يا ليث، من فضلك.

عدل ليث جلسته وأصبح مواجهًا لأحمد، وتكلم بجرأة قائلًا:

- كلاكما تهربان؛ هي من مواجهتك وأنت من حبها، لا أفهم سبب مكابرتك يا صديقي.

لم يخف أحمد نظرات التحدي والكبرياء التي رمق بها ليث حين قال:

- ليث، أنصحك يا صديقي أن تنسى هذا الموضوع حتى لا تُصدَم بما سيحصل.

دخلت نور إلى غرفتها، فوجدتها دافئة كما هي؛ تزينها الصور، ويتخللها العشق للذكريات والماضي الجميل، ركضت إلى شرفتها فوجدت أزهارها يانعة كما هي، وذلك الغصن الأخضر الممتد ما زال يحيطها، حتى سريرها ما زالت أشعة الشمس تملأه دفئًا، كانت نور تتفقد غرفتها كفراشة تطير لتتلون بكل الألوان، بينما خالها مبتسمًا يراقبها كما يراقب الظمآن الماء، تنهدت بعمق و اقتربت من خالها قائلة:

- هذه الليلة لن ننام، سنسهر للفجر.

ابتسم أيمن محاولًا تهدئة انفعالات نور المتلاحقة السعيدة قائلًا:

- هذه الليلة يجب أن تنامي وترتاحي، ومن الغد نبدأ السهر، و...

قطعت نور كلامَ خالها بعد أن وضعت أناملها على فمه وقالت:

- لا... لن أضيع لحظة دون أن أسعد بها معك، واضح يا حبيبي؟

رفع أيمن كتفيه في تعبير عن رضوخه لطلبات نور الحبيبة.

هذه الليلة أحمد ونور لم يناما أبدًا، رغم أن نور في أحضان قريتها وبين أيدي أحبتها إلا أن الكثير من المشاعر كانت تحيط بها تلك الليلة، ورغم أن أحمد تخلّص من فكرة التبرير لنور إلا أنه لم يكن يشعر بالطمأنينة، كيف سينتهي هذا الشهر؟ وماذا يخفي الزمن بعده؟ كانت هذه الأسئلة تملأ مخيلة الاثنين وهما لا يعرفان الجواب أبدًا.

أشرق الفجر... و انتهت الليلة الأولى بعد أن قضتها نور في السهر مع أمها وخالها، تبادلوا فيها الأخبار والأحاديث العائلية المشوقة، وقضاها أحمد بالتقلب في فراشه و أفكار كثيرة مثيرة الإزعاج تغزو فكره.

تسلّلت نور بهدوء لتفتح باب بيتها دون أن تزعج أحدًا، وما أن وقفت على عتبة المنزل ترقُب شروق الشمس حتى سكنت كل المشاعر الهادئة المفرحة لقلبها، فكم سنة عادت بها الشمس وهي تغازل قريتها؟ أرخَت أشعتها فكانت قريتها كلؤلؤة لا يخرقها جمال، تمنّت نور في تلك اللحظة أنها لم تفارق بيتها وقريتها، ليتها لم تعرف المعسكر أو تذهب إليه، وفي لحظات تذكرت نور كل ما حدث معها؛ فطردت كل الأفكار وتذكرت أنها وعدَت قريتها بأن تنسى كل أحزانها في قطار السفر.

نصف ساعة ويبدأ الطابور الصباحي... كان أحمد يُعدّ عُدته ليخرج إلى عمله، فيما كان ليث يراقبه بهدوء، و اقترب منه قائلًا:

- صباح الخير يا صديقي.
- صباح النور.

نور... يا لثقل هذه الكلمة عليه الليلة الماضية، لقد أرَقَتْه فلم يستطع النوم، هل كان على ذويها تسميتها بهذا الاسم حتى يعاني القائد من ذكره كل يوم لعدة مرات، كل هذه الأفكار بدأ القائد بها صباحه المزعج، أكمل ليث لبس حذائه وعاد مجددًا للحديث مع أحمد قائلًا:

- كأنك لم تنم الليلة الماضية، هل من أمر آرقك يا صديقي؟

كان أحمد يعلم أن ليث يسأله بخبث وهو يعلم الجواب، فانتفض قائلًا:

- أبدًا، عانيت من صداع آرقني هذه الليلة.

علا صوت ضحك ليث وهو يربت على كتف أحمد قائلًا:

- سلامتك يا صديقي من تلك الأوجاع وذاك الصداع.

مما حدا بأحمد على ضربه بمرحٍ ودعابة وهما يعلمان تمامًا ما يخفيانه من حديث.

أتمّت الشمس شروقها ونور ما زالت تمشي في أنحاء القرية بحرية ومرحٍ... تسلم على هذا وتتحدث مع ذاك وكأنها أُطلقَت من السجن إلى الجنة، حان موعد الإفطار... سيكون مميزًا إفطار هذا الصباح مع الأحباب، كل الاطباق الشهية كانت بانتظارها حين فتحت باب البيت لترى خالها جالس على المائدة بانتظارها معاتبًا.

- ها قد رقَبْتِ شروق الشمس دوني.

اقتربت نور مسرعة من خالها، طبعَت على خده قبلة وقالت:

- وهل هناك شروق للشمس وجمال للكون بأسره دونك يا خالي؟ لكنني لم أرغب بإزعاجك، خاصة أنك لم تنم الليلة الماضية.

ابتسم أيمن وهو يقبض على يد نور؛ لتجلس إلى جانبه ويتناولا طعام الإفطار، فيما كانت آثار الإرهاق واضحة عليها، ثم قال:

- بعد تناول الإفطار سنخرج معًا ونتمشى في أنحاء القرية.

أومأت نور رأسها وهي تقضم أول لقمة لها مما تحبه من طعام.

الاستراحة هادئة... تصطف فيها الفتيات كعادتهن، ومقعد نور الخالي كان يُحزن الجميع، الكثير من مشاعر الاستفزاز والغضب كان يملأ النفوس، إلا أن الطبيعة العسكرية تمنع دائمًا المشاعر الحقيقية من الظهور، فلو كانت تسمح بذكر ما في الانفس لربما اتفقت جميع الفتيات على إيذاء سامية التي كانت شوكة في الحلق، وكعادتها دخلت مع القائد... كانت وراءه مباشرة، فيما كانت الفتيات ينظرن إليها بحقد وكراهية، للحظة شعرْنَ أن نور كانت محقة حين تركت المعسكر دون إذن، وللحظات اكتشَفْن أنها كانت مخطئة حين سمحت لسامية أن تبقى لترحل هي، وفي حركة بسيطة انسكب كأس الشاي الخاص بعُلا بعد مرور سامية بقربه، وقفت عُلا بغضب موجهة الكلام لسامية قائلة:

- أنت وقحة.

صمتت الاستراحه كلها وبريق الغضب في عيني القائد لم يفارق عُلا، كان الجميع ينظر إلى عُلا وسامية وتلك المشاعر المستفزة التي تحيط بالاثنتين، لم تقل سامية شيئًا، بل نظرت للقائد وبعض الدموع تغادر عينيها قائلة:

- أنا لم أقصد ذلك.

لم تهدأ علا، بل كانت تستشيط غضبًا، وخاصة أنها أيقنَت كذبها؛ فقالت غير آبهة بما سيحدث:

- وكاذبة أيضًا.

اقترب القائد من عُلا، في حين وقفت جميع الفتيات... القلق والاضطراب أحاط بالجميع، لم يستطع ليث أن يقترب خطوة ليفصل بين الأشقاء، كان انفعال عُلا واضحًا؛ فهي لم تعمل حسابًا لشقيقها وهي توجه الإهانات إلى سامية، وهذا ما دفع به في لحظات إلى أن يهوي بيده على وجهها؛ فيترك صفعة قوية فاجأت الجميع.

انتصف النهار و اقترب المغيب، الشوق والسعادة يملآن القرية لازدهارها بنور؛ فقد كانت تقفز سعيدة تلامس الأشجار والماء وأرصفة الطرق لينتهي بها المطاف إلى الاستلقاء على عشب القرية الأخضر مطلقة لشعرها العنان للسفر فيه، تنفست بعمق موجهة وجهها للسماء مبتسمة بلطف قائلة:

- ما أجمل نسائم الصيف الخلاب.

كانت نور تحدث خالها الذي استلقى إلى جانبها وعيناها تتراقصان في سماء القرية، ليرد عليها قائلًا:

- نور.

- نعم.

أجابت نور وهي تفتح عينيها مرة وتغلقها مرة والابتسامة زينتها.

- هيا يا عزيزتي، عليكِ أن تخبريني بكل ما حدث معكِ منذ رحيلك من هنا إلى الآن.

تفاجأت نور بكلام خالها، ودّعت الابتسامة وتاهت في التفكير، مرّوقت دون أن يقول الاثنان شيئًا، لكن طلب خالها كان منطقيًا، هذا ما أكدته نور بعد أن عاد لها تركيزها ثانية، فتداركَت نفسها وقالت:

- لا شيء، أعني لا شيء مهم.

- حقًا؟! لقد غادرتِنا منذ أكثر من عام، ألم يحصل شيء مهم؟

- لا... أبدًا.

- أمر غريب، لماذا كنتِ حزينة و أنتِ تتكلمين معي في المزرعة إذن؟

صمتت نور... لم تعد قادرة على السيطرة على نفسها وضبط انفعالاتها؛ فجلست، ودلّ هذا على توترها، كرر أيمن النظر إليها وهو يرقب ابتسامتها المصطنعة، ثم قالت:

- لأن صديقتي العزيزة توفّيَت في المعسكر منتحرة، وقد سُجِنتُ بسببها.

أثار كلام نور استغراب أيمن الذي بدوره جلس أيضًا إلى جانبها قائلًا:

- منتحرة! وسجنتِ! كيف ومتى؟ هيا أخبريني.

لم تشأ نور أن تتذكر شيئًا، أرادت أن تنسى تلك الأيام، ولكن ماذا تفعل؟ فقد فضحتها ملامح وجهها وهي ترجو بها خالها ألا يذكرها بالماضي المؤلم.

حقًا... إن الحياة لا تلد أيامًا تحمل كلها اسم الليالي، إلا أن الأمر مختلف عند العاشقين، فيوم شوق... ويوم لهفة... يوم حزن ويوم سرور... والنهاية في عشقهم لا تحمل إلا معنى دوام العشق والأرق و الشوق، هذه الهدية المشتركة لكل من سكن الحب في نفسه وحمل معاناته معه إلى أي مكان.

صوت طرقات الباب كانت هادئة، ففي المساء كل الأحداث يصبح لها طعم آخر، كانت الساعة الثامنة مساءً... ورُبا ما زالت تهم بفتح الباب، كان القائد يقف مبتسمًا بهدوء وهو يقول:

- مساء الخير.

نظرت ربا باستغراب؛ فمنذ وقت طويل لم يأتِ القائد إلى غرفتهن، بادلت القائد الابتسام وقالت:

- مساء النور، تفضل سيدي.

دخل وهو يرقب الغرفة باهتمام وكأنه لا يرى شيئًا فيها؛ فقد رحل منها من كان يتحداه ويستفزه على الدوام وهي نور، رفع القائد حاجبيه في إشارة لقطع أفكاره قائلًا:

- أين نور؟

صمتت رُبا وهي ترقب عيني القائد بتمعن، وكان قد عَلا وجهه الخجل والانفعال؛ فتدارك نفسه ثانية وقال:

- آسف، أقصد أين عُلا؟

ابتسمت رُبا واستأذنت القائد قليلًا؛ لتنادي عُلا من الداخل.

رغم مرور يومين على ما حدث إلا أن ملامح عُلا ما زالت غاضبة منفعلة، و أثار الدموعِ واضحة، اقترب القائد من عُلَا التي كانت تحاول إبعاد وجهها عنه، كانت الابتسامة لا تفارقه وهو يضمّها بين يديه ويقبّلها بحنان وشوق، حاولَت الابتعاد عنه؛ فهي ما زالت عاتبة وغاضبة، إلا أن يديه المحيطتين بها كانتا تمنعانها من التحرك، فهمس لها قائلًا:

- أنا آسف يا حبيبتي، أنتِ تعلمين أنكِ أغلى مَن في الوجود عندي.

نظرت عُلا إلى شقيقها وقد أخفت تلك الدموعِ الجميلة التي ملأت عينيها، ثم قالت:

- لكنكَ صفعتني بقوة.

- لأنكِ أخطأتِ.

- هي التي استفزتني.

- رويدكِ يا عُلا، هي لم تفعل شيئًا ولم تقل ما يزعجُكِ، ولكنكِ مع صديقاتك تكرهنها جميعًا، فمهما فعلَت أو قالت هي في نظرِكُن

مخطئة ومزعجة.

- ونور؟

كان يتوقع القائد أن ترد عُلا بأي شيء إلا بذكر نور؛ فأرخى يديه عن شقيقته، وبدا عليه التوتر واضحًا وهو يقول:

- ما بالها نور؟

- لقد قسوتَ عليها مثلما فعلتَ معي من أجل سامية، أما أنا فقد أرضَيتني، وهي؟

أراد ان ينهي الموضوع وذِكر نور وما يعيشه من صراع مزعج لا يكشفه لأحد، فقال:

- نور هي التي اختارت ألا تسمعني وتفعل ما تريد، أما ما فعلته فلم يكن من أجل سامية.

- ولكن يا أحمد الجميع أصبح يتحدث عن اهتمامك بها ومبالغتك في ذلك كأنها حبيبتك.

ضحك أحمد وهو يستمع لكلام عُلا الذي رد عليه بكلمة واحدة، فقال:

- ربما.

كانت نور تحاول أن تتلاشى النظر في عينَي خالها لتتصنع اللامبالاة، فكم مرة تهربت من سؤال خالها الذي كرره باهتمام.

- لماذا تتهربين من الحديث عن المعسكر يا نور؟

على الرغم من أن نور لم تشرب شيئًا من كوب الشاي الذي تسكنه يديها إلا أنها لم تفلته أبدًا ،وكأنها تخفي كل مشاعرها وراءه، كررت النظر بين ذاك الكوب وخالها الجالس أمامها، ثم قالت:

- صدقني يا خالي؛ ليس هناك ما يثير الاهتمام في المعسكر، ثم إنني عاهدتُ نفسي ألا أتحدث عنه طالما أنا في قريتي.

- لماذا؟

تنهدت نور محاولة التخلص من أسئله خالها التي تحاول كشفها بإصرار، وقالت:

- لأنني هنا أكثر سعادة، فقط هذا هو السبب.

- لكنني لا أصدقك.

ظنت نور أنها تخلّصت من إصرار خالها عليها بعد أن رأى الدموع في عينيها أكثر من مرة، لكن محاولاتها فشلت كلها؛ فرغبت في إقناعه للمرة الثانية قائلة:

- لماذا يا خالي؟

- لأنكِ إما كاذبة أو جبانة.

صُعقت نور من كلام خالها الذي أوقفها غاضبة، وقالت:

- أنا يا خالي؟!

- أجل، فهذه الابتسامة والعيون، والنضارة التي كانت تملأ وجهك كلها

غادرت، فما عدتِ نور التي أعرفها، أنا لا أرى إلا الحزن في عينيك فقط يا عزيزتي.

شعرت أنها ستنهار فجأة وتقول كل ما في قلبها، لولا عهدها لقريتها، فتماسكت قليلًا وقالت:

- طبيعة الحياة العسكرية قاسية جدًا يا خالي، هذا كل شيء.

تسلل الندم إلى أيمن بعدما وجه كلامًا قاسيًا إلى نور، فابتسم و اقترب منها قائلًا:

- إذن فلنغير الموضوع.

لم تغضب نور من كلامه؛ فقد كانت متأكدة من مدى حبه وخوفه عليها، هزت رأسها مو افقة على اقتراحه، فقال:

- ما أخبار رُبا ولِينا صديقتَيك؟

عادت نور بذكرياتها حيث صديقاتها اللو اتي تركتهن فجأة دون وداع، تذكرت الاستراحة واعتدال وعلا؛ فابتسمت، كانت ابتسامتها صادقة، رغبَت في أن تطير إليهن.... تقبّلهن جميعًا وتعود ثانية، لكن ما حدث كان أقوى منها، تنهدت والابتسامة ما زالت على ثغرها، وقالت:

- إنهن بخير، لينا خطَبَها شاب اسمه ليث، إنه صديقي ومساعد القائد في المعسكر.

- حقًا؟ إنه خبر جيد، ولكن هل مساعد القائد شاب؟

- أجل يا خالي.

- والقائد؟

يا لهذه الكلمة التي وقفت على أثرها نور، وكانت تشعر أن حبات من العرق بدأت تنعقد على جبينها؛ لتتساقط بحزن كبير، مرّوقت طويل قبل أن تجيب، وكأن ايمن فهم كل شيء، ظنّت نور أن الدقائق التي مرت و اتجهت بها للوقوف على النافذة كانت كافية لتُنسِي خالها سؤاله، الذي صمم عليه قائلًا:

- وقائد المعسكر... هل هو شاب أيضًا؟

ضحكت نور محاولة إظهار ما ليس في قلبها، رفعت خصلات شعرها؛ لتتجنب التوتر الواضح عليها، وقالت:

- قائد معسكر الصيانة رجل متقدم في السن، إلا أنه محبوب ولطيف.

اقترب أيمن منها في خطوات جريئة وقوية، وقف أمامها مباشرة... لمعت عيناه بسرعة، وقال:

- هذه هي المرة الثالثة التي أسألك فيها عن قائد معسكركم ولا تجيبين.

أخفضت نور بسرعة عينيها، وقالت بهدوء:

- قائد معسكرنا، أجل... إنه شاب ايضًا، أعتقد أنه في الثلاثين من عمره.

- ما اسمه؟

بدا الضجر واضحًا على نور التي تأففت قائلة:

- يا خالي، دعنا من الحديث عن المعسكر.

لم يشأ أيمن في تلك اللحظات أن يضيق الخناق على نور، خاصة بعد أن وعدها بتغيير الموضوع، إلا أن عيني نور الهاربة قد بدأت تُفهِمُه كل شيء.

فقال بمرح ودعابة:

- غدًا سأرافقك إلى السوق؛ لأشتري لكِ ما تريدين يا عزيزتي.

ابتسمت نور، ولم تكن قد استطاعت أن تخفي مشاعرها الحقيقية.

منذ طلوع الفجر وأحمد مستفيق، يقلب الأوراق الخاصة بالمعسكر بين يديه، يوقّع عليها ويرتّبها حسب الأهمية، فيما كان ليث يعدّ فناجين القهوة؛ ليشربا ها قبل بدء الدوام الرسمي، قدّم ليث القهوة إلى أحمد، وقال مبتسمًا:

- ما زِلتَ غاضبًا من نور؟

أعاد أحمد ظهره إلى المقعد، ورفع يديه إلى الأعلى إظهارًا لتجنبه سؤال ليث، ثم قال:

- لا أفكر كثيرًا بالموضوع.

- لكنك منذ رحيلها يا صديقي قليل النوم... قليل الطعام... كثير ساعات العمل والإرهاق.

ضحك أحمد مستهزئًا بكلام ليث، وقال:

- هذا لأنه ثمة فكرة في عقلك يجب أن تتخلص منها حتى تر اني بالشكل الصحيح.

- هل لي بسؤال آخر؟

- تفضل.

- لو لم تغادر نور المعسكر كيف كنتَ ستحل الموضوع وتتعامل معها؟

تفاجأ أحمد بسؤال ليث الذي لم يفكر في إجابته وكأن نور برحيلها قد أنقذته من مشكلة كبيرة، فقال صادقًا:

- لا أعرف... وكُفّ عن أسئلتك المزعجة يا صديقي.

انتهى الأسبوع الأول، نور و أيمن لم يتحدثا عن أي شيء جديد، وهذا ما أشعر نور بالارتياح قليلًا، كانت نور سعيدة وهي تتجول في سوق القرية، اصوات الباعة... جو البساطة الجميل... لون الشمس الذي لا تراه نور يزدهي إلا بقريتها، كانت تستنشق هواء القرية العليل، تقفز لتزدهر بلون الشمس المتلألئ ونسائم الهواء، حيث كانت تحرص على ألا تترك هذه اللحظات تذهب سُدًى دون أن تستغلها، على الرغم من أنها تقول دومًا بأن أجمل ساعات الصيف هي لحظات الغروب الجميلة، كانت لا تكفّ الحديث عن صديقاتها وضحكهن وما لاقته في المعسكر من سعادة، حتى أصبح خالها يعرف كل شيء عن فتيات المعسكر، وما كان يحزنها إلا الحديث عن صديقتها منى التي وعدها خالها بأن يرافقها إلى زيارة قبرها قريبًا.

- مساء الخير.

ألقَت نور و أيمن التحية على الوالدة التي كانت تجلس مساءً في انتظارهم؛ فابتسمت وردّت قائلة:

- مساء النور، لقد اتصل بك يا نور شاب اسمه ماهر.

استوقف الاسم نور وهي تضع حاجياتها على الأرض، وأسهمت قليلًا في التفكير، ثم قالت:

- ماهر! أجل إنه سائس الخيل في المزرعة، ماذا يريد؟

-	يدعوكِ لحضور حفل زفافه من فتاة اسمها... أظن أن اسمها شيرين.

تهلّل وجه نور سعادة وهي تقفز باتجاه أمها قائلة:

-	حقًا يا أمي؟ وماذا أيضًا؟

كانت الأم تحاول أن تتذكر المزيد من المعلومات وهي تتجه إلى المطبخ؛ لتعد العشاء، ثم قالت:

-	وقال إن حفل الزفاف سيكون يوم الخميس المقبل الساعة الخامسة مساءً في المزرعة.

صفّقَت نور بيديها تعبيرًا عن فرحتها، ثم اتجهت إلى خالها، وقالت:

-	هيا... فرّغ نفسك لي يوم الخميس؛ لتحضر معي حفل الزفاف.

هز أيمن رأسه موافقًا على طلب نور، وقد كان يجلس على المقعد ناشدًا الراحة والهدوء، قررت نور الذهاب إلى المزرعة، لقد اشتاقَت إليها وإلى ذكرياتها الجميلة، وقد سعِدَت بزواج ماهر من شيرين؛ لذا بدأت تجهز نفسها استعدادًا لذلك اليوم، كانت سعيدة وبانتظار يوم الخميس المتبقي له يوم واحد، تبدّل ثيابها جيئة وذهابًا؛ لتستقر في النهاية على الثوب الأبيض الزاهي والإكليل المرصّع بالأزهار الجميلة الملونة؛ مما أثار إعجاب الأم و أيمن، كان لا بد من نور أن تعطي تقريرًا مفصلًا لأيمن عن المزرعة وعن خيولها وطبيعتها الخلابة، ولا تنسى الجدة بالتأكيد، وكل من يسكن المزرعة كذلك، حتى شعرت أن خالها أيمن قد حفظ عن ظهر قلب كل شاردة وواردة فيها.

ساعتان تفصلان نور عن المزرعة في القطار، حاولت فيها أن تقضي الوقت مع خالها بألوان السعادة والمرح؛ فقد أخبرته عن كل ما فعلته الفتيات حين ذهبن إليها ذات يوم، كان القطار يشقّ طريقة وسط الطبيعة الخلابة تاركًا وراءه الماضي والذكريات والهموم التي لا تنتهي، فقد شعرَت أن ثمة فرقٍ كبيرٍ بين مجيئها بالقطار تلك المرة وهذه؛ فالآن هي في صحبة خالها الشاب الوسيم الذي سيسرق عيون كل الفتيات -كما كانت نور تدعي-، توقف القطار... نزل أيمن و نور واستقلّا عربة صغيرة؛ لتوصلهما إلى المزرعة مما أثار إعجاب أيمن بالمزرعة أكثر، كانت أجواء البهجة والعرس تملأ المكان؛ أضواء ملونه... خيول مُصطفّة... الكثير من الناس يتو افدون؛ لحضور هذا الزفاف، بينما كانت نور تمسك بذراع خالها مُعرّفة إياه على المكان بانتظار العروسين، اقتربت نور، كانت تبحث عن جدتها، شعرت أنها تجوّلت في أنحاء المزرعة كلها، فلم يتبق إلا مكانًا واحدًا، وقبل أن تتوجه إليه مع خالها أوقفها صوت مألوف وهو يقول لها:

- أهلًا بالأميرة الحسناء.

أدارت له هي وخالها وجهيهما لمعرفة مصدره، إنه مصطفى... الذي توسط مجد والقائد، للَحظَة الْتقَت العيون جميعًا، وجّه فيها القائد سهام غضبه إلى نور، شعرت فيها أنها والقائد وحدهما يقفان في العرس، جملة من المشاعر حركتهما لم يفهمها أحد سواهما، كانت أعينهما تتر اقص غضبًا... عتبًا... وفرحًا مخفيًا وسط سنابل القمح المحيطة بالمزرعة، يالَأسراب الطيور التي تمايلَت؛ لترسم غروبًا جديدًا يزهو بشروق خجول، وهذه الخيول التي لا تكفّ عن الصهيل سعيدة، كانت ملامح نور هادئة يعلو وجنتيها إحمرار بسيط،

وعيناهما كأنهما لؤلؤتان لم يرهما أحد من قبل، أما أحمد فكانت الجدية تتخلّل قسَمَات وجهه، يكاد يخفي معالم الفرح التي كانت تقفز برويّة وحُب، كانت نور ترقُب في نظرات القائد كل ألوان الزهور المزغردة بجمعهما، كأنها للَحظة نسيَت كل الحزن والغضب التي سكنتها منذ غادرت المعسكر، وللحظة لم يستطع أحمد أن يتقدم خطوة واحدة للأمام، فكم وقت مضى؟ نسيت نور نفسها، شعر أيمن أن أمرًا غريبًا يحدث، كان بنظرة يحيط نور والقائد وكأنه قد عرف كل شيء، خطوات مصطفى قرّبَت الجميع، ولَاقت بينهم حين تقدم وقال:

- وهل يكفيكِ أن ترتدي الأبيض لتكوني لؤلؤة هذه الحفلة يا آنستي؟

ابتسمَت بخجل وقرّبت خالها؛ لتعرّف الجميع ببعض، وما أن عرّفَت بالقائد حتى شعر خالها بجملة من المشاعر لم يعرف سببها، فتبادل الجميع التحيات والأخبار القصيرة السريعة، لم تعرف نور ماذا حدث فيما مرّ من وقت، ولم تلمح في أعين أحد تساؤلات حول لقائها مع القائد، كان القائد جديًا في تعامله، وقد قابلته نور بذلك رغم الغضب المتبادل بينهما، شعرَت أن هذه هي اللحظة المناسبة ليس للانتقام، بل لتعريف القائد بما مر عليها من عذاب؛ فنظرت إلى مصطفى مبتسمة وقالت:

- أين سامية يا مصطفى؟

علم القائد أن نور توجه حديثها إليه، لم يقل شيئًا، بل كان يوجّه عينيه للشمس التي كانت تغرب بهدوء فتزيدهما حدة وغضبًا، استغرب مصطفى من سؤال نور؛ فردّ عليه قائلًا:

- أنتِ تعرفين يا نور أن المجندين لا يحق لهم الخروج من المعسكر دون أجازة.

ضحكَت وردّت بعضًا من خصال شعرها المنسدلة إلى كتفيها، وقالت باستفزاز:

- أعرف، ولكن سامية في حماية القائد، ومَن كان في حماية القائد يحق له ما لا يحق لغيره.

ضحك مصطفى متجنبًا نظرات الغضب في عيني قائده، ثم قال:

- مدحٌ هذا أم ذمّ يا نور؟

كان كلام نور قاسيًا ولم يكن في محله، هذا ما شعرت به عندما وكزَها خالها لتصمت، فاستأذنت وتركت الجميع؛ لتسلم على العروسين تاركة القائد وراءها وقد فاض به الغيظ.

انتشر الجميع في العرس الذي كان أشبه بالشمس في برد الشتاء، يداري جماله ومحبة الناس له، وكانت السعادة تدور حول المدعوين... تتوقف... تزرع ابتسامة ثم تكمل دورتها، عرسٌ بسيط بعروسين جميلين يحملان السعادة الصغيرة ويتمنيان أن يلحق بهما وبسعادتهما كل الموجودين، مرّ الوقت سريعًا، لم تكن نور قد تحدّثَت إلى أحد باستثناء جدتها التي عرّفتها على خالها، كانت تود أن تمكث في المزرعة مع من تحب، إلا أن العرس انتهى ولا بد من العودة، لم تستطع أن تعود ثانية إلى أصدقائها فتودعهم؛ لأنها بالغت في قسوتها ولم تترك مجالًا للصلح.

كان الليل يخيم على الجميع، وكذلك على القطار الذي استقلته نور وخالها للعودة، نسمات الهواء كانت باردة رغم جمالها وهي تشعر بالحزن والغربة وكأنها لا تعرف نفسها، لم تستطع أن تداري تلك الدمعات التي أضاءها ضوء القطار فلوّنها بلونه، وكان هذا حال أيمن؛ صامتًا، ينظر إلى نور وإلى نافذة القطار، تنهدّت فحملت تنهيدتها الكثير من الحكايا، أشاح وجهه عن

النافذة قائلًا لها:

- لماذا تبكين؟

لم تستطع نور أن تسيطر على مشاعر الحزن ولا على صوت بكائها الذي تحول إلى أنين حزين، شعر أيمن بضعفها وبما تحسه من مشاعر؛ فقربها إليه وضمها بحنان، ثم قبّلها وقال:

- ما كان يجب عليكِ أن تخفي عني شيئًا.

كانت كل ما تتمناه في تلك اللحظات أن تسعفها الكلمات؛ فتنطق بكل ما في قلبها لمن تحب.

وصل أحمد إلى المعسكر بعد العاشرة ليلًا مع أصدقائه، دخل غرفته وما زال يذكر كيف جمع القدر بينه وبين نور دون سابق ترتيب، وما أن رأى ليث حتى ألقى عليه السلام وسأله عن حال المعسكر في غيابه، كان ليث ينظر إليه وقد شعر بأن هناك ما يخفيه أحمد من غضب، لم يقل شيئًا بل طمأن أحمد على حال المعسكر، وتوجه إلى المطبخ؛ ليحضر القهوة فيما كان أحمد يبدل ثيابه، كان صوت ليث بعيدًا وهو يتمتم سائلًا القائد:

- كيف كان العرس؟

أنهى أحمد تبديل ثيابه وتوجه إلى حيث ليث وجلس على مقعد بانتظار القهوة، كان التعب واضحًا عليه، إلا أن هذا لم يمنعه من الابتسام بسخرية قائلًا:

- جيد، هناك من يسلّم عليك.

- حقًا؟!

نظر ليث مستغربًا إلى أحمد وكأنه ينتظر منه الجواب.

- أجل، إنها صديقتك نور.

- وهل رأيتها؟

كان ليث ينظر إلى أحمد فيما كان سعيدًا مندهشًا ومتلهفًا لمعرفة ما حدث في العرس.

فيما كان أحمد يغمض عينيه مستسلمًا للهدوء وليس له رغبة في الحديث، إلا أن إلحاح ليث قد حرّكه قليلًا؛ فقال:

- إنها بخير، لم نتحدث معًا، لكن حسب ما رأيتها فهي جيدة.

- وكيف رأيتها يا أحمد؟

- خالها يحتضنها ومصطفى لا يكفّ عن التغزل بها، فيما كانت توجه كلامها المسموم إليّ.

ضحك ليث من كلام أحمد فيما اقترب منه؛ ليقدّم له القهوة قائلًا:

- وهل هذا ما يضايقك يا صديقي؟

تنهد أحمد بحزن، فيما كان لا يعرف أحد ما سيحصل حين يعلم الجميع بما سيفعله القائد، الذي أنهى الحديث عن نور بصمته وتلك النظرات التي وجهتها له حين الْتَقَيا فلم تدعه تنام.

دقّت الساعة الحادية عشر ليلًا ونور تحتضن فنجان القهوة الساخن، بينما يجلس خالها إلى جوارها وقد شعرت بالضيق يملأ أفقها، حاول أيمن أن يغيّر من جو الحزن الذي تسكن فيه، فقال:

- لهذا كنتِ تتجنبين الحديث عن القائد.

بدأت شفاه نور تتراقص حزنًا تارة ورغبة في البكاء تارة أخرى، إلا أن خالها وأسئلته التي حاصرتها لم تتركها ترتاح قليلًا، كانت ترغب في الشعور بالراحة ولو للحظات فقط، فودّعت فنجان القهوة على الطاولة، ومسحت تلك الدموع المسجونة في عينيها وقالت:

- ولماذا أتجنّب الحديث عنه؟

كان أيمن يعلم أن نور تخفي عنه الكثير من الحقيقة، فعدل جلسته وأسهم في نظره إليها قائلًا:

- من رآكما اليوم حين الْتقيتُما علِم وتأكد بأنكما عاشقان،

فقد نسيتُما أنفسكما وغرقتما في النظر إلى بعضكما وكأن كل واحد منكما يرى ملاكًا أمامه، ومما أثار استغرابي أنكِ انتقلتِ في لحظات من حالة الحب إلى حالة الغضب؛ فألقيتِ عليه كلامًا قاسيًا لا يُقال إلى قائد أبدًا.

ابتسمت نور واستسلمت في حديثها لخالها قائلة:

- أتعرف يا خالي ذاك الضوء الذي يبدأ به الكون؛ فيغير حياتنا ويحوّلنا من تلك الطفولة حيث تولد البراءة ولا يكون للأيام إلا طعم السعادة إلى مرامي الصبا والعشق؟ ذلك الضوء هو القائد... الذي جعل للكون ألوانًا كلها زاهية، رغم قسوته وحدته وصلابة تعامله إلا إنني بها متيمة... لها عاشقة، وكأن ليس ثمة مشاعر في الكون إلا هي، وحين خرجتُ من المعسكر كنتُ غاضبة... حزينة... أتمزّق، لم أستطع أن أتخيل الابتعاد عنه للحظة، وقد تعبتُ وما زِلت، وأعلم أنني لن أرتاح إلا بين يديه وأمام عينيه، لكني أخشى أن يعاكسنا هذا الضوء فيعمي أعيننا ويشعرنا بالندم لأننا ظننّا أنه هو النور الذي به نرسم لوحة اسمُها الحب.

كانت نور تتكلم بأسى وشوق، في كل كلمة كانت تكتم دمعة، وخالها ينظر إليها وقد شعر بأنها رغم حزنها إلا أنها سعيدة، ورغم بُعدِها عمن تحب إلا أن شوقها إليه أسعَفَها لقضاء ما تبقّى من أيام قبل عودتها إلى المعسكر.

كان الشحوب باديًا على وجه أحمد وهو يستلقي على سريره قبل الساعة الثامنة، ما كان هذا طبعه، فلم يكن يأوي إلى فراشه قبل الثانية عشر ليلًا، لم يقل شيئًا، بل أحب الاستغراق في النوم والراحة، لولا ليث الذي ساوره القلق فجلس إلى جانبه قائلًا:

- أحمد، هل انت مُرهَق؟

هز أحمد رأسه مو افقًا وقد كان الألم يسيطر عليه؛ مما أثار قلق ليث أكثر و أكثر، فقال:

- هل أُحضر لكَ الطبيب؟

ابتسم أحمد بألم وقبض على يد صديقه مطمئنًا له، وقال:

- لا يا صديقي؛ أنا بخير، أشعر ببعض الإرهاق فقط.

- دعني أُحضر لكَ الطبيب.

- لا داعي لذلك؛ فأنا أحتاج لبعض الراحة وسأكون بخير.

كان أحمد يكابر في مرضه، وهذا ما أحس به ليث الذي وقف مفكرًا فيما سيفعل، و اتجه إلى النافذة؛ ليداري بعض الأحزان التي سكنَت في عينيه على صديقه، مر وقت قصير قبل أن يرفع أحمد رأسه باتجاه ليث ويقول:

- ليث، أريد أن أقول لكَ شيئًا.

اتجه ليث مسرعًا إلى أحمد وجلس على سريره، ونظر إليه منتظرًا ما سيقول؛ فأكمل قائلًا:

ربما في الغد آخذ أجازة لأرتاح قليلًا، ولكن عِدْني بأن تثق بي حتى آخر لحظة.

كان كلام أحمد غريبًا لم يُسَرّ له ليث؛ فهذه أول مرة يتحدث فيها أحمد عن أجازة وعن ثقة وغير ذلك، لم يفهم شيئًا، إلا أن الاستغراب كان باديًا عليه تمامًا؛ حيث قال:

- أحمد، أنا لا أفهم شيئًا مما تقول.

- ليث يا صديقي، لا أريدك أن تغضب منّي مهما حدث.

- وما الذي سيحدث؟

أسهم أحمد في نظره وكأنه ينظر إلى شيء ما، ثم قال:

- ستعرف في الوقت المناسب.

أنهى أحمد بكلماته الحديث؛ حيث غطّى وجهه واستغرق في نوم عميق.

ملامح السعادة واضحة على نور؛ عيناها تتلألأن... وجهها كحمَام صيف أبيض، هذه هي نور التي عرفها خالها وهو يقف عند محطة القطار؛ لتوديعها في رحلة عودتها للمعسكر، كانت أيديهم متشابكة لم تفترق بعد حين اقترب منها أيمن وهمس لها قائلًا:

- بمَ تشعرين الآن؟

عضت نور على شفتيها بخجل وقالت:

- أشعر أن ليس ثمة من يسكن هذا العالم إلا من أحب.

- هكذا إذن؟!

ضحكت نور وداعبت خالها الذي تحبه كثيرًا وقالت:

- لا تغضب، ولكن هذا هو حال المحبّين.

هز أيمن رأسه مو افقًا، وقال:

- هذا صحيح، فقد خُلق الحب؛ ليكون درجة الحرارة الوحيدة في هذا العالم التي تنصهر عندها أقسى المشاعر وأعتى البشر، والحق يقال أن أحمد يستحق كل هذا الحب الذي يسكن عينيك.

تورّدت وجنتَا نور خجلًا بما قاله خالها، وقد نسيت أن القطار يهم بالمغادرة؛ فقفزَت إلى خالها وقبّلته متجهة إلى القطار، توقفت لحظات... نظرت اليه وقد تغيرت ملامح وجهها، ثم قالت:

- لم تأخُذْني إلى قبر صديقتي مُنى كما وعدتني.
- سآخذك في المرة القادمة.
- هذا وعد؟
- أجل يا حبيبتي.

تبادل الاثنان التحية الحارة و انطلقت لتجلس في القطار سعيدة، يساورها القلق في كيفية إرضاء القائد ثانية وكيفية التعامل مع سامية، التي لَامَها الجميع في تركها والهروب من مواجهتها، ولم تكن نور تعلم أية أخبار حزينة وسيئة بانتظارها.

وصلت بعد رحيل القائد، كانت عيناها تتر اقص فرحًا، أرادت قطفَ غيوم الصيف البيضاء وضمها؛ لتصنع منها إكليلًا ترمي به فرحها المتواصل، انتهَت الأجازة وها قد عادت وفي قلبها حكاية صغيرة تبدأ بالابتسامة وتنتهي بحنين متواصل للقائد... للمعسكر والجسر المهترئ العتيق، كل شيء كما كان؛ هدوء، حنين، وجمال، أسرعَت نور إلى سكنها واستمتعت بالحمَام الساخن، بدّلت ثيابها و انتظرت في لهفه عودة صديقاتها، كانت تحدّث نفسها عن ذهابها إلى القائد والاعتذار منه، إلا أنها أخّرت الفكرة قليلًا حتى تسلم على الجميع.

بدأت الفتيات بالعودة إلى المعسكر واستقبال نور بكثير من الحب والعتاب؛ فقد رحلت دون وداع أو حتى كلمة ليشعرن بحبها وصداقتها، فأمضت وقتها بالاعتذار وشرح سوء نفسيتها في ذاك الوقت، حتى انقشَعت غمامة العتب وحلّت بدلًا منها المحبة والصداقة، بدأت الفتيات بتحضير العشاء احتفاءً بعودة نور، فيما كانت الابتسامة لا تفارقها للحظة، كان الشوق يملؤها والحنين يصارعها لرؤية القائد والسلام عليه.

- مساء الخير.

أسكتت اعتدال بصوتها جميع الفتيات اللو اتي أنهين تحضير العشاء وتجمهرن حول نور، جميع الأنظار كانت تتجه إلى اعتدال وهي ترحب بنور وتدعوها إلى العشاء قائلة:

- وبمناسبة عودة حبيبتنا نور إلى المعسكر نتفضل جميعًا إلى تناول العشاء.

تذكرت نور ما ستقوله لاعتدال وهي تهم بتناول الطعام؛ فقالت:

- أعتقد يا اعتدال أن أسعد الناس هو الذي يتناول العشاء اللذيذ مع من يحب في صيف رائع.

أشارت اعتدال بيدها إلى نور أن تصمت، حيث قالت:

- اصمتي يا نور، لا تذكرّينا بتلك الجلسة التي كادت أن تودي بنا جميعًا.

ضحكت جميع الفتيات، فيما وقفت رُبا قائلة:

- دعيها تقول ما تشاء؛ فالقائد ليس هنا.

توقفت نور عن تناول الطعام، نظرت إلى رُبا باهتمام وقالت بسرعة:

- ماذا تعنين بأن القائد ليس هنا؟

لمحت اعتدال بعض الاستغراب والتأثر على وجه نور التي كانت ترغب فيمن يسعفها بسؤالها، فقالت:

- القائد أخذ أجازة لمدة شهر ابتدأت منذ الأمس.

وقعت الكلمات على نور كأنها سيوف حادة تمزق أعضاءها، شعرت برغبه في البكاء والصراخ، حاولَت أن تداري انفعالها بضحكة صفراء، ثم قالت:

- أجازة؟ ولمدة شهر؟ هذا كثير.

نظر الجميع باستغراب إلى نور؛ فهي قد أخذت شهرًا أجازة أيضًا، فلماذا تعترض على أجازة القائد؟! لم تكن إحداهن تعلم أن في نفس نور أشياء أخرى كثيرة لم تكشفها بعد، فبدأت الدموع تتحرك بعيني نور التي شكرت الجميع على الطعام اللذيذ، ونهضت لتستقر إلى مقعدها الدائم في الغرفة تاركة

لخيالها التفكير في كثير من الأشياء، كانت تود أن تسأل عن سامية وعمّ حصل بعد غيابها، وعن أخبار الجميع، إلا أن الأخبار عن القائد ومرضه وإرهاقه أصمتها ومنع عنها النوم تلك الليلة.

كانت الاستراحة صباحًا تضج بالجميع كالعادة؛ فلعلها هي المكان الذي يبقى على حاله رغم غياب أحبابه، تمامًا مثل الحياة التي لا تتغير برحيل أحبابها، لم تكن الدموع تقوى على الرحيل من عيني نور؛ لتفرّج ألمها وهي تعيش في المعسكر دون القائد، فمشاعر الندم والحزن كانت لا تفارقها أبدًا، برغم صوت الضحكات والضجيج من حولها، بدأت الراحه تتسلّل إلى قلبها حين رأت ليث وهو يدخل إلى الاستراحة، وقفت... اتجهت إليه بسرعة، وسلّمت عليه قائلة:

- كيف حالك يا صديقي؟

كانت نظرة الشوق والمحبة متبادلة بين الصديقين، نور وليث الذي مد يده مسلمًا عليها بحرارة وهو يلمح أطيافًا من الحزن في عينيها قائلًا:

- أهلا بنور المعسكر، كيف حالك يا صديقتي؟ لقد اشتقنا إليكِ كثيرًا.

ابتسمت... شعرت للحظة أنها تود البكاء بين يدي ليث الذي يذكّرها حضوره بمن تحب، خاصة أن مجد كان يرافقه، فلم يكن هناك معنى أو تعبيرًا لأي مشاعر دون وجود القائد، أيقنَت نور في تلك اللحظة أن القائد هو أجمل ما في هذه الدنيا، حاولَت أن تخفي شيئًا من أحزانها عن صديقيه؛ فقالت:

- كيف حال القائد؟

نظر ليث إلى عيني نور، رأى فيهما صورة القائد تتلألأ كأنها ينبوع ماء صاف، تأكد في تلك اللحظة أن ثمة عشق وحب يجمع بين الطرفين، إلا أن نهايته لا

يعرفها أحد، ابتسم ليث في تعبيره عن فرحته بما أحسّ من مشاعر، ثم قال:

- القائد بخير.

- لكني سمعتُ أنه مريض.

- لا أبدًا، كان بعض الإرهاق؛ فقد حدّثته بالأمس وهو بخير.

- هذا جيد.

هزت نور رأسها وعادت إلى صديقاتها في انتظار نهاية هذا الشهر الطويل المزعج، لم تحمل الأيام جديدًا في المعسكر، باستثناء سامية التي غابت عن المعسكر فجأة وقيل أنها لن تعود، بدا المعسكر وكأنه فارغ لا معنى فيه للحياة ولا وجود للحيوية فيه؛ فقد بدأ الصيف يعدّ عدته للرحيل وتسلل الشتاء القارص، أصبحَت نور قليلة الكلام... كثيرة الانشغال والتفكير، وهذا أصبح واضحًا عليها، فلم يكن ثمة ما يخالط مشاعرها وينقلها إلى البهجة والمحبة.

اليوم الخميس... حيث نور تسهر في غرفة اعتدال ولا يسكن في قلبها إلا الملل، تنهدت و ابتسمت ثم قالت:

- كم أكره قسوة الشتاء.

لاحظَت اعتدال أن نور لم تشكُو يومًا من قبل، فوجّهت نظرات غريبة إليها، ثم قالت:

- خاصة بغياب الأحباب.

فاجأَت هذه الكلمات نور، وكأنها نفضتها أو أيقظتها من غفلتها؛ فتداركت نفسها قائلة:

- ماذا تعنين؟

كانت ابتسامة الخبث واضحة على اعتدال، التي ضحكت وقالت:

- لا أبدًا، لا أعني شيئًا، لكن هذا الصيف كرهتُه لمَا حدث فيه من مشاكل، وخاصة وجود سامية في المعسكر.

أثار اسم سامية جملة من المشاعر المتناقضة في قلب نور، التي بدأت تتيه في خيالها وفي تذكر لحظات كانت تظن في حينها أنها حزينة مؤلمة، والآن هي تعتقد أنها أجمل الأيام، صوت اعتدال أعاد نور إلى وجدانها حين قالت:

- لقد عبثُ عليكِ هروبكِ من المعسكر وترك المجال لسامية يا صديقتي.

هزت نور رأسها وكأنها موافقة على ما قالته اعتدال، وقالت:

- أنا نادمة على ما فعلت، ولكنني كنتُ أقعُ تحت ضغط نفسي سيء.

- كان يجب عليكِ أن تكوني أكثر قوة؛ فالحق كان معكِ، ما كان ينبغي لكِ أن تهربي أبدًا.

انتهى ذلك اليوم ونور تُوقن تمامًا أنّ اعتدال كانت صائبة في كل ما قالت، وأن هذا اليوم ستغفو فيه نور وكلمات اعتدال تتردد في ذاكرتها.

صباح هذا اليوم هادئ؛ اليوم عطلة، وليس هناك ما يشجّع على القيام من الفراش؛ فالجدية والجمود تسيطران على الجميع، بعض الفتيات استيقَظنَ وتشجّعن للحركة رغم قرب الساعة الحادية عشر ظهرًا، والبعض الآخر ما زال مستغرقًا في نوم عميق، اقترب موعد الغداء وطرقات خفيفة على باب الغرفة، وكأن مشرفة السكن كانت تستعد لطلب فتاه ما، من هي؟ هذا ما عرفته لينا حين فتحَت الباب، فطلبت منها المشرفة أن تنادي عُلا؛ لترد على هاتف خاص، مما أيقظ جميع الفتيات وأخذن بتبادل أطراف الحديث.

مر وقت قصير، ومرت ساعة كاملة، لم تعُد عُلا بعد، بدأ القلق يسيطر على الفتيات؛ فلم يكن يُسمح لأي فتاة بالحديث أكثر من ربع ساعة إلا إذا كان الأمر طارئًا، فماذا حدث؟ عادت عُلا إلى غرفتها تر افقها اعتدال، لمحت الفتيات في العيون دموعًا صغيرة متناثرة، لم يكن غريبًا في المعسكر أن ترى الفتيات الحزن والدموع في عيون بعضهن بين الحين والآخر، ولكن علا لم تقل شيئًا، وكذلك اعتدال، فلم تفلح أي من الفتيات أن تغيّر من ملامحهن شيئًا... عينا اعتدال لم تفارق نور، وكذلك عُلا حين دخلت ورمقتها بسهام متتالية من الحزن لم تفهمها نور، بدأت الشكوك والخوف يحيط بنور ورُبا، وكذلك لينا؛ تقدّمْن بخطوات والْتفَفْن حول عُلا واعتدال، تنهدّت عُلا بحزن و اتجهت إلى حقيبتها الخاصة؛ فبدأت بتحضير أغراضها كأنها تهم بالمغادرة.

- ماذا هناك؟

قالت لينا وهي ترجوهما بعينيها للحديث.

لم يسمع أحد الجواب، عادت رُبا فكررت السؤال:

- اعتدال، هل من أمر حدث؟ أخبرينا؛ فقد قلقنا.

دون فائدة، كانت اعتدال وعُلا تتجنبان الحديث، صمتٌ مخيف ساد الغرفة، دموع عُلا بدأت تتسارع حتى كادت نور تفقد صوابها، ثلاثتُهن عيونهن معلقة باعتدال؛ لتقول شيئًا، إلا أنها أجهشت بالبكاء لأول مرة منذ دخولها المعسكر، كانت في هذه اللحظات قد أنهَت عُلا ترتيب حقيبتها، و انطلقت بسرعة دون أن تحدّث أحدًا أو تنظر إليه.

شعرت نور أن قدميها لم تعد تحملانها؛ فجلست ودقات قلبها تتراكض، فيما وقفت لينا بوجه اعتدال صارخة:

– قولي، ماذا حدث؟

تمالكت اعتدال نفسها ورأت أن لا مفر من قول الحقيقة؛ فمسحت دموعها وقالت:

– إن... إن... القائد غدًا سيتزوج من سامية.

كل شيء فيكَ يا وطني مستحيل حين تقسو علينا، كل شيء فيك باهت... حزين لا معنى له حين يسكنك الغرباء، من قال إن للوطن وجهًا واحدًا حين يبكي؟ أمَا رأيتم كيف تطير حمائمه عند نسائم الفجر؟ ها هو كل شيء فيه مضى... صوت البحر... زقزقة العصافير... لون الشفق وخضرة التلال، وحدكَ يا وطني من يمسح الجراح، فلا تتركني دون بكاء.

أسكنَت الصدمة كل من الغرفة، شعرت نور لوهلة أنها تلفّ أنحاء الدنيا؛ لتبحث عن نقطة شجاعة تواجه بها هذا الموقف العصيب فلم تجد، خذلتها قدماها فلم تستطع الوقوف، وخدعتها عيناها فلم تستطع البكاء، من أين لي بتلك القوة التي سأواجه بها هذا الحزن الأليم المتدفق بلا عودة؟ يا لهذه الذكريات التي لا تنتهي، رغم أن فصل الحب رحل، ورغم أن رائحة البرتقال في وطني نخبؤها في شجر السرو، نقود أرواحنا لندفن فيها كل حبنا وزماننا

الدافئ، ليس الحزن أن نفقد من نحب ولا أن تمضي بنا الأيام للحزن، همُّنا الوحيد أن نحمل حبنا بأيدينا ونرميه في أرض بلا أزهار أو فضاء.

نظرت لينا إلى نور، حاولت أن تزرع فيها الشجاعة أو القوة؛ لتسترجع أحلامها المفقودة، كان صوت لينا حزينًا... هامسًا... دافئًا، وهي تنادي صديقتها بحزن قائلة:

- نور.
- نعم؟

اختصرَت نور بكلمتها آلامها، كم هي شُجاعة حتى استطاعت أن تجمع كل قوة في هذه الأرض وتزرعها في نفسها؛ لترد على لينا، وقفت بعد عناء، كانت كل ملامح وجهها ترتجف بسرعة، حاولَت أن تُبقي بعضًا من ابتسامة حزينة، نظرت إلى الغرفة من حولها كأنها تراها لأول مرة، كم مرة علينا أن ننظر إلى الأشياء كي نراها بحقيقتها والحزن يسكننا؟! كيف يمكن للإنسان أن يكابد على آلامه التي أغرقها لون البحر.

تفرّقت الفتيات في لحظة واحدة، لم تكلم إحداهن الأخرى، كل شيء أصبح له لون آخر... طعم آخر، حتى الجسر العتيق كان حزينًا ونور تدوسه بغضب، كل أحزانها زرعَتْها هناك، كانت أوراق الشجر القديمة تداعبه بجفاء، ذاك الجسر المحيط بالمعسكر... كم مرة رأته نور ولم يرها؟! هل كانت تظن أنه هو وحده من بقي لها؛ لتزرع فيه حزنًا وألمًا؟ أين لي بقلب عاشق جديد يا وطني؟ وهَبتَني واحدًا فكسرته قسوة الأيام، إنها أنا... تلك الفتاة التي تحمل الحب لك، أنا هي، أتذكرُني؟! ألم تلمح نظرات الحب في عيني؟ فلماذا وهبتها لغيري؟ ما زلتُ أذكركِ يا صديقتي،كيف أنساكِ وقد علمتِني كيف نصنع الحب لحظة الألم، هل جفّت تلك الأزهار على قبرك؟ كم أتوقُ للرحيل إليكِ؛ لأزرع هناك

أزهارًا لا تموت، هبيني شجاعتك، امنحيني قلبكِ المشتعل بالدفء والحب، أعطيني جناحَيكِ لأطير بهما؛ فأرحل من هذه الدنيا التي ليست لها نهاية، توقفت نور؛ أوقفها الجسر العتيق، كان الغروب يخيّم على المعسكر وقلب نور الحزين، خطوات بسيطة كانت تفصلها عن السكن، وخطوات حزينه طويلة تبعدها عن القائد، ذاك الشاب الذي جاء كحلم ورحل كحب، كانت نسائم الصيف بوجوده كربيع أخضر، الشتاء دون قسوة، دون جفاء، لا حب إلا في عينيه، ولا شوق نابض إلا إليه، قد علمَت نور وهي تودع الغروب أن كل تلك اللحظات التي عاشتها قِبلًا كانت كشمعة أُوقدَت و أطفأتها برودة الشتاء، من الذي أعطى الحق للعشق في أن يعذبنا دون استئذان؟ يرسم خطوط حياتنا بأنامله ومزاجه ويترك لنا الحزن والآهات، ماذا عليّ أن أفعل لينتهي هذا الكابوس الذي يشلّ حركتي وينهي وجودي؟ لن أنتظر هنا لحظة، فما سمعته كان حلمًا، أجل... فمن رأى عيني القائد يوم العرس يوقن أن ما قالته اعتدال اليوم هو حلم، ملامحٌ بدأت تتراءى أمام نور وقد اختلطت عليها الدموع فلم تعد ترى شيئًا، نصف ساعة ويغلق السكن أبوابه، لا بد أن مشرفة السكن كانت في انتظارها.

تقدّمت نور يغلفها الحزن واليأس، تغطي الدموع وخيبتها، وتخفي ملامح الأسى وراءها، لم تكن نور تستطيع مسح الشحوب بيديها الهاربتين من برد الشتاء، تحركت شفتاها قليلًا وهي تدخل السكن وكأنها ترد السلام على المشرفة التي أوقفتها وبعض الارتباك يسيطر على أصابع يديها، تقدمت نحو نور وقالت:

– مساء الخير يا نور.

حركت نور رأسها وهي تحاول اصطناع ابتسامة على وجهها، وقالت:

– أهلا سيدتي.

- كنت... كنت أريد أن أقول لكِ شيئًا.

مسحت الدموع عن وجنتيها وتقدمت من المشرفة والقلق يرافقها، ثم قالت:

- خيرًا؟

- أبدًا، إنما اتصلت أمكِ مرارًا؛ لتخبركِ أن...

بدأ الزمن يضيق ليخنق نور وهي ترى الارتباك ينتقل إلى وجه المشرفة فيسكنه، لم تقل شيئًا، بل اقتربت بسرعة وهي تتوسل بعينيها المشرفة؛ لتقول لها ما تخفيه، عضت المشرفة على شفتيها وحركت خصال شعرها المتراكمة، ثم قالت بقوة:

- خالكِ أيمن في المستشفى إثر حادث سير، وهو في حاله حرجة.

شعرت نور في تلك اللحظة أن الدنيا لا تتوقف عن خضّها بقوة، وأن أحزان الدنيا تحولت إلى جبال تراكمت في عينيها، وماذا نصنع حين تتراكم علينا الأحزان؟ المستحيل... وكيف نصنعه؟ كيف نقابله وجهًا لوجه؟ كم خطوة بقيت؛ لينتهي هذا الكابوس؟ وكم لحظة مضَت وأنا أعيش كل هذه الأحزان؟ لم تستطع نور أن تعرف جوابًا لأي سؤال بعد أن فقدَت وعيها تمامًا.

ضوء الشمس وحده كان يتسلل إلى غرفة نور صباحًا في المستشفى، لم توقظها أصوات صديقاتها اللواتي يُحِطْن بها بحب وحزن، ولا أجهزة المستشفى التي تذكّر دومًا بضرورة الحياة، حتى دموع لينا التي كانت تنسال بحذر، مرت أيام ونور على هذا الحال لم تستفِق؛ فقد كان الضغط النفسي السيئ عليها أكبر مما تحتمل، لقد اشتاق الجميع لصوتها..لنظرة عينيها، وابتسامتها الجذابة، لو تستفيق... لو تنظر إلينا لحظة واحدة... لو نستطيع أن نمسح كل الأحزان في قلبها، هذا ما كان يرجوه الجميع وهم يتدفقون على نور يرجون شفاءها العاجل.

نقرت العصافير نافذة غرفة نور وهي تداعب خيوط شمس الشتاء صباحًا، كانت ستائر الغرفة تنصاع لأوامر نسمات الهواء التي كانت تحركها بلطف وكأنها تقبّل نور، ولينا تجلس مع ليث قرب نور على أمل أن تستيقظ، فتحت نور عينيها بألم ومشقة، بدأت تنظر حولها ولا يكاد الألم يفارقها.

- أين أنا؟

كانت كلماتها منهكة، باردة، متعبة وهي توجهها إلى لينا.

اقتربت لينا وليث مسرعين والفرحة تملأ وجهيهما؛ فقبّلت لينا وجه صديقتها ومسحت جبينها بحنان، ثم قالت:

- نور حبيبتي، أنتِ في المستشفى تعانين من بعض التعب، لا تقلقي.

لم تستطع نور أن تستوعب ما قالته لينا؛ فما زال التعب يسكنها، شحوب وجهها، جفناها المغمضان، حتى يدها التي لا تستطيع أن تنتقل إلى أي مكان، كل هذا أشعرها برغبةٍ في النوم مجددًا والاستسلام إلى المجهول.

حاولت لينا أن تبعد عينيها الباكيتين عن ليث الذي لاحظ حزنها؛ فقال هادئًا:

- لينا لا تقلقي، ستكون بخير، هذا ما أكده لي الطبيب.

هزّّت لينا رأسها مو افقة لكلام ليث الذي عاد قائلًا لها:

- إذن ما الذي تخفيه عيناكِ عني؟

- لا شيء.

كان صوت لينا هادئًا... متقطعًا... يتخلله الحزن؛ فقد حاولت كثيرًا أن تتجنّب الحديث حتى لا تُغضِب ليث، حيث كانت تعلم أن

الحديث عن صديقه أحمد سيغضبه، تنهد ليث و هو يرفع رأس لينا إليه، ثم قال:

- أعلم ماذا يسكن نفسك وأنا مثلكِ تمامًا، لا أجد مبررًا لما فعله أحمد، والمشكلة أنه منذ أخذ أجازته لم أعرف عنه شيئًا، ولم يتصل بي أو يعلمني شيئًا عن أخباره، أعرف فقط أنه سافر مع سامية منذ أيام.

كان كلام ليث يثير الحزن في نفس لينا، التي أومأت رأسها وقالت:

- هذا ظلم.

و افق ليث على ما قالته لينا، وهي تستهجِنُ في طيّ كلامها زواج أحمد من سامية التي لم يحبها أو يستلطفها أحد، وبرغم كل ما حدث فلا أحد يرغب بالحديث عن أي أمر إلا بعد استيقاظ نور وعودة القائد.

- نور، نور.

فتحت نور عينيها وهي تنظر إلى صديقتها اعتدال التي أحاطتها بحب وصدق والدموع تنعقد في عينيها، فقد بدأت تستردّ عافيتها ببطء بعد استغراقها وقتًا طويلًا في النوم الذي كان يؤكد مرضها وحاجتها إلى الراحة، نظرت نور إلى اعتدال، وكان هذا أول ما تفعله بعد أسبوع من الألم والمشقة، فقالت مبتسمة بهدوء:

- هذه أول مرة أرى الدموع في عينيكِ يا صديقتي.

كل شيء اندثَر، وكل حزن رحل، والجميع يرى نور تزدهي في فراشها وإشراقتها الجميلة، سعدَت اعتدال وهي تستمع لكلام نور؛ فمسحَت دموعها وهمست

بهدوء:

- وهذه أول مرة أشعر بأنني أحبك كل هذا الحب.

بدأت جميع الفتيات يلتفِفنَ كأزهار حول صديقتهن التي غابت طويلًا بوجدانها عنهن.

استطاعت نور أن تجلس بصعوبة؛ لترى الجميع، وكان همّ خالها وحزنها على القائد يقسم قلبها إلى نصفين، وهذا ما كان يقرأه الجميع في عينيها، ولم يجرؤ أحد على قول شيء؛ لكي لا تتعب نور مجددًا، إلا أن لينا التي كانت تحمل أخبارًا سارة اقتربت من نور قائلة:

- لقد اتصل ليث بخالك واطمأن عليه، هو بخير ويحتاج للبقاء في المستشفى أسبوعًا فقط.

تهلّل وجه نور بسعادة وفرح وقبّلت وجه لينا على أخبارها الجميلة، إلا أن ملامح الحزن لم تغادرها أبدًا.

ماكان يحزن نور وهي تقف أمام نافذتها أنها لم تعد تشعر بالسعادة أو المتعة وهي ترقب الصباح المتسلل مع قطرات المطر الخفيفة على التلال المحيطة بالمستشفى، أو أشجار السرو المحدقة بعنفوان وجمال، بدأت تتذكر كيف كانت مشاعرها تتحرك بسرعة لمجرد شروق الفجر أو سماعها زقزقة العصافير، وكأن الوقت بين هذه المشاعر دهرًا أو زمنًا حزينًا لا نهاية له، يد صغيرة امتدت إليها؛ ففاجأتها واستدعتها لتنظر خلفها مباشرة، طفلة صغيرة تبلغ العاشرة من عمرها، ملامح بريئة... شعر أسود قصير وعيون سوداء فاتنة، ويسكنها ما يسكن الأطفال من عفوية وبساطة، فقالت ويدها تشير إلى النافذة:

- هل تسمحين لي بالوقوف على نافذتِكِ أيتها الجميلة؟

ضحكت نور وهي تستمع لكلام الطفلة التي كان يظهر عليها أنها مريضة في المستشفى، و افقت نور على طلب الطفلة وحملتها لتجلسها على حافة النافذة، ثم سألتها بطفولة:

- هل أنت مريضة أم زائرة؟

حركت الطفلة رأسها وهي تنظر إلى الشتاء الذي يطير بجناحيه ليملأ الفضاء، وقالت:

- أنا مريضة هكذا.

فتحت الطفلة يدها الصغيرة وباعدت بين أصابعها في إشارة لرقم خمسة؛ مما أثار استغراب نور، فماذا تعني هذه الطفلة؟ التي أكملت قائلة:

- وغدًا سأكون مريضة هكذا.

ثم أشارت بأصابعها إلى أربعة، فهمت نور أن الطفلة تُقسّم مرضها إلى أجزاء، حدّقت أكثر بالطفلة التي شعرت أنها أكثر منها شجاعة وقوة، ثم قالت لها:

- وهل نستطيع تقسيم آلامنا وأحزاننا يا صديقتي؟

- أجل، ولماذا خلق الله لنا الطبيعة إذن؟

- لماذا؟

قالت نور وهي تنظر إلى صديقتها الصغيرة لعلها تجد عندها الجواب.

- حتى نقسّم عليها أحزاننا؛ فنعطي حزنًا للجبال، وحزنًا للشمس، وآخر للأزهار، وذاك لجمال الصيف، وهكذا كل جزء من الطبيعة يحمل جزءً من أحزاننا؛ فتمحوها مع مرور الأيام، لهذا نُهدي المريض الأزهار

الملونة ونسكنهم في مستشفى جميل رغم قسوته، هذا ما يقوله والدي دائمًا حين أتألم.

كلام الطفلة أيقظ نور من غفلتها وكأنها نسيت كلمة في قاموس الحياة اسمها (الأمل، وهذه الكلمة تسكن الطفلة وتحتويها وكأنها جزء منها، أين أنا؟! أين أخفي أحزاني؟ تحت حصى الجبال... وراء الكلمات... في ألوان الأزهار، أم في الدموع المتساقطة كهذا المطر الغزير؟ أي قوة يمكن أن أحتويها؛ لتعيد إليّ طعم الحياة مجددًا وتنسيني ألم العشق الساكن في قلبي والمترامي بين أطرافي، لماذا أيتها الأمطار لا تسعفيني فتنسيني كل أحزاني؟ لماذا عشقت؟ كان عليّ أن أعيش الحياة كما هي... بكل تفاصيلها إلا بعشقها، أغمضت نور عينيها بحزن وهي تودع قطرات المطر المتساقطة على نافذتها؛ لتسرح في حزنها المتزايد هامسة لذاك الهواء القوي الذي يغير ترتيب الأشياء ويجدد لها معانيها قائلة:

- هل يدرك أحد ماذا يعني أن تنسَى الشوق لمن تحب؟ هل يعلم أحد أيّ حزن يسكننا في تلك اللحظة التي لا يعني لنا فيها صباح العشاق شيئًا؟ أي ألم يتسلّل إلى قلوبنا ونحن نرقب الفجر يوقظ العاشقين فلا نكون منهم، عندها ننسى كل شيء؛ معاني الأشياء الجميلة، وطعم العشق القاسي، حتى رائحة التراب المبلل عند الصباح في الوطن.

أنهى الطبيب فحص نور ليشير بسعادة إلى تحسنها وتماثلها للشفاء؛ فكتب لها مغادرة للمستشفى على أن تلتزم بتعليماته التي وعدته لينا بمتابعتها، غادرت نور السرير وأطلقت يديها في الفضاء؛ لتستنشق هواءً نقيًا بعد خروجها المرتقب من المستشفى، وبدقائق أنهت لينا ترتيب ملابسها ودوائها في حقيبة خاصة استعدادًا للرحيل، كانت نور لا تفارق بعينيها تلك الأزهار الجميلة التي تحيط بسريرها، فحملتها وخرجت من غرفتها وسط ترقب لينا لها، مشَت خطوات إلى الغرفة المجاورة لها حيث تسكن تلك الطفلة الصغيرة، وقفت مبتسمة وهي تجلس على مقعد صغير أمام غرفتها، قبّلَتها وقدّمت لها الأزهار، ثم قالت:

– هذه الأزهار هدية لكِ؛ لتخفي أَلمَكِ خلفها.

كانت عيون الفتاة تتلألأ براءة وحبًا لنور التي أحاطتها بيديها الصغيرتين وقبّلتها، ثم قالت:

– وقُبْلَتي هذه حتى تخفي وراءها أحزانك، اتفقنا؟

هزت رأسها وفي عينيها دموع حزينة ضعيفة، ثم قالت:

– اتفقنا.

كأن لينا للحظة فهمت كل شيء وهي تقبض على يد نور؛ ليغادرا المستشفى بهدوء، صوت بعيد أوقفهما، نظرا بسرعة إلى الوراء حيث يقف مجد بجديته وهدوئه قائلًا:

- صباح الخير، كيف حالكِ يا نور؟

وجود مجد أثار القلق والأحزان في قلب نور، إلا أنها أخفت هذه المشاعر ورحّبَت بمجد، الذي اقترب أكثر قائلًا:

- غدًا أنتما مدعوتان مع باقي الفتيات في المعسكر لحضور حفل العشاء المقام على شرف نور في قاعة الاجتماع الكبرى، أرجو أن تكوني بخير يا نور؛ لتتمكني من الحضور.

نظرت نور ولينا إلى بعضهما باستغراب، عدّلت لينا من وقفتها و اقتربت من نور موجهة حديثها إلى مجد قائلة:

- ولكن ليث لم يخبرني بهذا الموضوع.
- أعرف، هذا الأمر من القيادة العليا.

خرجت نور ولينا من المستشفى بعد أن بلّغتا مجد برغبتهن في حضور الحفل، وما أن وصلتا السكن حتى تقاطرت جميع الفتيات على نور مهنئات لها وسعيدات بعودتها، الأزهار تملأ المكان، العشاء يتوزع على الطاولات احتفاءً بها، والضحكات تلف الجميع، كان ليث هو الرجل الوحيد كما تقول اعتدال، وقد كان وجوده يزين الجلسة ويخفّف عن نور ألمها بابتسامته الجميلة وحضوره الهادئ، بدأت نور تحدّق في كل شيء؛ الأزهار، الفتيات، العشاء، السكن، ورغبة في البكاء والصراخ كانت تملؤها، عبّرت عنها بدموع تدحرجت لتمسحها بكف يدها وتعتذر للجميع أنها دموع فرح وسعادة.

اقترب ليث من نور وقد قرأ في عينيها كل ما في قلبها، ثم قال:

- السكن مزدهر بكِ يا صديقتي.

ابتسمت نور وقالت:

- وبك يا صديقي.
- بالتأكيد أن كل واحد منا يريد أن يقول لكِ شيئًا، أما أنا فأريد أن أبلغكِ بأنني أخذت أجازة لكِ بعد ثلاثة أيام؛ لتطمئني على خالك، وستمكثين في القرية لمدة يومين.

سعدت نور بالخبر وشكرت ليث على لطفه ووقوفه إلى جانبها في محنتها، وقد كانا يعلمان أنهما يخفيان عن بعضهما الحقيقة التي لم تكن نور أيقنت بعد أن الجميع يعرفها.

- كانت حفلة جميلة، لا اعرف كيف أشكركن.

قالت نور عبارتها وهي تعبث بأشياءها الصغيرة مستعدة للنوم، إلا أن اعتدال رفعت عنها الغطاء وقالت:

- أنتِ بخير الآن، وقد علمتِ كم نحن نحبك؛ فلا داعي للتدلّل ثانية يا صديقتي، فأنا لا أحب أن أراكِ ضعيفة.

تنهدّت نور بحزن وقالت:

- ليتني ضعيفة فقط؛ فأنا مقهورة، تائهة، لا قيمة للأشياء عندي، أشعر أن الكون كله متراكم في قلبي وقلبي ميت.

نظرت اعتدال إليها ولم تقل شيئًا؛ حتى لا تثير أحزان صديقتها مجددًا، لكنها تأكدت من أن كل ما تشعر به هو صواب وحقيقة.

بدأت الأفواج الجميلة من الفتيات تتوالى، جميعُهنّ لبّيْن الدعوة للحضور، كانت الابتسامات تعلو والضحكات تتعالى فيما كانت الساعة الثامنة مساءً، وصل ليث ومجد، فيما كانت نور تتوسط صديقاتها كشمس تتوسط سماء صيف جميل، لم تغادر عيناها ذاك المقعد الذي يجلس عليه القائد دومًا، حاولَت أن تطرد كل الذكريات التي بدأت تهاجمها؛ لتهدأ من جديد.

قطع صوت اعتدال الكلمات المتناثرة بين الجميع حين قالت:

- عندي سؤال مهم.

- خيرًا يا اعتدال؟

ردت لينا بشيء من اللامبالاة، عدَلت اعتدال جلستها وأشارت إلى الطعام الذي يحتل الغرفة الثانية، وقالت:

- هل سنحضر الاجتماع أولًا، أم نتناول العشاء؟

أثار سؤال اعتدال ضحك الفتيات، فيما أكملت قائلة:

- يجب أن تعترضي يا نور؛ فأنتِ صاحبة القرار كون هذا العشاء باسمك.

نظرت نور بحب إلى اعتدال، وقالت مداعبة:

- أخشى ألا تأكلي شيئًا من هذا الطعام يا صديقتي.

ضحكت لينا ورُبا بصوت مرتفع وهنّ يتخيلن موقف اعتدال حين تحرم وحدها من تناول العشاء، فما كان منها إلا أن وقفت معترضة، وقالت:

- ما دام ليث قائد المعسكر فكل شيء بخير.

لم ترغب نور حين ذُكر القائد أن تستسلم للألم والحزن، بل ابتسمت موافقة على ما قالته اعتدال مما أغضب لينا، حيث اعترضت قائلة:

- مهلًا مهلًا، لا تتغزّلْن بخطيبي؛ فأنا موجودة هنا.

أوقفت اعتدال بيدها الكلام وعيناها تحدقان بالباب قائلة والدهشة تسيطر عليها:

- مهلًا... انظرن من جاء.

توجهت كل العيون إلى من حضر... إنه القائد أحمد الذي أسكت بحضوره الجميع حين قال بابتسامة جذابة وصوت هاديء:

- مساء الخير.

زُرعت الدهشة والاستغراب في ملامح الوجوه، وقف الجميع تحيطهم الدهشة يحيون قائدهم الذي جاء في غفلة، كيف جاء؟! هل قَطَع سفره؟! مالذي حدث؟! كل هذه الأسئلة لم يجد لها أحد جوابًا حتى في عيني نور التي لم تغمضهما؛ لفرط دهشتها، كانت دقات قلبها تتسارع كلما اقترب القائد ليجلس في مكانه، كتمت دموعها وأشاحت بوجهها عنه حتى لا تثير بركان المشاعر في قلبها مجددًا، فهي لا تريد أن تعرف شيئًا، تريد فقط أن ينتهي هذا الاجتماع الذي ضاقت به، أشار القائد للجميع بالجلوس بعد أن عانق ليث بحرارة وشوق كبيرين، كانت ابتسامته ساحرة... أحبها الجميع واشتاق لها وتملؤهم اللهفة لقائدهم، بدأت الملامح بين الجميع تتغير من الدهشة إلى الراحة والحب، إلا نور التي امتدّت إليها يد لينا للتشابك مع يدها المرتجفة رغم

محاولتها بأن تتصنع اللامبالاة، لم تعرف نور كم من الصفوف تفصلها عن القائد؛ فالدموع التي ملأت عينيها لم تجعلها قادرة على إخفاء مشاعرها التي واجهتها للمرة الأولى أمام صديقاتها.

صوت القائد كان هادئًا، ومع كل حرف ينطقه كان الصمت يزداد والعيون تتسع لرؤياه، عدّل جلسته وبادل الكثير من مجنديه الابتسام والتحيات، ثم صمت الجميع ليقول:

– بداية... أشكر لكم استقبالكم الحافل، وأحييكم جميعًا وأحيي فيكم حفظكم لغيابي ومثابرتكم على أعمالكم دون تقصير.

كانت عيون القائد تنتقل بين الجميع، إلا أن الليل بعتمته كان يسيطر على المكان، حاولت نور ألا تظهر أبدًا؛ فالقاعة رغم اتساعها كانت ضيقة، وهواء الشتاء البارد كان نيرانًا مشتعلة في قلبها، أغمضَت عينيها؛ لتهرب من كل ما يحيطها من مشاعر، إلا أن صوت القائد كان يتخلل إلى مسامعها وأجزاء جسدها؛ لتزيدها إرباكًا واضطرابًا وهو يكمل كلامه قائلًا:

– ثمة يا أصدقائي لحظات في حياتنا تغير الكثير من مواقفنا، بل قد تغير مجرى حياتنا كلها، ربما نضحّي بسببها أو نخسر أحبابًا، وخاصة إذا كانت هذه اللحظات أقوى منا.

شعر الجميع أن القائد يبرر زواجه من سامية الذي كان برأيهم أمرًا سيئًا، إلا أنه لم يجرؤ أحدٌ على قول ذلك -خاصة بعد أن أصبحت زوجة للقائد-، كانت نور تتمنى في تلك اللحظات أن تغلق أذنيها أو تختفي عن وجه الارض؛ حتى لا تبقى في هذا الموقف العصيب.

استقرت عيون القائد أخيرًا على نور بعد أن وجدها بصعوبة، بدأ يشعر أن ليس أمامه سواها، بينما كانت عيناها مغمضتين ورأسها متوجه إلى المقعد

الذي أمامها مباشرة، أزال القائد بتقدمه خطوة إلى الأمام من مقعده بعضًا من ارتباكه، وقال:

- الحب والصداقة يا أحبتي أجمل ما في الكون إذا اجتمعا، وهما الاسوأ إذا قررنا للحظة أن نختار بين أحد منهما؛ فأنا أعرف تمامًا أنكم جميعًا دون استثناء ضِقتم ذرعًا بزواجي من سامية، وأنا هنا اليوم؛ لأبرر لكم السبب، ليس دفاعًا عن نفسي، بل لأنكم لا ترغبون بهذا الزواج.

قبضت نور بشدة على مقعدها ومشاعر مختلطة من الغيرة والغضب تملؤها بعد أن سمعت القائد يتحدث عن سامية بهذا الهدوء، بدأت ملامح الارتباك تظهر على القائد الذي مسح بيديه قطرات العرق المتصببة على جبينه رغم برودة الشتاء، تنهد بهدوء وقد كان يعلم أثر ماسيقوله، ثم قال:

- كان لي صديق أحمل له الكثير من الفضائل والحب، عشق وأحب وتزوج ممن يريد، شاءت الظروف لمبادئه ومواقفه أن تفرق الحياة بينهما؛ فطُرد خارج البلاد وبقيَت هي في بلادها، ومرّ الزمن... فرِح أهلها بغياب زوجها، وحزنت هي لفراقه؛ فزادها البعد حزنًا تحوّل إلى عداوة وبغض وكراهية رغم أنها كانت إنسانة رقيقة... هادئة... لطيفة، وتم طلاقها من زوجها الذي تحبه ولا تحسن العيش دونه، هذه الشابة هي سامية التي ما أن الْتقَيت بها حتى رغبت في أن أرد لصديقي شيئًا من فضله عليّ؛ فقررت أن أتزوجها وأرحل بها إلى حيث زوجها بعد أن عاهدت صديقي بكتمان الحقيقة إلا عن نفسي، وما أن الْتَقَينا حتى فسخت عقد الزواج بيننا؛ لتعود إلى زوجها الأول، وأعود أنا إليكم بعد أن تمنيتُ لهما السعادة الأبدية.

صمت القائد ومن حوله صمت الجميع؛ المفاجأة كانت كبيرة، لم يستطع أحد استيعابها..، نور كانت تشعر بأنها ستفقد وعيها لولا يد لينا التي كانت تشد عليها؛ لتقوّي من عزيمتها إزاء هذه الصدمة الهائلة.

وقف القائد فجأة، وقال بصوت عالٍ وفرح:

- سامية تعتذر لكم على ما سببته من إزعاج، وتقول لكم إن هذا ليس حالها ولاطباعها، وطلبت منّي أن أبلغكم بحبها لكم وشكرها على لطفكم وتحملكم لها، أما أنا فأحبكم كثيرًا و أفخر بكم، وأحبكم جميعًا دون استثناء، وأزدان اليوم بكم أكثر من أي وقت مضى.

أنهى القائد حديثه، وفي لحظة وقف الجميع يصفقون له بحرارة تحية له على نبل أخلاقه وحسن فعله، ووحدها نور التي كانت تجلس تقلب نظرها بين الجميع؛ لتجهش بالبكاء العميق وهي تغادر القاعة دون أن تنظر خلفها.

كان المطر يتساقط بهدوء وأضواء المعسكر تنعكس على الطريق المبلّل؛ ليعطي شعورًا بالأرق ونهاية المكان، أين رسَت الأحلام أخيرًا؟ على قلب نور الضعيف الحزين الذي لم يقوَ على العشق وعذابه؛ فبكى وبكاؤه كان صارخًا ممتزجًا بالأسى، وصلت نور إلى غرفتها أخيرًا بعد أن شعرت بأن سنوات باعدتها عن الفرحِ وزرعتها في الألم والحزن، ثم استلقَت على فراشها لتزرع فيه دموعها وأسى حزين، ليتها لم تعرف شيئًا، لو لم تسمع أية كلمة قالها القائد؛ فعليها الآن أن تُحيِي الحب مجددًا في نفسها بعد أن دفنته إلى الأبد، وما أدراها لربما أن القائد نفسه لا يحبها بدءًا، فماذا تفعل؟ كان الجواب الوحيد لكل الأسئلة هو الاستسلام لنوم عميق؛ فلعل هذا اليوم ينتهي بطوله ومرارته.

بدأت رائحة القهوة تتسرب إلى فراش نور؛ لتفلح أخيرًا في إيقاظها، فتحت نور عينيها لترى لينا قد أعدتها والسعادة تملأ محياها؛ فألقت التحية قائلة:

- صباح الخيريا عزيزتي.

- صباح النور.

ردت نور التحية بقليل من الملل والغفلة، ثم أكملت قائلة:

- كم الساعة الآن؟

- العاشرة صباحًا، ألا تريدين أن تستيقظي؟

حاولت لينا أن تجذب نور للحديث دون فائدة، حتى أنها لم تبدِ رغبتها في تناول

فنجان القهوة؛ فغطت نفسها مجددًا لولا يد لينا التي رفعت الغطاء بمرح، وقالت:

- أين ذهبتِ بالأمس؟ كانت ليلة رائعة، احتفلنا وتناولنا طعام العشاء، ضحكنا؛ فكانت ليلة ولا أحلى.

- جيد.

ردت نور وملامح وجهها لم تتغير أبدًا، فيما كانت لينا تحاول استفزازها قائلة:

- ما هو الجيد؟

- اجتماعكم معًا.

- فقط؟

لم تجب نور، كانت تفتح عينيها لحظة وتغلقها لحظات، ولينا سعيدة برغم معرفتها بما يدور في قلب نور من حزن وفرح، تنهدت نور بشيء من الهدوء قائلة:

- لينا من فضلك، دعيني أنام؛ فأنا متعبة وبعد غد سأعود إلى قريتي، أحتاج إلى الراحة قليلًا.

- أما نحن فسنقضي اليومين القادمين في المزرعة كما أمر القائد.

- جيد.

أغمضت نور عينيها وهي تلمح بخار القهوة الممتد بغضب كقلبها الحزين؛ لعلها تنهي الحديث مع لينا التي لم تصمت، وعلقت قائلة:

- وما هو الجيد؟

نظرت نور إلى لينا بحدة وهي تشعر بأنها أصبحت قالبًا من الثلج لا يدرك ولا يشعر، ثم قالت:

- كفّي عن استفزازي يا لينا أرجوكِ، و اتركيني لأنام.

- أنا فحور بكَ يا صديقي.

كانت هذه كلمات ليث الموجّهة إلى أحمد فيما كان يحضّر طعام الإفطار، ابتسم أحمد و اقترب من ليث في محاولة لمساعدته قليلًا وهو يقول:

- شكرًا لكَ يا صديقي.

- رغم أنني كنت غاضبًا منكَ وعاتبًا عليك.

- لقد طلبتُ منكَ أن تثق بي حتى آخر لحظة.

- هذا صحيح، لكن الأمر كان صعبًا.

جلس أحمد إلى المائدة يقابله ليث، وكان الهدوء يسيطر على حديثهما، فيما كان ليث يشعر بالحزن المسيطر على صديقه والذي يخفيه وراء هدوئه المصطنع، تنهدّ ليث وهو يمد يده؛ لتتناول كأس الشاي، ثم قال:

- أحمد، مالذي يزعجك؟

رفع أحمد نظره إلى ليث و ابتسم بسخرية، ثم قال:

- لا شيء.

- يجب أن تكون فخورًا بما فعلت، لا حزينًا.

لم يقل أحمد شيئًا، بل كان يفكر كيف يمكن أن يتجاوز آثار هذه المشكلة مع من يحب، ولولا رغبته في إنهاء الحديث مع ليث لما عاد للكلام ثانية، وقال:

- هذا بالنسبة إليك، أما لغيرك فالأمر مختلف.

مضغ ليث بعض اللقيمات وهو يقرأ بعيني صديقه كل حب، فرد عليه قائلًا:

- ومن هم غيري؟

- لا أحد، انسَ الموضوع.

ابتسم ليث وهو ينظر إلى صديقه المنهك من الحب، أراد أن يخفف عنه ما يعانيه؛ فقال مداعبًا:

- غيري -وهم الذين تبدأ أسماؤهم بحرف النون- إن كان ظاهرهم غاضب فباطنهم سعيد، يحتاجون لقليل من الدلال وإظهار الحب؛ فتنتهي المشكلة تمامًا.

ضحك أحمد بصوت عالٍ وهو يستمع لكلام صديقه الذي غيّر مجرى أحداث اليوم تمامًا.

بدأ الغروب يلقي بظلاله على المعسكر، فيما كان يجتمع الجميع؛ للتخلص من برودة الشتاء القاسية، وللترحيب بعُلا بعد عودتها ثانية إلى المعسكر، كل المحاولات لإيقاظ نور من النوم كانت فاشلة، باستثناء اعتدال التي رفعت عنها الغطاء وأمطرتها بقطرات ماء حتى استيقظت، كانت نور تهرب من مواجهة ما حدث، وأخيرًا أفاقت وتوجّهت بخطى ثقيلة إلى حيث صديقاتها بعد أن استقبلت عُلا بحرارة وحب، كان الكثير من المشاعر المختلطة تسكن قلبها؛ ضيق وفرح وغرور وأسى، لا تعرف بدايتها ولا نهايتها؛ لذا وجدت أن الحل لا يكون إلا باللجوء إلى النوم المتواصل، بدأت اعتدال ترتب مقعدها؛ لتجلس عليه وهي تنظر إلى نور نظرات خفية وكأنها تعلم مايدور في نفسها، جلست بمرح وقالت:

- نور، بالأمس أخبرتُ القائد أنكِ كنتِ تنوين حرماني من العشاء فحُرمتِ أنتِ منه جزاءً لك، ضحك القائد ولم يقل شيئًا، ترى لماذا تعتقدين أنه فعل ذلك؟

كان سؤال اعتدال غريبًا ويحمل مغزى كبير وصل إلى نور بسرعة بعد أن احمرّت وجنتاها، وبدأ الارتباك يحتل تقاسيم وجهها، تنهدت بعمق وقالت بهدوء:

- لا أعرف، اسأليه هو.

كان الجميع ينظر إلى نور وكأنهم ينتظرون أن تقول شيئًا دون جدوى، لكن اعتدال لم تستسلم؛ فقالت مجددًا:

- أنصحكِ ياعزيزتي أن تقولي قبل أن تأتي لحظة تنفجرين فيها.

لم تقل نور شيئًا، بل حدقت في عيون الفتيات لتنتابها لحظة خجل قاسمها إياها أحمد وهو يجلس بين رفاقه وهم يتحدثون عما كان من أمر زواجه من سامية، حين سأله مصطفى قائلًا:

- ما هو أصعب شيء واجهتَه في هذه المغامرة يا سيدي؟

لم يكن الأمر يحتاج إلى التفكير حين أجاب أحمد قائلًا:

- كنت أخشى من حدوث أمر لم يكن في الحسبان؛ فتسير الأمور على غير المتوقع.

وجه مصطفى نظرات شك إلى أحمد الذي فهمها بسرعة؛ فقال:

- ماذا تعني بنظراتِكَ هذه؟

ضحك مصطفى ولم يقل شيئًا، إلا أن إلحاح القائد دفعه للقول:

- في الحقيقة أظن أنك كنت تخشى شيئًا آخر.

- وما هو هذا الشيء؟

عدّل مصطفى جلسته وحرك أنامله في شعره، ثم قال:

- اسأل قطعة السكر.

فهم الجميع أن مصطفى كان يعني خوف أحمد من فقدان حبيبته، لكن ليث الذي أراد رفع الحرج عن صديقه غيّر الموضوع مباشرة، وقال:

- قل لي يا أحمد، بأي صفة أدخلت سامية إلى المعسكر؟

تنهد أحمد وكان ما زال يفكر فيما قاله مصطفى، ثم رد على صديقه قائلًا:

- دخول مؤقت لبيان قدرتها على خوض تجربة المعسكر، وإذا ثبت فشلها أرفع أمرها لرفضها من المعسكر، وهذا ما حدث.

مغايرًا للأمس، أفاقت نور مبكرًا فأبعدت بأناملها الهادئة ستائر الغرفة، و ابتسمت وهي تنظر إلى جسرها الساكن وشمس الشتاء الخجولة التي تظهر بين حين وأخر، كان الجو هادئًا، رغبَت نور أن تبادل جسرها تحية الصباح الجميل؛ فهمست له:

- يا صديقي، كم أتوق إلى أن أزرع في قلبك أزهارًا؛ زهرة لصديقتي مُنى، وزهرة لأمي التي أتوق إلى أن أُلقي نفسي في حضنها الدافئ بلا حدود، ولخالي الحبيب الذي سيزيّن صباحي غدًا، وأجمل الأزهار لوطني الذي يشرق فيه أجمل فجر، حيث رائحة ترابه تسكن أجسادنا... توقظنا من غفلتنا وتهمس لنا أنني أحبكم حتى و أنتم في حضن التراب.

نظرت نور إلى الساعة وتذكرت موعدها مع اعتدال؛ حيث ستشربان قهوة الصباح في الاستراحة، لَمْلَمَت خطواتها وذكرياتها؛ لتجهز نفسها رغم شعورها بالكسل.

من السكن إلى الاستراحة كل شيء كان هادئًا، حتى قطرات المطر التي لم تبلل الأرض بعد، خطوات ليست بالبعيدة وكانت نور في الاستراحة... دقائق وستأتي اعتدال، لم يثنِ هذا نور على أن تضم بين يديها فنجان القهوة؛ ليشعرها بالدفء، ولتغمض عينيها في بحث عن لحظة قد تسبب لها السعادة، ها قد حضرت اعتدال أخيرًا، جيد أن نور لم تحتس القهوة بعد؛ فقد سمعت صوت المقعد الذي أمامها مباشرة يتحرك، فتحت عينيها وإذ بالقائد، شعرت في تلك اللحظة التي الْتقَت عيناها بعينيه أن أسرابا من الطيور قد غادرت

قلبها؛ لتطير في الفضاء؛ فأطبقت بإحكام على فنجان القهوة لتفرغ فيه ما حواه قلبها من مشاعر غضب وشوق ونسيان، وبدأت قطرات العرق تتصبب منها خجلًا وارتباكًا.

- صباح الخير.

كان صوت القائد هادئًا، يحمل الشوق والعتاب والحب؛ فعيناه لم تفارقا نور التي لم ترغب برد التحية، وعيناها لم تفارقا النظر إلى الطاولة التي تفصل بينهما؛ فقال مجددًا:

- كأنكِ اعتدتِ على عدم الترحيب بضيوفك، تمامًا كما اعتدتِ على ترك المعسكر دون إذن.

لمعَت عينا القائد وهو ينظر إلى نور باهتمام، فيما كانت تحاول أن تواجهه ومشاعر الغضب والحرج تنافس دقات قلبها، لم تسعفها إلا بضع كلمات خرجت من فمها سريعة وبانفعال حيث قالت:

- أنا لم أخرج من المعسكر دون إذن.

- حقا؟!

شعرت نور أن القائد بدأ يهزأ منها، وأنه جاء ليحاكمها على خروجها من المعسكر دون معرفته، فما كان أمامها إلا الدفاع عن نفسها، ربطت جأشها وتحدثت بقوة قائلة:

- لقد استأذنت من القيادة العامة.

- وأنا؟!

كانت نظرات القائد عميقة وهي تتوجه إلى نور التي لم تعد قادرة على القبض بأناملها على فنجان القهوة الساكن أمامها، ماذا ستقول؟ صمتَت حتى كفاها القائد عناء الحديث، فابتسم ابتسامة خفية وقال بهدوء:

- أنا لستُ هنا لأحاسبك؛ فقد انتهى ذاك الموضوع، أنا هنا لأخبركِ أنه من الصعب على المرء تناول فنجان القهوة وحده، أليس كذلك؟

لم تتمالك نور نفسها وهي ترى القائد يحاول استفزازها ويتكلم بما لاتريد، كانت تنظر إليه وترغب في الصراخ بوجهه وتوجيه كلمات السخط عليه وعلى سامية، تنهدت بعمق وجالت ببصرها أطراف الاستراحة بحثًا عن نقطة شجاعة تهرب بها من هذا السجن الذي يحيطها، فقالت:

- أهذا ما جئت من أجله؟

- مهلًا، أنا لم أكمل كلامي بعد، فقد جئتُ كي أعتذر لكِ.

- عن ماذا؟ عن سجني؟ أم على إجباركَ لي بالاعتذار لسامية؟

شعر القائد لوهلة أن نور فقدَت السيطرة على نفسها ومشاعرها، فقد بدأت تلوح في انفعالاتها ألوانا من الغضب، صمت لبرهة وابتسم في محاولة لتهدئة التوتر السائد بينهما، ثم قال:

- نور، أرجوكِ لا تنفعلي؛ حتى لا تتدهور صحتك من جديد.

- وهل سألتَ عني في المرة الأولى حتى تسأل في الثانية؟

بدأ الحديث ينحَى مُنحنى جديدًا يشوبه العتب والاتهامات المتبادلة بين الطرفين، وقد كانت ملامح القائد تتغير تدريجيًا وهو يرى الدموع تنذرف من عيني نور بسخاء وحزن؛ فقال لها مهدئًا:

- كنتُ كل يوم أسأل مجد عنكِ، وأسأل طبيبكِ الخاص للاطمئنان عليكِ، صدقيني.
- ما كان يجب عليكَ أن تزعج نفسك في السؤال عني و أنت في شهر العسل يا سيدي.

ساد الصمت للحظات، كانت كلمات نور قاسية؛ فقد بدأت أنامل القائد تنقر الطاولة غضبًا وحزنًا، فيما كانت نور تصارع دموعها وتشد على قبضتها وكأنها تتذكر ما قالته لها اعتدال عن اللحظة التي ستنفجر فيها، كانت تشعر أن الهواء الذي يفصل بينهما سيتحول إلى زجاج متناثر يؤذيهما؛ فحاولت أن تهدئ نفسها قليلًا، فيما كان القائد يغزو شعره بأنامله المضطربة الغاضبة، هدأ الزمن قليلًا بينهما بعد مرور دقائق طويلة لم يحدث فيها شيء، ثم قال القائد:

- أنتِ تعرفين مالذي حدث يا نور، فليس من حقكِ أن توجهي لي هذا الكلام.
- مالذي حدث؟ أهنتَني وجرحتني في سبيل إرضاء عزيزتك سامية.

أعلنت نور غضبها وصراخها المتواصل الممزوج بالبكاء الحار، لم يستطع القائد أن يفعل شيئًا؛ فقد كان يتوقع أن يحدث كل هذا؛ لأن نور تعرّضَت لضغط نفسي صعب، لم تكن تستطيع أن تواجهه بشجاعة دون وجود من تحب إلى جانبها، فكم مرة كتم القائد غضبه؛ ليستوعب غضبها المتدفق عليه والذي لا سبيل إلى كتمانه أو اندثاره، ومرة أخرى أعاد القائد كرسيه خطوة إلى الوراء، و ابتسم أمام وجه نور المليء بالدموع والمحتقن بالغيرة كما كان يلمحها تمامًا في عينيها، ثم قال:

- أنا لم أهنِك ولم أجرحك، لكن ظرف سامية كان يحتّم عليّ أن أتعامل معها بحذر وشفافية.

- ولكن ليس على حسابي.
- لا ليس على حسابك، فأنتما مختلفتان تمامًا عن بعضكما، هي أمانة في عنقي، كان لابد أن أوصلها إلى صاحبها مهما كلفني الأمر.
- و أنا؟!
- أنتِ حبيبتي.

مهلًا... مالذي غير هذا العالم فجأة وجعله بلا ملامح ولا زمن ولا تاريخ، لم تستطع نور أن تتذكر شيئًا، لاالبداية ولاالنهاية، كيف يمكن لأي قاموس أن يصنع لها كلامًا يسعفها في هذه اللحظات، ماذا ستقول؟ وكيف ستواجه هذا الحب المتدفق عليها؟

أشاحت للحظة وجهها عن القائد الذي كانت تسكنه الرقة في شفافية واضحة، فيما كانت هي تغرق ببكاء عمره زمن دخولها إلى المعسكر، قد شعرت أنها فقدَت حواسها كاملة... أنها ترتعش بضعف؛ فلا تستطيع مواجهة القائد أو النظر إليه، كانت الغيرة ما زالت تملؤها والغضب يصارعها، ففاجأها صوت القائد قائلًا:

- نور.

هز اسم نور يديها المرتعشتين؛ فانسكبت القهوة بهدوء لتفرغ بعض الأحزان المتراكمة في قلبها، كان صوت القائد رقيقًا... له لون لم تعرفه من قبل، إلا أنها لم تستطع تفادي الدموع الغزيرة من عينيها والقائد يهمس لها:

- كيف لي أن أرضيكِ يا عزيزتي؟

وقفت نور أخيرًا ووقفت معها كل الذكريات والآلام، نظرت إلى القائد، وقبل أن

تخطو خطوة قالت بحرقة وألم:

- لا تهتم كثيرًا بإرضائي يا سيدي.

غادرت نور الاستراحة ولم تكن ترى أمامها أي شيء، وكأن العالم كله قد اختفى؛ فلم يتبق منه إلا تلك الدموع الساخنة المتساقطة من عينيها وآخر الكلمات التي قالها، والتي كانت تحاول نور أن تطردها من مخيلتها كي لا تضعف ولا تحزن.

فتحت نور باب غرفتها بهدوء، بينما كانت عاصفة من الغضب تسيطر عليها وهي ترى اعتدال تقف أمامها مبتسمة ومرحبة بها؛ مما حدا بها إلى أن تتوجه إليها وتصرخ بوجهها قائلة:

- ألا تشعرين أنكِ كنتِ سخيفة جدًا؟

خيّم الصمت على لينا... رُبا... عُلا واعتدال، كن يحاولن معرفة سبب هذا البركان المتأجج من الغضب في عيني نور وقلبها، فإن أيا منهن لم تعهد على نور أن تكلم أحدًا بهذه القسوة والغضب، أما اعتدال فقد فهمت كل شيء حين توجهت إلى نور؛ لتحاول إفهامها ما حدث قائلة:

- نور، أرجوكِ لا تفهمي الأمور بشكل خاطئ، أنا لم أتفق مع القائد على شيء؛ فحين دخلتُ الاستراحة وجدتكما تجلسان سويًا، لم أرغب بإزعاجكما؛ لهذا عُدتُ أدراجي ثانية إلى السكن.

بدأت ملامح الاستغراب تتغير على وجوه الفتيات وهن ينظرن لحظة إلى نور وأخرى إلى اعتدال، إلا أن الصورة الحقيقية لم تظهر بعد، ولم يعلم أحد سبب غضب نور الحقيقي، تقدمت لينا خطوة إلى نور التي كانت تمسح دموعها بسرعة و انفعال، وهمست بحب قائلة:

- عزيزتي نور، ما بك؟

تنهدت نور بحزن ولم تستطع كتمان صوتها المتقطع، وقالت:

- لاشيء..لاشيء... لاشيء... دعوني وشأني فقط.

اتجهت نور إلى حقيبتها وبدأت ترتب ملابسها بعصبية واضحة، فيما اقتربت عُلا قليلًا وقطعت الصمت المتوتر في الغرفة، ثم قالت:

- أنا المخطئة يا نور، فما كان ينبغي لي أن أبوح بسر زواج أخي من سامية؛ لأن أخي حذّرني، وأنا ظننتُ أنني حين أشيع الخبر سأنتقم منه لعدم رضائي عن زواجه.

توقفت نور عن ترتيب حاجاتها، ونظرت بحدة إلى الجميع، ثم قالت:

- يجب أن تفهَمن تمامًا أن أمر القائد لا يعنيني، وزواجه ليس من شأني، ثم...

- إذن لماذا هربتِ أول أمس حين عاد القائد، وقد كانت دعوة العشاء على شرفك؟

كان كلام اعتدال قاسيًا وهي توجهه إلى نور، وقد بدأ التوتر يزداد بينهما فيما كان الجميع يحاول تهدئتهما، فوقفت نور مواجهة لاعتدال وهي تصرخ قائلة:

- أنا لم أهرب.

- أنتِ جبانة، هربتِ من مواجهة القائد وجميعنا يعرف ماذا تعنيان لبعضكما.

- اصمتي، فهذا ليس من شأنك.

الإنهاك بدا على نور وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة وكأن الدنيا كلها قد ضاقت أمامها، فجلست على المقعد وأراحت رأسها بين كفيها وقد بدا الضعف واضحًا على جسدها ووجهها الشاحب، اقتربت جميع الفتيات منها والقلق يملؤهن؛ حيث بدأت اعتدال تعتذر لها وتقبلها والحزن يصارعها، فمسحت لينا على جبين صديقتها نور وقبّلتها، ثم قالت:

- نور، هل أنتِ بخير؟ أم أستدعي لكِ الطبيب؟

نفت نور بحركة من رأسها ما طلبته لينا، وقالت بهدوء:

- أنا متعبة، ولن أرتاح إلا في أحضان قريتي غدًا.

الهواء كان باردًا، وأحمد يحاول أن يستذكر ما حدث في الاستراحة مع نور غارقًا في تفكيره ومشاعر كثيرة تحيط به.

- أحمد.

صوت ليث قطع أفكاره، لكنه لم يغير نظره المتوجه إلى نافذة غرفته المزينة بقطرات المطر الغزيرة، ابتسم بهدوء قائلًا:

- نعم
- مالذي حدث بينك وبين نور؟
- لا شيء.
- ما زلتَ مكابرًا.
- الظروف هي التي فرضَت عليّ أن أكون مكابرًا.
- ها قد زالت كل الظروف، فماذا عندك؟

بدا القائد كطفل صغير ضعيف لا يقوى على كتم انفعاله وهو ينظر إلى ليث والعجز يسيطر عليه قائلًا:

- لقد أخبرتُها بأنني أحبها فتركَتْني وذهبَت.

تفاجأ ليث بكلام أحمد الذي لم يتوقعه أبدًا؛ فقال مجيبًا:

- حقًا؟! من الطبيعي أن تفعل ذلك؛ لأنها تعتقد أنه كان عليك إعلامها بكل شيء حتى لا تسبب لها كل الألم والحزن، ولو لم تغضب لما كانت تحبك، أما الآن فدورُك بأن ترضيها بكل ما توصّل إليه العشاق من حب ووصال.

هز أحمد رأسه موافقًا لما قاله ليث؛ فرغم حزنه إلا أن الحب الذي كان يملأ قلبه يشعره بالدفء، ولم يثقل كاهله إلا سفر نور إلى قريتها صباح غد.

النرجس الأبيض الذي لا يزهو إلا في الشتاء كان يملأ الطريق الممتد إلى بيت نور،كل شيء كان صامتًا... حتى الوطن، إلا قلوب العاشقين، قطرات المطر كانت تموج كبحر هادئ على القطار الذي كانت نور تستقله إلى قريتها، ومشاعر فياضة تتأرجح في أحضانها التي استسلمت للثواني الممزوجة بالحب والخصام، كانت تحاول الهروب من شوقها وحبها لذاك القائد الذي كانت تراه في كل شيء جميل وترقبه كحلم يأبى أن ينتهي، فالجسر لا يكون إلا إذا كانت له نهايتان، والوطن لا يزهو إلا إذا كان له قلب صادق، وكذا الحلم؛ فهو لا ينام إلا على أكتاف الحيارى التائهين، وفي اللحظة التي يختلط فيها الزمان مع المكان والأحلام مع الآمال نشعر بدفء من نحب حتى يتخلّل أوصالنا ونصير كقوس قزح فيه ألف طيف، فرغم حبي أنا تعيسة أشعر بالخذلان، من حياة فقدَت كل ألوانها وصار لها لون باهت بعيد كياسمينة أثقلها الندى؛ فامتزجت بالأرض، ومن عيني التي لن تسهر لتزهر حكاياها في قلوب البائسين، تمامًا كالشجر في الشتاء؛ لا يحمل إلا أغصانًا لا تزهر إلا في شمس الربيع الهادئة، فقط لون السماء، وقطرات المطر حين تصافحني تشعرني بالدفء، فقلبي يؤمن أن الأحلام لا تشيب وإن كانت مثل ضياء شمعة تموت قبل أن تولد، وهذا قلبي الذي خذلته في تلك اللحظة التي قررت فيها تركه إلى غير رجعة لا أحتاجه الآن، خذه؛ فأنا أُحسن العيش دونه.

كانت هذه المرة الأولى التي تشعر فيها نور بانها قاسية، تتهم فيها القائد دون أن تترك له فرصة ليدافع عن نفسه، لم يكن يعنيها هذا، فقط ما كانت تفكر فيه تلك اللحظة أنها لن تعود إليه أبدًا.

كان المطر غزيرًا وليس ثمة ألوان كثيرة للأرض؛ فالشتاء قاس والبرد قارص، هما يومان فقط ستقضيهما نور في قريتها ثم تعود، كانت تستذكر المرة الماضية حين عادت إلى القرية، كانت سعيدة رغم حزنها، أما الآن فهي تشعر أن ليس لها قلب لتشعر به.

طرقات ثقيلة وسريعة هاربة من الشتاء الغزير والهواء البارد، طرقات نور على باب بيتها لتستقر في أحضان أمها وتنعم برائحة الوطن القديمة، أبعدت الأم خصال الشعر المبتلة عن جبين نور وقبّلتها بحنان، ثم قالت:

– كيف حالكِ يا حبيبتي؟

تنهدت نور بعمق و أبعدت قطرات المطر الملتصقة بها حين حركت رأسها بسرعة وقوة، ثم اتجهت إلى المدفأة وقالت بتعب واضح:

– أنا بخير يا أمي، اشتقتُ لكم كثيرًا، أين خالي؟ وكيف حاله؟

– ها أنا.

صوت تحبه نور ولم تتوقع أن يكون هنا، إنه خالها الذي جمعه مع نور مشاعر واحدة وصورة لمعنى واحد للحب، كانت نور تحاول أن تخفي أحزانها وراء عينيها وكلها سعادة برؤية خالها والاطمئنان عليه، إلا أن الشتاء هو الزمن الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يخفي فيه آلامه.

– جئتُ لأراكَ وأطمئن عليك، ولتاخذني لزيارة قبر صديقتي كما وعدتني.

كان صوت نور الموجه إلى خالها هادئًا... ضعيفًا... ومتوترًا، وهذا ما شعر به خالها حين رد قائلًا:

– فقط؟

– أجل فقط، رغم أنني أخشى من طقس الغد أن يكون كاليوم.

- لا تقلقي يا عزيزتي، ارتاحي الآن من عناء السفر وبرد الشتاء، وغدًا صباحًا سأكون بين يديك لنستغل الوقت من أوله.

تشبّثت نور بالوسادة وغرست رأسها فيها بعد أن أعادت خصال شعرها؛ لتنام بهدوء ولترقب قطرات المطر وهي تداعب زجاج نافذتها.

جميع الفتيات يتجمهرن حول النافذة في المزرعة، يحاولن بالضحك أن يتغلبن على برودة الطقس وجفاف الأشجار، أكواب الشاي تتناقل بين الجميع واعتدال تجلس بينهن كأنها تهم بقول شيء ما، اقتربت أكثر، وهمست بصوت منخفض قائلة:

- الشيء الوحيد الذي لم أستوعبه في كل ما حدث أنني لم أتخيل أبدًا كيف يمكن للقائد أن يتزوج من سامية.

- لماذا؟

ردت عليها عُلا باستغراب واضح، ضحكت اعتدال للحظة وقالت:

- لأنني لم أسمع من قبل عن لوحَي زجاج تزوجا.

صمتت الفتيات، ثم انفجرن بالضحك وهن يتخيلن ما قالته اعتدال، في اللحظة التي دخل فيها القائد مع أصدقائه، حيث علّق مصطفى قائلًا:

- لا ينقص هذه الجلسة الجميلة إلا نور.

نظرت اعتدال بطرف عينها، وردت على مصطفى قائلة:

- نوركم كفاية يا سادتي.

- هذه أول مرة أسمعكِ تقولين فيها كلامًا جميلًا.

- أنتَ لا تسمع إلا ما تريد.

كانت العبارات المتبادلة بين اعتدال ومصطفى تتدرج نحو التوتر والانفعال؛ مما حدا بالقائد ليوقفهما قائلًا:

- توقفا عن الشجار، نحن هنا لنستمتع فقط، لا لنتشاجر.

أشاحت اعتدال وجهها، وكذلك مصطفى وسط استغراب الجميع.

الطريق إلى المقبرة كان موشحًا بالأشجار، والشوارع متموجة كأفعى، رغم توقف الأمطار إلا أن آثاره تملأ القرية؛ فالأرض مبتلة وأشجار السرو والصنوبر تقف بعنفوان تزهو بجمالها ونظافة أغصانها، كانت التلال والجبال تشكّلان في رمالهما صورة لزجة كالسحب حين تغضب، لم تكن نور تدرك أنها لم تقل شيئًا طوال الطريق؛ فهي منذ ساعة كاملة تستقل مع خالها السيارة ولم يتبادلا الحديث، نظرت إلى خالها متلعثمة وكأنها ترغب في الاعتذار منه بطريقة ما، ثم قالت:

- كيف حالك؟

ابتسم أيمن بخفية، ثم قال:

- لقد سألتِني عن حالي بالأمس وأخبرتكِ أنني بخير، واعتذرتُ لكِ أنني كنتُ سببًا في دخولكِ المستشفى، هل نسيتِ؟!

- لا لم أنس، كانت أيامًا عصيبة.

- نور، كأنكِ لستِ على ما يرام.

- لا أبدًا، ربما لأنني في الطريق لزيارة قبر صديقتي.

- ها قد وصلنا، هل تحبين أن أرافقكِ يا عزيزتي؟

- كما تشاء.

بضعة أمتار كانت تفصل بين المقبرة والسيارة التي ما أن وقفت وترجلا منها حتى شعرت نور بأن الأرض مغبرة... باردة... قاسية، دخلت بهدوء وهي تحبس أنفاسها، كان التوتر يختبئ بين أجزاء جسدها وخلف قلبها المرتعش وهي ترى شجرة الزيتون التي تسكن قرب قبر صديقتها جافة، خطواتها كانت ثقيلة... بطيئة، تحمل أسى واضحًا، اقتربت... مسحت بأناملها الباردة قبر صديقتها؛ لتنفض عنه غبار الشتاء وقطرات المطر، ليحل بدلًا منها تلك الدموع السخية الحزينة التي تساقطت على قبر صديقتها لتختلط بالزمن الفاصل بينهما، جلست نور بهدوء وترقب وهي تهمس تناجي صديقتها:

- ماذا أقول لكِ يا صديقتي؟ يا وردة نسيَت اسمها في الطريق، لقد ذبحوا حلمي، وقتلوا كل الأشياء الجميلة في قلبي، أنا لاشيء؛ فقد أضعت حلمي وسكنتُ متاهات ملونة بالمستحيل، لم أعد قادرة على زرع أزهار المحبة؛ لتقطفها الأيام وتهديها للمارين من هنا، فكيف أعود؟ كيف أسكن حلمي من جديد؟ أرشدِيني للطريق، ألا ترين أيتها الصغيرة أنني أعيش في كل هذه العتمة، كيف أخرج منها؟ هل تكفي نصف ابتسامة لأخرج منها وهي تسكنني؟ لا تتركني أُلمِلم آلامي وأرقب حزني، فقد جعلت نفسي لك وطنًا، لا تذهبي بعيدًا إلى حيث السماء، سأعود يومًا لا ترحلي؛ ففي الغياب قتل للمشاعر والهوى، وحبي لك نبضات... وردٌ خجول في آتون الصخر، وزمن مرتد عبر صدى المكان، كم مرة رقبتُ الفجر أن يبزغ؛ ليداعب بأفقه أنفاسي... لأسمع فيه صوت العصافير، لعلها تعيد إليّ لون الطفولة، فلا أسكن هذا العالم المليء بألو انه السوداء.

كانت يد أيمن الدافئة تذكّر نور بموعد الرحيل، لم تذكر للحظة أن ثمة من يرافقها، ولم تذكر أن السماء تمطر منذ وقت ليس بالقصير، نهضت نور واتجهت إلى السيارة دون أن تنظر في عيني خالها أو تقول شيئًا، ثم بدأت تمسح تلك الدموع التي صافحت عينيها طويلًا، كان أيمن صامتًا طوال الوقت، منذ دخول المقبرة إلى مدة نصف ساعة من رحلة العودة، وما كانت عيناه تفارقان نور وهي تنظر إلى السيارة، كيف تطرد بجناحين صغيرين قطرات المطر المهاجمة لزجاجها الأمامي، كان الشارع طويلًا في آخره جبل عالي يطل على أنحاء القرية المليئة بأشجار الشتاء اليانعة، وهناك توقفت السيارة فجأة، وكانت يد أيمن التي تحتضن يد نور الصغيرة هي الإجابة عن سؤالها حول توقف خالها، الْتقَت العيون أخيرًا، أومأت نور برأسها قليلًا؛ لتتلاشى كل الأسئلة والأجوبة في عيني صديقها العزيز، سمعَت صوت ضحكته البسيطة وهو يقبّل يدها قائلًا:

– مالذي تخفيه عني؟

شعرت نور أنها لاتستطيع قول شيء، ولا حتى الإيماء بحركة بسيطة، كانت تهرب بالنظر إلى النافذة؛ لترقب قطرات المطر المتناثرة، إلا أن يدَ خالها التي لم تتركها كانت تمنعها من الهرب، حاولت أن تستجمع شجاعتها وتقول بصوت خفي:

– لا شيء.

– إذن ما هذا الحزن الكبير الذي يختبئ في لون عينيك؟

لم تقل نور شيئًا، فقط حزينة، ترغب في الخروج من هذا الحزن حتى لو كانت حياتها بالمقابل، لا تعرف ماذا تقول ومن أين تبدأ، استسلمت للصمت، وهذا ما كان يظنه خالها حين عاد فقال:

– ما أخبار القائد؟

شعرت نور أن خالها وخزها بألم مسموم لا تُطيق تحمله؛ فأفلتت يدها من يد خالها بانفعال وغضب، حاولت للحظة أن تتصنّع اللامبالاة؛ فرسمت بملامحها انفعالات مستهترة، وقالت:

- لا أعرف.

- أمر غريب، لقد اتصل بي قبل فترة وجيزة واطمأن على صحتي.

عدلت نور جلستها وكانت تستمع باهتمام لما يقوله خالها، فقد استبعدت فعل القائد، كيف اتصل؟ ولماذا؟ نظرت إلى خالها الذي علم تمامًا بما تفكر؛ فابتسم وأعاد الحياة إلى سيارته، ثم انطلق وإلى جانبه نور ما زالت تنظر إليه ليقول شيئًا، كانت السيارة تتعرج في الطريق كأنها تبحث عن هدف، الهواء بارد ونسائمه تحرك الأشجار بعنف كقلب نور المتوتر، بعكس خالها الذي يداعب كرسيه بطرقات خفيفة من يده، ويكرر النظر إليها ضاحكًا، وهو يقول:

- أخبرَني أنه كان مسافرًا لأمر هام، صحيح؟

- لا أعرف.

- لاحظي أن إجاباتك اليوم لاشيء، ولا أعرف، وحين تقولين هذه العبارات أعلم تمامًا أنكِ تعرفين كل شيء، وأخشى عليكِ من اللحظة التي تقررين فيها الحديث.

شعرت نور أن أفضل ما تفعله في هذه اللحظات هو الصمت فقط؛ لتتجنب فضح نفسها أمام خالها الذي يعلم تمامًا بماذا تفكر طوال الوقت.

الساعة الخامسة فجرًا... المزرعة هادئة، قطرات المطر لم تهض بعد، الجميع غارق في النوم، فقط وحده القائد كان يقف عند النافذة يطلّ منها على ذكرياته واللحظات التي جمعته مع نور في المزرعة.

– أحمد.

أخاف صوت ليث أحمد وهو يتسلل دون انتباه أو يقظة، نظرا إلى بعضهما وضحكا قبل أن يكمل ليث قائلًا:

– ماذا تفعل في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

– أنا آسف يا صديقي؛ لأني أيقظتك، عُد للنوم ثانية.

– لكنك لم تُجِب عن سؤالي.

شعر ليث أن أحمد يتهرب من الإجابة وهو يُصرّ على تركيز عينيه بنافذة الغرفة، كانت عيناه حزينتين تائهتين كأنهما تفتقدان الحياة، ابتسم بحزن ثم قال:

– أريد منك يا صديقي أن تعود بالجميع إلى المعسكر حتى ألْحَق بكم يوم غد صباحًا.

استغرب ليث من كلام أحمد، نظر إليه بعمق وقال:

– ألا تريد أن تعود معنا؟

– لا؛ فهناك ما يجب أن أقوم به.

– تقوم به! مثل انتظار نور؟

ابتسم أحمد، ونظر بخفاء إلى ليث، ثم قال:

- ألا تستحق؟

عاد ليث إلى فراشه مبتسمًا وهو يومىء برأسه قائلًا:

- بلى تستحق، ولكن كن رقيقًا معها حتى لا تسوء الأمور إلى أكثر مما هي عليه الآن.

استقبلت نور هذا الصباح بشفافية وقلق، فبدأت تجهز حقيبتها وتنتقل بين أشيائها كفراشة تائهة، وأخيرًا أنهت ترتيب أمورها ووقفت أمام المرآة تسرح شعرها قبل أن تستعد للرحيل، في تلك اللحظة التي وقف فيها أيمن أمام غرفتها قائلًا:

- صباح الخير أيتها الجميلة، أظنكِ لا تحتاجين إلى الوقوف أمام المرآة يا عزيزتي؟

تمايلت نور غرورًا وهي تنظر إلى خالها، ثم قالت:

- ربما أريد أن أُزيد من جمال المرآة، وليس من جمالي.

دخل أيمن إلى الغرفة وتبدو عليه السعادة؛ لتغير نفسية نور إلى الأفضل، جلس على الكرسي وقال:

- متى ستغادرين إلى المزرعة؟

- الساعة الثانية عشر، بعد ساعتين تقريبًا.

- إذن تعالي اجلسي إلى جانبي؛ لأطلِعَك على هذه الصور.

قفزت نور بسرعة إلى جانب خالها وبدأت معه تقلب صورهما؛ ليقلّبا معًا ذكريات أيام مضَت، كانت تشعر فيها نور أن الحياة ستقف عند تلك السعادة، لكن قسوة الأيام وإنهاكها المستمر لنا ينسينا دائمًا أن ثمة أيام جميلة لا نشعر بها إلا حين تنتهي، لمح أيمن في عيني نور تأوهات كانت تتمنى فيها أن تعود لتلك الأيام فتسكنها ولا تكبر أبدًا؛ لذا جمع الصور بسرعة ووضعها في جيبه، ثم نظر إلى نور وقال:

– هيا بنا لتناول الغداء، ثم ننطلق إلى محطة القطار لأوصلك.

وقفت نور، وقبل أن تخطو خطوة واحدة أوقفتها يد خالها الذي همس لها قائلًا:

– عزيزتي نور، تعلّمي أن تستمتعي بعذاب العشق تمامًا كما تستمتعين بجماله.

رحل الجميع، المزرعة هادئة رغم برودة الطقس، الشتاء غزير ويفرض نفسه على الحياة بنبضها وذكرياتها وأهلها، فقد تأخرت نور قليلًا عن موعدها المرتقب في الوصول إلى المزرعة بسبب الشتاء القاسي، وما أن وصلت حتى استنشقت هواءها بشجون، ووقفت تراقب ماهر وهو يدخل الخيول هربًا من البرد:

– مساء الخير يا صديقي.

نظر ماهر باهتمام إلى نور ولوّح لها بيده مُرحّبًا، وقال بصوت مرتفع:

– مساء النور، ادخلي بسرعة إلى الداخل.

كانت نور سعيدة بغزارة الشتاء، تداعب خصلات شعرها وتقبض على سياج المزرعة بقوة وفرح، اقترب ماهر منها قليلًا ثم قال:

- هيا يا آنسة نور، ادخلي إلى البيت؛ فإن بقيتِ في المطر قد تمرضين.

ضحكت نور وهي تداعب قطرات المطر الجميلة، ثم قالت:

- ألا يكفي أمي تحرمني من الاستمتاع بالمطر منذ صغري، دعني أسعد به قليلًا.

حمل ماهر حقيبة نور وذهب إلى البيت قائلًا:

- كما تشائين.

منذ وقت طويل لم تواجه نور غزارة الشتاء، كانت تودّ أن تنام على الأرض؛ لتهمس لها وتسعد بها لولا ذاك الصوت الذي فاجأها بقوة ودفء قائلًا:

- ألا تؤذيكِ قطرات المطر؟

صوت من هذا؟ دقات قلب نور كانت تتسارع لتسابق المطر، شعرت أنها لا تقوى على التحكم بأنفاسها، يالهذا اليوم الشاق الذي تحوّل إلى الارتباك والاضطراب، أية قوة هذه التي تستطيع بها نور أن تنظر إلى خلفها لترى القائد؟ لم تستطع أن تفعل شيئًا، إلا أن تقبض بقوة وقلق على سياج المزرعة، ابتلعت بعض قطرات المطر التي كانت تغازل شفتيها وظنت للحظة أنها لم تسمع كلام أحد، فقد رحل الجميع كما تعلم، إلا أن الخطوات التي كانت تسمعها متجهة إليها كانت تنفي مخيلاتها، ماذا تفعل؟ وماذا نفعل حين نواجه العشق وجهًا لوجه؟ نرسم لوحة من المشاعر نهديها لآهاتنا المتعبة؟ أم نستسلم كفراشات تصنع المستحيل لتحيا؟ في تلك اللحظات نسيَت نور كل شيء؛ لون السماء، وهدوء البحر، رقة الهواء، وغزارة المطر، نسيَت اسمها وغزلت منه تاجًا؛ لتكلّل

به غيوم الشتاء الباردة، تسارعت الخطوات وتسارعت معها دقات قلبها، هذه الخطى أخافتها، أشعرتها بالقلق؛ لأنها خطى تعرفها تمامًا.

- لقد تأخرتِ؛ فقلقتُ عليكِ.

بقدر ما كان صوت القائد قويًا بقدر ما شعرت نور في تلك اللحظة أنها لا تملك معنًى للشجاعة والبطولة، قدّرت كم هو عظيم ذاك الذي ينهي حياته من أجل وطنه؛ فهو شجاع إلى حد المستحيل، ليتها لو كانت تملك القوة؛ لتقول فيها كلمة واحدة، أو تنتظر إليه وتتحداه.

مر وقت قصير، ما زالت نور والقائد يقفان تحت مطر الشتاء الغزير ونور تشيح وجهها عن القائد؛ لترقب هدوء عاصفة قلبها المتسارع.

- حتى المحكوم عليه بالإعدام يسمح له بتنفيذ طلب له قبل المحاكمة.

صوت القائد أكد لنور أن خطوة واحدة تفصل بينهما، تمالكت نفسها وأشادت بقدرتها على تحمل هذا الموقف العصيب، رفعت يدها و أبعدت تلك الخصل الصغيرة التي الْتصَقَت بجبينها؛ لتؤكد للقائد عدم اضطرابها، إلا أن يدها المرتعشة كشفتها للحظة فزادت ابتسامة القائد، وزاد يقين نور بضرورة تحدي هذه اللحظات العصيبة، هي لم تنظر خلفها، لكن صوتها كان منخفضًا... باردًا... مضطربًا حين قالت:

- وماذا تريد؟

- أريد أن تسمعينيَ وبعد ذلك أصدري الحكم الذي ترغبين.

نظرت نور خلفها مباشرة؛ لتلتقي عيناها بعيني القائد، في عينيها ألوان من الغضب والحزن، وفي عينيه حب وشوق وعتاب، كانت وحدها قطرات المطر التي تفصل بينهما، تنهدت نور لتخرج ما في جوفها من ألم وأسى، وتنزع كل

الذكريات التي جمعت بينها وبين القائد يومًا ما، قاومت بعينيها تلك الدموع التي تهم بالنزول، وقالت بصوت متقطع:

- لا أريد أن أسمع شيئًا.

نظرات الهدوء كانت تسيطر على القائد وهو يستمع لكلام نور، فيما كان المطر يتوقف تدريجيًا وينسحب بهدوء.

- بل ستسمعينني رغمًا عنكِ، أنا من حقي الدفاع عن نفسي حتى آخر لحظة.

في تلك اللحظة أدركت نور أنها لو خطَت خطوة سيوقفها القائد بالقوة؛ فامتثلت لأوامره و أبعدت نظرها عنه لعلها تستطيع مقاومة هذا الحب العنيف الذي يسجن قلبها بقوة.

حافظ القائد على تلك الخطوة التي تفصل بينهما، ابتسم قليلًا ثم قال:

- حين قررتُ أن أتزوج سامية كان الوضع بيني وبينكِ سيئًا؛ فقد رحلتِ دون معرفتي وقد قررت فجأة، كان الأمر صعبًا، أعتقد أنه من المستحيل أن أتصل بكِ وأخبرك أنني أحبكِ لكنني أريد الزواج بغيرك، ثم أنني عاهدتُ صديقي بحفظ سره، كانت كل الظروف سيئة يا نور.

صمت القائد، وكانت نور ما زالت تستمع، كأنها كانت تكتم غضبها و انفعالها اللذّين خاناها وهي تصرخ قائلة:

- هذا ليس مبررًا أبدًا، كان بإمكانك أن تخفي عن العالم بأسره إلا أنا؛ لأنكَ تعلم تمامًا أثر ما فعلتَه بي.

- نور، اهدأي واسمعيني.

كان الغضب يتأرجَح بين الاثنين، توقف المطر ولم تتوقف دموع نور بعد، وقد أعادت نظرها ثانية إلى القائد، وقالت بحزن:

- لا أريد أن أهدأ، ولا أريد أن أسمعك، ولا أريد منكَ شيئًا، حتى حبكَ أنا أرفضه.

كانت كلمات قاسية، لكن القائد لم يغضب، بل كان يستمع لها بصمت بالغ وهدوء عجيب حين رد قائلًا:

- نور، ضعي نفسك مكاني، ماذا كنتِ ستفعلين؟ وقعت بين عهدي لصديقي و إنقاذي لأسرته وبين غضب حبيبتي، فماذا افعل؟

بدا الإنهاك والتعب على نور وهي تبكي بأسى، فيما خطت بعيدة عن القائد، ثم نظرت إليه فجأة وقالت:

- ليس من حق أي انسان أن يعبث بمشاعري وألمي، ليس من حقكَ أن تقتلني وتشعرني بكل هذا الألم ثم تأتي لتعتذر، هيا أعد الزمن للوراء... واعتذر، هل ثمة أحد في الدنيا أحسّ بمدى الحزن الذي كان يتملكني؟ كنت أموت كل لحظة وكل ثانية، مشاعر الغيرة والحزن قتلتني، وكانت النهاية أنني دخلت المستشفى وكدتُ أفقدُ حياتي.

- هل تعنين أنكِ دخلتِ المستشفى بسببي وليس بسبب خالك؟

كانت كلمات القائد مستفزة ومثيرة لغضب نور التي تركته و اتجهت بسرعة إلى الداخل؛ ليوقفها القائد ثانية بقوله:

- لقد نسيتُ أن أعطيكِ شيئًا.

نظرت نور خلفها فوجدته يحمل رسالة مُنى صديقتها يرفعها في إشارة منه لتقديمها إليها؛ حيث تقدمت خطوات لتمد يدها وتمسك بالرسالة، فيما كانت يدها تقع فريسة سهلة بين يدي القائد.

تلاشت تلك الخطوة التي تفصل بينهما، وكانت تلك المرة الأولى التي تقف نور مواجهة مع قائدها لترقب ملامحه الجدية وعينيه الخضراوين، شعرت أن ملامحها اختفت وقلبها تحول إلى قطعة ملتهبة من المشاعر، لم تستطع أن تتلاشى دفء أنفاسه و ابتسامته الهادئة، حبسَت أنفاسها ولم تكن قادرة على أن تحبس دموعها المتسارعة..الضعيفة... المرتعشة... والجبانة، فقد فضحَت ضعفها أمام جرأة القائد الذي جمع يديها في يده، ومسح دموعها باليد الأخرى هامسًا لها:

- أنتِ عبقُ حبي المُهدَى من قلبي إلى قلبي، أحبكِ كلما غفَت العصافير في أعشاشها، وكلما محت الشمس أرق الليل ومنحت الأزهار لون الربيع، أبدًا أشتاقك كما يشتاق المساء لرقة العاشقين ولهمس نجوم السماء، فمهلًا سيدتي، كم مرة عليّ أن أصمت كي أهمس لكِ أني أحبك؛ فكل أمطار الشتاء هي أنتِ، و أنتِ ألوان الربيع الدافئ، وضوء النهار العاشق، فأذن لقلب عاشق ولهان أن يعشقكِ حتى الموت.

أغمضت نور عينيها وأطبقت على شفتيها وهي ترقب أنامل القائد تمسح دموعها بشوق وكأن العالم كله قد اجتمع في وجهه، حتى ذاك الصيف الذي هو أبعد ما في العالم، شعرت نور أن صفاء غروبه ورقّة نسائمه تتمايل في صوته الهادئ، ماذا تستطيع أن تفعل؟ لا شيء؛ فكفّاها بين يدي القائد وكأنهما أزهارًا في قفص ذهبي، كيف لا تقوى على حراكهما؟ حتى يديها شعرت في تلك اللحظة أنهما ملك له، كانت مشاعر الغضب والغيرة واضحة في معالمها التي اقترب منها القائد وجعل لها روحًا أخرى حين رفع تلك الخصلات المبللة من شعرها والتي

تباعد بينه وبينها؛ ليراها بحب أكبر.

كانت تحاول الهرب من بين يديه، وهذا ما كان يشعر به أيضًا، إلا أن الزمن توقف ليرسم دقيقة حب دافئة ويسجلها في ثوان ضيقة من هذا الشتاء، فالقائد بانفعالاته الهادئة بدأ يقبض على كفَّي نور التي رغبت بالهرب، لولا صوته الذي همس مجددًا:

- منذ رأيتكِ يا نور علمتُ أنكِ محرابي وأنكِ وحدكِ من ستسكنين قلبي، فاغضبي كما تشائين واعتبي عليّ واقْسِي بكل ما أوتيتِ من حب، فأنتِ لا تستطيعين رفض حبي؛ لأنني أحبكِ رغمًا عنك، ولأنكِ لن تسكني حضن رجل سواي.

برغم السعادة التي كانت تزين قلب نور كقطرات ندى على أزهار ملونة عند الصباح، لكنها كلما كانت تذكر وجه سامية كانت تزداد غضبًا، وكأن وجه القائد هو الوجه الآخر لها، حاولت كثيرًا ألا تستسلم ليديه الدافئتين وكلامه العذب، ومع كل محاولة كان صوت الرعد يخيفها ويقربها منه أكثر، وفي النهاية استجمعت أحرفها وأنفاسها المختنقة وهي تتجنب النظر إليه؛ لئلّا تركن إلى حضنه الدافئ، ثم قالت متوسلة:

- اتركني.

صوت ضحكاته كانت تداعب أذنيها وهو يهمس لها أنه فهم كل شيء، لكن رغبته في القرب منها ونقل كل مشاعر الحب التي تسيطر عليه جعله يتناسى كلماتها الأخيرة، لولا رغبتها التي سيطرت عليه مجددًا؛ فهمس بحب قائلًا:

- ليس ثمة رجل في العالم يحتضن حبيبته فلا يفصل بينهما إلا قطرات المطر ثم يتركها إلا إذا أمرت هي بذلك، وأنا خُلقتُ لأنفذ لكِ أوامركِ يا سيدتي.

وفي لحظة كان يبعد يديه عنها؛ لتحتل الشجاعة قلبها ثانية وهي تقول:

- وهل هناك من يستطيع أن يأمرك فتنفّذ؟

كانت نور تقصد من كلماتها إخفاء مشاعر العتب بتركه ليديها وتنفيد رغبتها، إلا أنها أشاحت بوجهها؛ لئلّا تفضحها عيناها وهي تغادر وجه قائدها، الذي أوقفها صوته ثانية وهو يقول:

- أجل، أنتِ وحدكِ في كل هذا العالم من تأمرني فأنفد أوامرها كطفل صغير لا يحسن قول كلمة لا أبدًا.

زرعت كلمات القائد الابتسامة على وجه نور وهي تستقر في غرفتها؛ لتحاول تهدئة قلبها وضبط مشاعرها مجددًا، لقد نسيَت كيف سلّمت على الجدة وتحدثت إليها، كانت تشعر أن أهم ما في الحياة أن تصل وترْكَن إلى فراشها دون أن يلاحظ ارتباكها أحد، مرت ساعة كاملة ونور ما زالت تشعر أن الزمن متوقف عند رقة القائد التي لم تستوعبها بعد، كانت السعادة تملؤها والحب يغرقها، ربما أن الشتاء أصبح له نكهة أخرى، من قال إن الشتاء بارد؟ ومن تحدّث عن قسوته؟ يا إلهي ما أجمل الشتاء وقسوته، أجمل ما في الكون مطره الغزير الذي لا يجمع إلا العاشقين، منذ وقت لم ترتسم الابتسامة على محيا نور بكل هذه القوة، بالطعم السعادة الذي نشعر به حين نحقق أحلامنا بدفء وهدوء، لم يوقِظ نور من غمرة دهشتها و انفعالها إلا صوت طرقات الغرفة، إنها شيرين... جاءت تدعوها لتناول العشاء مع الجدة، حاولَت أن تعتذر لكن الجدة لا يقف أمام رغبتها أحد، ابتسمَت نور وطلبَت من شيرين أن تعيرها لحظات لتشارك الجميع في العشاء، وما أن غادرت شيرين الغرفة حتى أهلكتها نور جيئة وذهابًا في محاولة للتخلص من ارتباكها وإظهار طبيعتها، كيف

لها أن تواجه القائد الآن؟ كيف يمكن لكل هذا الاضطراب أن يغادرها؟ لم تستطع نور أن تدرك أي هدف أمامها؛ فغيّرت ثيابها ومشَت بضع خطوات لتكون في مشاركة الجميع وعلى مرمى عيني القائد تمامًا، ابتسمت وألقَت التحية ثم جلست، الجدة إلى جانبها القائد، يشاركهم الجلسة مجد وماهر إضافة إلى شيرين، نظرت الجدة باستغراب إلى نور التي كانت لم تفارق عيناها أرض البيت، ثم قالت:

- كيف حالكَ يا ابنتي؟

تمنت نور لو يعدل الجميع عن النظر إليها أو التحدث معها؛ فتبادل الضحكات والقصص بينهم كان يربكها ويزيد قلقها، حاولت أن تصطنع ابتسامة وهي تمسح بعض قطرات العرق المتصببة منها، وقالت:

- أنا بخير يا جدتي.

عدلت الجدة جلستها واحتضنت القائد بعفوية ومحبة، ثم وجّهت نظرها ثانية إلى نور وقالت:

- لماذا لا تريدين مشاركتنا في طعام العشاء؟

- لستُ جائعة يا جدتي.

كانت نور متأكدة أن القائد ينظر إليها بعمق ولا يصدقها، إلا أن الجدة لم تكفّ عن الأسئلة؛ مما حدا بالقائد للقول:

- جدتي، كفي عن مضايقة نور.

أزعجَت كلمات القائد نور وهي تشعر بالضعف أمامه، فنظرت إليه بحدة وقالت:

- أنا لستُ مجنونة حتى تطلب من الآخرين مداراتي.

لم يقل القائد شيئًا، بل كان يعلم أن ما فعله كان صعبًا عليها؛ لذا لزم الصمت، فيما علا صوت الجدة قائلة:

- ماذا هناك؟ أرى أنكما ستتشاجران.

سمعت نور صوت ضحك القائد وهو يوجه كلامه للجدة قائلًا:

- لا يا جدتي، إنه عتاب فقط.
- ولكن العتاب للأحبة يا أحمد.
- ونحن أحبة يا جدتي.

فهم الجميع باستثناء مجد أن هذه لغة التخاطب بين القائد و جنده؛ لذلك لم يعيروا كلامه أي معنى آخر، كانت كلمات القائد تثير اضطراب نور وتشعره أنها ما زالت غاضبة وعاتبة، ولم ينه هذا الجو المشحون إلا صوت ماهر يدعو الجميع للتوجه إلى المائدة،كانت مائدة لذيذة، وكذا موائد الشتاء دومًا؛ فالشراب الساخن يحيط بها ور ائحة الطعام عبقة تملأ المكان، حاولت نور أن تبتعد عن الجلوس إلى جانب أحد، ولكن رغبتها لم تفلح في منع القائد من الجلوس إلى جانبها قائلًا:

- إذا كنتِ لا ترغبين بجلوسي إلى جانبك أغيّر مكاني.

لم تقل شيئًا، بل عبّرت بوجهها عن عدم منعها من جلوس أحد إلى جانبها؛ فموقفها كان حرجًا للغاية، القائد عن يمينها ومجد عن شمالها وهي لا تكاد ترى شيئًا من الطعام، كانت في داخلها تشعر أنها لحظات سعيدة لن تتكرر، لكن الارتباك يزاحمها وكأنه أصبح جزءًا منها، ماذا تفعل؟ لم ينقذها إلا كلمات الجدة التي كانت تشيح نظرات الجميع عنها، وخاصة مجد التي كانت متيقنة من إحساسه ومعرفته بكل ما يحدث، كان صوت الجدة مرتفعًا وسعيدًا وهي

توجه كلامها للقائد قائلة:

– قل لي يا أحمد، لِمَن أحضرتَ هدية من سفرك؟ وما هي؟

ابتسم أحمد وهو ينظر إلى الجدة، فيما يقدم بيده بعض الأرغفة من الخبز إلى نور وقال:

– لا يا جدتي، لا أستطيع أن أجيبكِ عن هذين السؤالين؛ لأنهما ليسا من حقي، ولكن أعدكِ أنكِ ستعرفين يومًا ما.

أظهرت الجدة جديتها وهي ترشف بعض الشاي، ثم قالت:

– بل أريد أن أعرف الآن، أهي لحبيبتك؟

أثارت كلمات الجدة ضحك الجميع إلا نور التي تمنت لو تتغير معالم الكون؛ حتى لا تقع فريسة لكلام الجميع، لكنها لم تخفِ رغبتها في معرفة الجواب، الذي جاء بسرعة وسهولة من القائد قائلًا:

– أجل يا جدتي.

أومأت الجدة رأسها وكأنها ليست راضية تمامًا عن عدم معرفتها بأجوبة باقي الأسئلة، انتهت اللحظات العصيبة في حياة نور ووجدت الفرصة مناسبة لتساعد شيرين في توضيب المائدة وغسيل الصحون، وسط إصرار وقلق شيرين من هذا الأمر شعرت نور أن الوقت الذي مر وكأنها كانت في سجن وخرجت منه بشق الأنفس؛ فكانت تبطئ من عملها لإطالة الزمن رغم شوقها لرؤية القائد وكأنها لم تره منذ وقت طويل، في نصف ساعة كان كل شيء في مكانه، حتى نور وشيرين بعد أن عادتا ثانية إلى الجلسة التي لا يزيّنها إلا الضحك والسعادة، أعادت الجدة نظاراتها القديمة إلى عينيها مجددًا وهي ترقب الجميع، وقالت موجهة كلامها إلى ماهر:

- قل لي يا ماهر، ماذا ستسمي ولدَك المنتظر؟

شعر ماهر بسعادة بالغة وسط اهتمام الجميع وسعادتهم بطفله، فيما عادت قطرات المطر تصارع نوافذ البيت بقوة وغزارة مجددًا، فرك ماهر كلتا يديه ببعضهما وقال:

- إذا كان ولدًا سأسميه أحمد؛ تيمنًا ورغبة في أن يكون مثل القائد.

بدا الخجل واضحًا على القائد الذي قال مداعبًا لماهر:

- لا يا صديقي، أحب أن يكون أفضل مني.

- لقد اتفقتُ أنا وشيرين على هذا الاسم و انتهى الأمر.

أعادت الجدة سؤالها مرة ثانية وهي تشير إلى شيرين قائلة:

- وإن جاءت طفلة يا شيرين ماذا ستسميانها؟

فكرت شيرين قليلًا وكأنها لم تجهز الاسم بعد، إلا نور التي نظرت إلى القائد مرارًا، ثم قالت بجرأة وقوة:

- سامية.

تغيرت ملامح الجميع حين نطقت نور بالاسم، وخاصة القائد الذي نظر إليها بحدة، ثم وقف قائلًا لمجد:

- هيا مجد، علينا أن نغادر الآن.

شعرت نور بالندم والقهر، وتمنت لو أنها تمالكت أعصابها للحظة قبل أن تثير غضب القائد الذي أصر على المغادرة فورًا بينما كانت الساعة العاشرة مساءً.

وقفت الجدة إلى جانب القائد، وأمسكت بيده قائلة:

- اجلس يا أحمد، لا تغضب يا حبيبي.

نظر القائد إلى نور بغضب و انفعال، ثم قال:

– إذا كان وجودنا يزعج شخصًا ما في هذه الجلسة فلا داعي لأن نبقى لحظة واحدة.

دارَت نور دموعها وهي ترى الجميع قد توتّر فجأة وتغير نمط الجلسة إلى الغضب، لم تستطع الجدة أن تكظم غيظ القائد الذي لم يثنه أحد عن العودة إلى المعسكر، حتى تركت يده من يدها وقالت غاضبة:

– إن ذهبتَ الآن إلى المعسكر؛ فسأغضب غضبًا شديدًا.

وقفت نور وهي تكتم آهات من الحزن والندم، ثم استسلمت لدموع بريئة وصغيرة، و قالت موجهة حديثها للقائد:

– أنا آسفه سيدي، لم أقصد إفساد جمال هذا اليوم.

شعرت نور أن جبلًا انحدر عن قلبها الذي كشف القائد ما فيه حين أعلنت في كلامها سعادتها بهذا اليوم الذي ضمها معه، ومع ذلك أسرعت إلى غرفتها باكية، كأنه الدهر كله مرّ ببطء شديد قبل أن يشرق فجر اليوم التالي، لا تذكر نور كم دقيقة نامت، ووسط انفعالاتها المتناقضة؛ السعادة والحزن... القلق والهدوء، كيف لها أن تعرف ما إذا كان القائد قد غادر بالأمس أم أجّل سفره إلى صباح هذا اليوم؟ وكيف لها أن تودعه أو تطلب منه أن تغادر معه إلى المعسكر بدلًا من تأخرها حتى ظُهر ذلك اليوم؟ نهضت وجلست على سريرها بعد أن أسندت ظهرها إلى وسادتها الناعمة، نظرت إلى الساعة؛ إنها السابعة صباحًا... المطر خفيف... وقوس قزح يبتسم معانقًا السماء وملقيًا بتحية الصباح على الجميع، كانت ترقب يديها، تقلبهما بشفافية وتقبلهما بحب، تمنّت لو أن الثو اني والدقائق تعود؛ ليتوقف الزمن حين احتضن القائد كفيها ومسح دموعها المتناثرة، كان لكفيها رائحة غيّرت شتاء الصباح فحولته إلى

صيف مشرق، كانت تبتسم حين تذكر كيف باعد خصيلات شعرها المبتلة؛ ليكبر ذاك الطفل المسمّى عشقًا بينهما، وكانت تحزَن كلّما تذكّر كيف انتهى ذاك اليوم بحماقتها وغيرتها التي لا تنتهي، نهضت نور من فراشها متجهة إلى النافذة؛ لعلها ترى القائد أو تلمح شيئًا منه، ولكن صوت طرقات الباب أوقفها وغيّر مجرى خطواتها؛ لترى شيرين مبتسمة ومستأذنة بالدخول.

- هل غادر القائد؟

كان سؤال نور سريعًا، لكنها لم تستطع أن تكتم مشاعرها لفترة أطول، لم تنظر شيرين إليها، بل وضعت طعام الإفطار على الطاولة قائلة:

- أجل، منذ نصف ساعة، وقد ترك لك هذه الورقة.

نظرت نور بسرعة إلى الورقة، كانت مبتلة كأن أحرفها أصبح لها معنى آخر، إنها رسالة مُنى، هدأت نبضات قلبها قليلًا، وتذكرت للحظة أن الورقة بقيَت معه، لقد نسيَت تمامًا كيف حدث ذلك، ما تذكره أنها كانت تهمّ بأخذها ثم لا تذكر شيئًا بعد ذلك، إلا تلك اللحظات السعيدة التي جمعت بينهما، والتي كانت نور تخشى ألا تعود أبدًا، تقدّمَت قليلًا وأخذت الورقة من شيرين؛ لتحاول كبْت تلك الدموع التي بدأت تدور حول حدقات عينيها، شعرَت نور أن الورقة أصبح لها رائحة أخرى، تشتَمّ منها لون التراب حين يخالطه المطر، وذكريات الوطن حين يبزغ بالفجر، وعشقَ القائد الذي لم يعد هناك نبض لأي حياة في المزرعة دونه، وقفت شيرين على الباب ونظرت إلى نور ببراءة، ثم قالت:

- متى ستغادرين؟

سؤال شيرين أثار الحزن في قلب نور، ماذا لو تأخر القائد قليلًا ليصطحبها معه؟ ولكن... كيف له أن يفعل ذلك والغضب يملؤه، لَمْلمَت نور كل أشيائها الخاصة، وقالت بملل: - بعد ساعة.

غادرت نور المزرعة دون شوق... ودون حنان، ثم اتجهت إلى المعسكر؛ لترقب فيه ذاك الحبيب الذي يداري شوقه وحبه خلف عينيه الغاضبتين.

ماالذي يجمع العاشقين؟ حدقات العيون التي تحمل نفس النبض ونفس الجمال؟ أم دقات القلب المتسارعة حين تلقَى من تحب؟ لعله القلب المكسور بقسوة الزمن وصمت الكلام؟ ربما هي تلك اللغة المشتركة التي هي سر الحياة الذي نجهله فنسميه حبًا، كل هذه التفاصيل لا نجدها ونشعر بها إلا حين نرقب من نحب، أهذا كان ما يشغل نور طوال الطريق؟ لعله؛ فهي لم تنس بعد تلك اللحظات التي تبكي فيها دومًا، والتي هي أجمل اللحظات، فيا لهذه التناقضات الأجمل والأحلى.

كانت ابتسامة نور جميلة وهي تحطّ برحالها لتلتحق بعملها سريعًا قبل أن تسلّم على صديقاتها وكلها شوق لأن تراهن وتسهر معهن؛ لتعرف من خلالهن ما حدث في اليومين الماضيين.

كان يومًا عاديًا يملؤه العمل والجمل الرسمية التي لا تنتهي، وتلك الأوامر العسكرية المتلقاة من القائد دون أن يراه أحد، لينا كانت أول الفتيات التي رأتها نور واستقبلتها بحفاوة، ثم رُبا واعتدال، وأخرهن علا، جمعتهن سهرة جميلة ولقاء حميم لم يكشفه إلا الضحكات المترددة والصوت العالي الذي لا ينتهي من سرد الأحاديث، وضعت لينا ما في أيديها من أكواب شاي ساخنة على الطاولة، ونظرت بمرح إلى نور ثم إلى اعتدال، وقالت بهدوء:

- أهم حدث حصل في المزرعة يا نور أن اعتدال ومصطفى تشاجرا.

اعتدلت نور في جلستها، ونظرت إلى اعتدال الذي لوّن وجهَها حزن وغضب بسيطين، ثم قالت:

– حقًا! هيا أخبروني، ماالذي حدث بالضبط؟

كانت اعتدال تحاول تغيير الموضوع وتبسطه؛ لئلا ينتبه أحد إلى انفعالاتها التي كانت تخفيها خلف أناملها القابضة بقوة على كأس الشاي الساخن، لكن رغبة الجميع في الدعابة والضحك ضيّق الدائرة حول اعتدال التي كانت تظهر استخفافها بالموضوع، قفزت عُلا بسرعة إلى اعتدال وطوقتها بيديها، ثم همست لها قائلة:

– هيا أخبرينا عن حقيقة ما يجمعُكِ بمصطفى؟

أبعدت اعتدالُ عُلا عنها، وقالت بحدة:

– لا شيء، فقد كان كلامًا عاديًا لم يصل إلى درجة الشجار.

نفَت كل الفتيات ما قالته اعتدال حول الموضوع، مؤكداتٌ لنور وجود شرخ بينهما، وقفت نور لتفرض سيطرتها على الجميع، ثم قالت وهي تنظر إلى اعتدال بحب:

– اصمُتن أنتن جميعًا، ولنستمع إلى اعتدال التي ستخبرنا الآن حقيقة ما بينهما.

لم تقل اعتدال شيئًا، بل عَلَا وجهها احمرار بسيط ورغبة في الحزن؛ فحبها لنور منعها من التهرب أكثر؛ لذا حاولت التصنع قليلًا باللامبالاة، ثم قالت:

– مو افقة بشرط.

صرخت جميع الفتيات بصوت واحد قائلات:

– ما هو؟

رفعت اعتدال رأسها بابتسامة حزينة، ثم قالت:

– أن تخبرنا نور بما حصل بينها وبين القائد في الاستراحة ذاك اليوم.

بدأت ملامح نور تتغير والانفعال بدا مسيطرًا عليها، حيث جلست وقالت بتوتر واضح:

– لم يحصل أي شيء مهم، كان لقاءً عاديًا.

كل الفتيات كن ينظرن إلى نور باهتمام، فيما كانت اعتدال تكمل قائلة:

– و أنا كذلك، لم يحصل أي شيء مهم.

لم تصدق الفتيات أيا منهن، فقد شعرت اعتدال بأنها نقلت حرجها إلى نور التي ارتبكت وتوقفت عن الحديث تمامًا وسط ريبة الجميع، لكن اعتدال أصرّت على منع الفتيات من التحدث ثانية حول هذا الموضوع، فقالت مجددًا:

– لا بأس يا نور، سامحناك بالحديث عن ذاك اللقاء، أخبرينا لماذا تأخر القائد في المزرعة ليوم آخر؟

أحست نور أنها أصبحت في دائرة من الإحراج والاضطراب لا نهاية لها، فزرعت نظراتها بأرض الغرفة، ورغبَت بإبعاد الاتهامات عنها، لكن صورة القائد وهو يحتضن يديها بدفء لم تغادر مخيلتها، ونظرات عُلا الهادئة لها منعتها من الصمت طويلًا؛ فابتسمت بمشقة وقالت:

– لا أعرف لماذا تأخر، اسأليه هو.

تنهدت اعتدال وهي تقترب من نور لتمسح ذاك الخجل الذي زينها، ثم همست لها قائلة:

– ستكونين بريئة جدًا إذا اعتقدتِ أننا لا نعرف شيئًا يا صديقتي.

ماذا تعني اعتدال؟ وما مدى معرفتها بهذه العلاقة؟ ومَن غيرها يعرف أيضًا؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور في مخيّلة نور التي نامت بقلق ذلك اليوم.

مرت ثلاثة أيام، لم يحدث شيء جديد، حتى نور لم تحظَ فيهن بلقاء القائد؛ مما زاد من حزنها وشعورها بفقدان الحياة للأشياء الجميلة، كان صمتها الطويل وضحكها المصطنع يزيد من شكّ الفتيات حول علاقتها بالقائد التي كانت لينا تعرف مداها تمامًا.

الساعة الثامنة مساءً... واعتدال تطرق باب غرفة صديقاتها بمرح، فيما كانت جميع الفتيات يجلسن ويتبادلن الأحاديث وسط صمت نور.

– كأن الشتاء سيرحل مبكرًا هذا العام.

كانت هذه أول كلمات اعتدال وهي تنظر إلى نور التي كانت تسند رأسها إلى يديها بملل واضح، لكن كلمة الشتاء لفتت نظر نور التي ابتسمت وكأنها تداعب ذكريات حميمة وقديمة، اقتربت اعتدال أكثر حتى وصلت نور، ثم همست لها:

– أنا آسفة لما حصل بيننا قبل أيام.

حركت نور رأسها نافية غضبها، لكن الحزن كان سيد دموعها التي حبستها بصعوبة، ثم قالت:

– انسي الموضوع يا صديقتي، كانت مداعبات فقط.

– فلماذا أنتِ حزينة إذن؟

تنهدت نور باشمئزاز ولم تحرك أي جزء منها، ثم قالت:

– لأمر آخر، فأنا أتوق الآن لأن تتغير نفسيّتي تمامًا.

مدت اعتدال يدها إلى نور، وأخذت بيدها قائلة:

- إذن تعالِي لأخبرك ما بيني وبين مصطفى.

نهضت نور بسرعة وهي تنظر بدهشة إلى اعتدال، وقد التفتَت جميع الفتيات حولها باهتمام، ابتسمت بسخرية وقالت:

- تجمَع بين عائلتِي وعائلة مصطفى علاقة حميمة منذ وقت طويل، وأثمرَت هذه العلاقة عن رغبة كِلَا العائلتين بتتويج المحبة إلى زواج بيني وبينه.

- زواج؟!

كلمة هزّت جميع الفتيات دفعة واحدة، وقد عذرتهن اعتدال بقولها:

- أجل زواج، وقد تمّ ذلك قبل سنين، كان زواجًا تقليديًا بحتًا، شعرتُ أنا وهو أننا ظُلِمنا فيه، لم يجمعنا حب ولا أية مشاعر كوننا تزوجنا رغمًا عنا، ولم يكن لنا رأي يُذكَر، وللمحافظة على تلك الروابط بين العائلتين بقيَت علاقتنا مع بعضنا رسمية جدًا؛ فهو أخبرني بأنه لا يحبني ولا يرغب بي زوجة له.

كانت اعتدال تكابر على حزنها وألمها؛ فأظهرَت وجهها الآخر الذي لم يعرفه أحد من قبل، بل لم يتوقع أحد أن يكون موجودًا أصلًا، حتى صمتها كان حزينًا وهي تذكر ما كان، تمنّت الفتيات في تلك اللحظات أن تصمت اعتدال، وأبدَينَ ندمَهُن الشديد لطلبهن منها أن تخبرَهنّ؛ فما عهِدْن أبدًا منها أن يلفّها كل هذا الأسى، ووسط استغرابهن ودهشتهن المتواصلة أكملت اعتدال حديثها قائلة:

- استقبلتُ كلامه بروح معنوية عالية، وقدّرت مشاعره وجرأته في صياغتها، وكان الصمت سلاحي، مرت الأيام ونحن أمام الناس بشكل وبيننا بشكل آخر مختلف تمامًا، لا أُخفيكُن أنه رغم إهماله وهروبه مني إلا أنني كنت أحترمه وأقدّره، ثم تحوّل هذا الاحترام إلى حب

حقيقي، لكنني لم أجرؤ على البوح به حفاظًا على كرامتي وتقديرًا لمشاعره، حتى جاء ذاك اليوم.

صمتت اعتدال قليلًا دون أن تنظر لأية فتاة، ثم وقفت وخطَت إلى النافذة؛ لترقب لون السماء الأسود القاتم التي لا تزينه نجوم ولا قمر.

جميع الفتيات كُنّ يرقبنها بحزن، إلا نور التي كانت تمسح دموعها الحزينة قبل أن تعلَم نهاية القصة، التي أكملتها اعتدال قائلة:

– ذاك اليوم رحل فيه مصطفى عن البيت، وترك لي رسالة صغيرة فحوَاها أنه وصل إلى درجة لا يمكن له أن يعيش معي و أنه مسافر، وأخبرني أنه سينفصل عني تمامًا حين يمهد لأهله هذا الأمر، وغادر... لا أعرف إلى أين وكم سيبقى؟ ومتى سيعود، ووصلت إلى الجحيم: تحوّلَت حياتي إلى جهنم حقيقية مع أهلي؛ فأنا لا أعرف شيئًا حتى أُخبرهم به، ولم أفعل طوال حياتي معه ما يزعجه، بالعكس؛ فقد كانت كلماتنا مع بعضنا معدودة جدًا، حتى أنني لا أذكر أبدًا أنه قبَّلَني يومًا ما.

عادت اعتدال للصمت ثانية، لكن هذه المرة كانت الدموع الغزيرة تحرق صمتها، وكذا جميع الفتيات، بدأت اعتدال تمسح دموعها بقوة وهي تحاول الابتسام ثانية؛ فقالت:

– وقد عاد بعد خمس سنين، أهلي رفضوا أن أنفصل عنه، وقد تعذّبتُ كثيرًا وسط اتهامات أهلي بتقصيري نحوه، هذا عوضًا عن حبي وشوقي له الذي أخفيته طويلًا قبل عودته، وحين عاد طلب مني الجميع أن أستقبل الأمر بعفوية وهدوء، وأن أعود زوجة له كما كان الأمر قبلًا، خاصة و أنه لم يبد رغبة في الانفصال عني، عندها طلبتُ من أبي أن

يمهلَنِي شهرًا؛ كي أتهيأ تمامًا لأكون زوجة من جديد، وفي هذا الشهر قدّمتُ أوراقي إلى المعسكر دون علم أحد، وما أن قُبِلتُ حتى انطلَقتُ إليه؛ لأتخلص ممّ يتنظرني من مجهول، فتفاجأت أنه كان معي حتى في المعسكر، وهذه قصتي مع مصطفى.

تلك اللحظة نظرت اعتدال إلى جميع الفتيات والبكاء يسيطر عليهن جميعًا، فضحكت بحزن ثم قالت:

– اصمتن جميعا؛ فما زال في الحياة ما هو جميل يا صديقاتي.

تقدمت لينا خطوة باتجاه صديقتها الحزينة، وقالت بصوت متقطع:

– أمَا زلتم أزواجًا إلى الآن؟

– أجل.

– ألم يخبركِ ماذا فعل في الخمس سنوات تلك؟

– نحن لم نتحدث معًا أبدًا، لكنني علمتُ أنه أنهى دراسته الجامعية الثانية.

– والحب؟

– وضعته في قفص صغيروأغلقت عليه بمفتاح ذهبي، ثم ألقَيته في قلبي لئلّا يفضحني.

أنهَت اعتدال حديثها مع لينا، و اتجهت إلى نور التي ما زالت تمسح دموعها الجميلة، ثم همست لها:

– لهذا السبب كنتُ أريد أن أعرف حقيقة المشاعر التي تربطك بالقائد.

نظرت نور إلى اعتدال بصمت غريب وكأنها لم تفهم ما قالته، فقالت بهدوء:

- ولكن يا اعتدال.

- ولكن ماذا؟! أريد أن أعرف طعم العشق حين يربط بين اثنين، كيف يكون؟ حين رأيتُكِ مع القائد في الاستراحة وأنتِ تبكين شعرتُ أن بكاءك جميل، له مذاق رائع، فأنتِ أمام من تحبين بضعفك وألمك وحزنك، بينما هو يحاول أن يخلصّك بقوة مما تشعرين به، هذا هو الحب؛ رغبة في تغيير معالم الحياة، كل شيء فيه جميل بعذابه وألمه وهيامه وشوقه، أليس كذلك يانور؟

أومأت نور برأسها إلى الأسفل، وقررت أن تخفّف من ألم صديقتها وتشكرها على شجاعتها في سبيل حبها لصديقاتها، فقالت بقوة:

- بلى، وخاصة إذا وصلَت إلى قمة الألم والحزن.

اقتربَت اعتدال من نور وعانقتها بقوة وحب في لحظة جمعت كل الصديقات وكل واحدة منهن تشعر بجمال الصداقة التي تجمعهن، نظرَت نور واعتدال إلى بعضهما، فيما عادت صورة اعتدال المرِحة مجددًا، وقد قبضت على يدي نور بكفّيها قائلة:

- وأخيرًا وقعتِ في شباك الاعتراف.

ضحكت نور بخجل، وضربت اعتدال قائلة:

- وقد وقعتِ أنتِ ولينا من قبلي.

- ولكن...

تحركت اعتدال بزهو إلى مقعدها، ووضعت إحدى قدميها على الأخرى؛ لتسمع كلام نور حين قالت:

- ولكن ماذا؟

- ولكن أنتِ وقعتِ في حب قائد، وليس في حب الرعية مثلنا.

ضحكت نور بصوت مرتفع مع صديقاتها وهي لا تذكر أبدًا منذ متى لم تفعل ذلك.

ثلاثة أيام أخرى مرت ونور لم ترَ القائد، الحيرة والحزن أتعباها؛ هي من كانت السبب، لكنها كانت تجهل كم يومًا سيمرّ إلى جانب تلك الأيام الستة دون رؤيته، هذا ما كان يشغل ذهن نور وهي تجلس في الاستراحة استعدادًا ليوم جديد، كانت عينا اعتدال لا تفارقانها وهي تلوح بملعقة السكر دون أن تنتبه لانفعالاتها المتكررة.

- نور.

نظرت نور بسرعة إلى اعتدال التي همسَت لها قائلة:

- هيا أخبرينا، لماذا تأخر القائد في المزرعة؟

أثار سؤال اعتدال محور اهتمام الجميع وهن ينظرن إلى نور التي ادّعت عدم سماعها للسؤال، كررت اعتدال سؤالها ثانية حتى اضطرت نور إلى الحديث قائلة:

- لا أعرف يا اعتدال، صدقيني.

ضحكت اعتدال بصوت مرتفع، وأشارت إلى نور مستخفّة بحديثها الذي يُظهر كذبها الواضح، بدأت نور تجهز نفسها وتهم بالمغادرة خجلًا وغضبًا، لولا أيدي صديقاتها اللواتي أجلسنها ثانية، وما أن تمالكت اعتدال نفسها قليلًا حتى همست قائلة لنور:

- أنا آسفة يا صديقتي، لم أقصد إزعاجكِ، ولكني أظن أن مشكلتك الوحيدة في هذه الدنيا أنكِ لا تستطيعين الكذب.

الوجوم ما زال يحيط بنور ولم يحسِن حديث الفتيات إرضاءها؛ مما أدى باعتدال إلى أن تقف وتتجه نحوها معتذرة؛ لتخفف من الجو الغاضب بينهما، ثم قالت:

- إذا كان يغضبكِ حديثي أعطيكِ توقعاتنا وأنتِ تختارين الصحيح منها، أظن أن هذا الاقتراح لا يغضب أحدًا.

هزّت جميع الفتيات رؤوسهن موافقات على ما قالته اعتدال، ثم وجهن أعينهن إلى نور التي استسلمت في النهاية لهذه الدائرة الشقية من الصديقات.

عادت اعتدال إلى كرسيها سعيدة ومتكئة على يديها، وقبل ان تقول شيئا فاجأتها نور بقولها:

- كان يريد أن يبرّر لي زواجه من سامية.

شعرت نور أنها أُنقذَت من فخ اعتدال، التي رفعت رأسها رافضة كلام صديقتها، ثم قالت:

- وما الجديد في الموضوع؟ لقد برّر لنا جميعًا زواجه، إلا إذا برّر لكِ بطريقته الخاصة.

عضّت نور على شفتيها، واتجهت بنظرها إلى فنجان القهوة الذي زرعت فيه خجلها، ثم قالت:

- ماذا تعنين بطريقته الخاصة؟

- هذا ما أريد أن أعرفه يا صديقتي.

بدا العتب واضحًا على ملامح نور التي جالت في ذاكرتها ثوان معدودة، ثم قالت بحزن:

- لو كان له طريقة خاصة لما تغيّب عني ستة أيام دون أن أراه، وما دام أمري لا يعنيه شيئًا هو كذلك... أمره لا يعنيني شيئًا.

ضحكت اعتدال وقد تغيّرت ملامح وجهها دون سبب تعرفه نور، ثم قالت:

- أعرف أنكِ كاذبة؛ فتضاريس وجهكِ ستتغير الآن حين توجهين رأسكِ إلى الخلف؛ لتري القائد وهو يدخل إلى الاستراحة.

وفعلًا اضطربَت نور وتركت ملعقة السكر بسرعة، ثم رفعَت يدها؛ لترفع خصال شعرها وهي تضحك بخجل وسط ترقب الفتيات.

- صباح الخير.

كلمة صدرت من أربعة؛ القائد، ليث، مجد، ومصطفى، وقد فهمَت نور سبب تغير ملامح اعتدال إلى الأسوأ، لكن قرب القائد منها أنساها الكثير من تفاصيل ذلك اليوم.

- كيف حالكن؟

كان صوت القائد مشتاقًا، هادئًا، وخاصة تلك الابتسامة التي ملأت وجهه كما تخيلتها نور.

- نحن بخير.

وضع القائد يده مباشرة على مقعد نور؛ مما أشعرها بأن حرارة فصل الصيف كلها اجتمعت في وجنتيها؛ فتمنت لو أنها لم تستمع لصديقاتها ولم تأت إلى الاستراحة هذا اليوم، الجميع كان ينظر إلى الاثنين؛ نور والقائد، الذي وقف مباشرة خلفها يضع يده على مقعدها، ويهمس بصوت واضح:

- نسيتُ أن أهنئَكِ بسلامة العودة يا نور.

كانت أنامل نور تختبئ في حِجرها، فمن الواضح على نبرة القائد أنه عاتب وفي نفسه شيء من الغضب، إلا أن نور أصرّت على ألا تقع في براثن عيون الجميع وهي تنظر إليها منتظرة الجواب، فقالت:

– شكرًا.

ابتسم القائد بحب وهو يقلّب بعينيه انفعالات نور، التي رغبَت اعتدال برفع الحرج عنها قليلًا، فقالت:

– نحن جميعًا عاتبون عليك؛ فمذ ستة أيام لم نركَ ولم تسأل عنا.

كان رد مصطفى جاهزًا وهو ينظر إلى اعتدال قائلًا:

– منذ متى تهتمين بالوقت؟

لم تقل شيئًا، بل إنها لم تنظر إليه؛ فقد كان كلامها متجهًا إلى القائد فقط، إلا أن صمته أشعرها بضرورة الرد حين أجابت:

– منذ وقت طويل.

– حقًا! إذن هناك أمور ما زلتِ تهتمين بها؟

ارتفعَت حدة التوتر بينهما، وبدا الغضب يطوف بين الجميع حين قالت:

– لا شأن لك، يجب أن تعلم تمامًا أنكَ آخر إنسان على وجه الأرض يمكنه أن يهتم بأموري.

كان الاستغراب يجمع بين القائد وليث ومجد، إلا الفتيات اللواتي على علم بأسباب هذا الخلاف، كانت نظرات الغضب تسيطر على مصطفى الذي يواجه شراسة اعتدال في الدفاع عن نفسها؛ فصرخ في وجهها قائلًا:

-بل يجب أن تعلمي أنكِ آخر إنسانة على وجه الأرض يمكن أن أهتم بشؤونها.

انفجرَت اعتدال بالبكاء، في حين وقفت جميع الفتيات؛ لتهدئة الوضع بينهما وسط علامات الاستفهام المطروحة من القائد لهما، فقد كان آخر ما توقّعه القائد أن تقف اعتدال بوجه مصطفى وتقول بحسرة وألم:

- إنكَ حقيرولا تستحق الاحترام.

كل شيء تغير في لحظات، وكأن الضحك والابتسام الذي كان يحيط بالاستراحة قبل قليل تحول إلى عاصفة من الغضب، حتى مصطفى الذي لم يعهده أحد على غير ابتسامته كان يحاول رفع يده؛ لينزلها غضبًا على وجه اعتدال، لولا نور التي اقتربت من القائد متوسلة له بصوت خائف:

- سيدي، أرجوك أوقفهما.

صوت نور أيقظ القائد من غفلته وصدمته بما يجرى؛ فصرخ بصوت قوي:

- توقّفا عن الشجار، والْحقَا بي إلى المكتب.

شعرت نور بالذنب لما حدث؛ فقد كانت تظن أنها السبب، وخاصة أنها رفضَت الإجابة على أسئلة القائد فكان ما كان، ولوقت متأخر لم تعد اعتدال ولم يرها أحد، ماذا حصل؟! لا علم لأحد، رغم أن لينا تسلَّلت من خلال ليث لمعرفة الأخبار دون جدوى؛ لأن الجلسة كانت سرية بين الثلاثة، و انتهى ذلك اليوم حيث نام الجميع دون علم بما حدث يوم أمس.

رغم أن اليوم الجمعة إلا أن الجميع استيقظ باكرًا كعادته كل صباح، وما أن فتحَت نور عينيها حتى انطلقت إلى غرفة اعتدال؛ لتطمئن على ما حصل، خطوات قليلة تفصل بين الغرفتين، فتحت اعتدال الباب وكان واضحًا عليها قلة النوم، أو بالاحرى عدمه؛ فقد كان وجهها شاحبًا يعلوه الاشمئزاز والسخرية، أغلقَت نور الباب، و اتجهت إلى صديقتها قائلة:

- هيا طمئنيني عمّا حدث بالأمس.

لم تقل اعتدال شيئًا، بل أكملت خطواتها تجاه المطبخ؛ لتعد قهوة الصباح، تأفّفت نور قليلًا ولحقت بصديقتها ملحّة عليها بالإجابة دون فائدة، فأمسكت يدها مُوقِفة إياها بالقوة، وكرّرت السؤال عليها؛ مما أثار غضب اعتدال، وقالت:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

- ماذا حدث بينكما بالأمس؟

- لا شيء، ما قلته لكم قلته أمام القائد، وقد عطف على السيد مصطفى بمسامحته على شتمه أمام الجميع.

- وماذا كان موقف القائد؟

كانت نور مهتمة وهي تتجه وراء اعتدال؛ لتعرف تفاصيل ما حدث، رغم أنها على يقين بمدى غضب صديقتها حين وقفت فجأة، وقالت:

- أنا لا أعرف كيف يفكر حبيبك هذا؟ وكأنه لا يعرف شيئًا في الكون اسمه رقة، لا أفهم كيف تتعاملين معه.

نظرت نور بعتب إلى اعتدال، وقالت:

- لا تقولي عن القائد هذا الكلام.

- أنتِ غبية ولا تعرفين شيئًا.

- الرقة خُلقَت للمرأة فقط، أما الرجل فعليه أن يكون قاسيًا؛ ليكون جذابًا يا صديقتي، المهم ماذا حدث بالأمس؟

صمتَت اعتدال وألقت ما في يديها من أدوات، ثم بكت، كان بكاؤها حارًا وصادقًا؛ مما أثار شفقة نور وتعاطفها، مر وقت قصير قبل أن تعود اعتدال لصنع القهوة، وهي توجه كلامها إلى نور قائلة:

- لقد طلب مني أنا ومصطفى أن نغادر غدًا إلى المزرعة نقضي فيها أسبوعًا؛ لنحل ما بيننا من مشاكل، وقد هيأ لنا الظروف اللازمة لذلك.

- ثم؟

- إذا لم نفلح في حل مشاكلنا؛ فسيجبرنا على العيش معًا في سكن تابع للمعسكر حتى نعود كأزواج حقيقيين على حد تعبيره.

قفزت نور سعيدة بما سمعت، وتنهدت بفرح ثم قالت:

- ياللروعة.

- بل ياللأسف.

- ما أجمل أن يلتقي العاشقان والغضب يجمعهما؛ فنكهة الرضا والصلح تكون الأجمل والأروع.

نظرت اعتدال بسخرية إلى نور، وصححت لها معلوماتها قائلة:

- هذا إذا كان العشق واحدًا متبادلًا، كما أنتِ والقائد.

- وهل يعني أنكِ ستغادرينا عمّا قريب؟

- أجل يا صديقتي.

كان يومًا غريبًا؛ اعتدال تشعر براحة نفسية رغم أن الأمور تسوء كما ترى، الجو ماطر دون الشعور بالبرد، أما مصطفى فتخونه الكلمات ليعبر عن حبه وأسفه لاعتدال، الجميع تناول طعام الغداء وهو يفكر بما حدث وسيحدث، لكنهم كانوا يجهلون بما يمكن أن ينتهي عليه هذا اليوم العجيب.

طُرِق الباب بقوة، أسرعت عُلا لفتحه، وتفاجأ الجميع بوقوف القائد وليث ومجد؛ أمر غريب، نظرت جميع الفتيات إلى بعضهن، فيما كان الغضب واضحًا على القائد؛ فهو لم يسلم حين دخل؛ مما دفع اعتدال أن تقول بعد تحديق القائد بها مطولًا:

- لا تحدق بي؛ فأنا لم أفعل شيئًا، وسأنصاع لكل أوامرك يا سيدي.

كانت عيون القائد تطوف بالجميع لتستقر على عُلا قليلًا وعلى ربا، فيما وقفن جميعهن احترامًا له، شعر البعض أن ثمة مشكلة تزعج القائد؛ فما هي؟ هذا ما بدا يتضح حين وقف أمام علا قائلًا:

- من التي استلمت البضاعة من المخزن الساعة السادسة مساءً بالأمس؟

ارتبكَت عُلا وخشيت مما هو قادم، خاصة وأنها تقرأ الغضب في عيني شقيقها، حيث ردت قائلة:

- أنا ورُبا.

- ولماذا لم توَقِّعنَ على استلام البضاعة؟

عضَّت رُبا على شفتيها وهي تحاول تدارك هذه الكارثة التي حلّت بهما؛ فأصابها الخوف والاضطراب، إلا أنها وضّحت موقفها قائلة:

- لقد اعتمدتُ على عُلا يا سيدي.

- حقًا؟ و أنتِ يا آنسة عُلا؟

مسحَت علا بعض قطرات العرق المتصببة منها، وقالت بصوت خافت:

- و أنا اعتمدتُ عليها.

- ممتاز، وكلاكما لم تنتبها إلى أن ليس ثمة توقيع على ورقة الاستلام، ألا تعرفان أن هذا قمة الإهمال في المعسكر؟

لم يجرؤ أحد على الحديث، كان الجميع يستمع ويلحظ غضب القائد الذي أمر مجد باستجوابهما؛ لإنزال العقوبة القصوى في حقهما.

ظن الجميع أن الأمور انتهت إلى هذا الحد، والقائد يتجه برفقة أصدقائه إلى الباب للخروج، لولا توقفه برهة ونظره إلى نور التي كانت ما تزال و اقفة تحدق فيه بحذر شديد، لحظات قليلة مرت قبل أن يقول بجدية موجهًا حديثه لنور:

- ماذا ستفعلين الساعة الخامسة مساءً؟

ارتبكت نور، وخجلت قليلًا من نظر الجميع إليها، ثم قالت:

- لا شيء سيدي.

- هل أستطيع إذَن رؤيتك في الاستراحة؟

أومأت نور برأسها موافقة دون أن تقول شيئًا، وما أن خرج القائد حتى توجّهت كل الفتيات إليها يستفسِرن عما يريده، ووسَط قسَمِها بأنها لا تعرف شيئًا ابتسمت لينا بخبث، ثم قالت وهي تجلس على المقعد:

– إما أنه يريد توبيخك على أمر فعلته، أو يريد أن يقول لكِ كلامًا جميلًا لا يريدنا أن نسمعه.

احمرّت وجنتا نور وهي تستمع لكلام لينا وتوجه رأسها إلى اعتدال، والتي أكملت قائلة:

– إذا كان كلامًا جميلًا فليس من حقنا أن نسمعه، أما إذا كان توبيخًا فيجب أن يكون أمام الجميع مثلنا تمامًا.

لم تقل نور شيئًا، بل ابتسمت وكانت يداها تتحركان بتوتر خوفًا مما ينتظرها بعد ساعتين؛ لذا قرّرت أن تفرّغ الساعة التي تسبق اللقاء بترتيب نفسها جيدًا، وهذه الساعة اقترحت على اعتدال أن تجهز لها حقيبتها؛ تمهيدًا لذهابها إلى المزرعة غدًا مع مصطفى، حاولت نور في غمرة تفكيرها أن تتذكر شيئًا فعلته كان سببًا في استدعاء القائد لها، فلم تصل إلا إلى نتيجة واحدة؛ هي ما قالته في آخر لقاء بينهما؛ فعاد على أثره هو ومجد إلى المعسكر، كانت أنفاس نور متوترة ومتقلبة، كذلك دقات قلبها، وكل الأفكار تنازعها حتى أنها لم تحدّث نفسها بأية فكرة حسنة، لهذا رفضت الحديث مع صديقاتها أو الرد على كلامهن، أو حتى تناول الطعام والشراب، كم بقي من الوقت؟ نصف ساعة! وتعرف كل شيء؛ فقد قررت أن تخرج مبكرًا من السكن لتخفف من حدة توترها قبل الوصول إلى الاستراحة.

الهدوء يعم المعسكر؛ لأن اليوم عطلة، الشتاء يملأ أطراف الأرصفة والسماء دون غيوم أو سحب، كأنه يوم ربيعي جاف، كانت نور ترقب كل شيء، حتى ألوان العصافير التي اكتشفَت لتوها أنها تحمل معان مختلفة، ظنّت أنها أصبحت في دوامة لن تنتهي، ولا علاج لنهايتها إلا أن تواجه الموقف بكل تفاصيله ونتائجه، ها هو القائد يجلس على تلك الطاولة التي تشاجرا عليها حين أعلن عن حبه، هل هو الآن هنا ليعلن انتهاء حبه؟ هذا ما أزعج نور حين رأته جالسًا وعلى وجهه معالم غضب.

- مساء الخير.

ألقت نور التحية على القائد بقلق واستياء، رفع رأسه ونظر بتمعن إليها، ثم ابتسم لتتغير كل معالم وجهه إلى الحب، ثم قال:

- مساء النور، اجلسي.

كانت أنامل نور ترتعش وهي تحرك المقعد لتجلس عليه، رغم أنها لم تقرأ في عيني القائد ما يزعجها، جلست ولم تقل شيئًا، ولم تجرؤ على النظر مباشرة إليه، حاول أن يعطيها فرصة من الوقت لتستجمع قواها قبل أن يقول شيئًا، رغبت في ملء اللحظات بالبكاء؛ فهي مضطربة ولا تفكر إلا بالسيء من الظن، فهم القائد توترها ورغبتها في أن ترتاح من عناء التفكير القاتل؛ فقرب مقعده من الطاولة قليلًا، ثم قال بهدوء وحنو:

- لقد اشتقتُ إليك.

تنفست نور الصعداء، وأرخَت أناملها المتوترة؛ ليزهو وجهها بابتسامة جميلة وعاشقة، ومع ذلك لم ترفع عينيها بعد، لكنها وبعد توتر شديد وخجل طويل قالت بصوت واضح:

- و أنا كذلك يا سيدي.

داعب القائد بأنامله الطاولة في حركه تنمّ عن عتاب صغير، ثم قال:

- نور، حين أكون أنا و أنتِ وحدنا بعيدَين عن حياتنا العسكرية نادني باسمي فقط، و انسِي تمامًا أنني قائد أو سيد هنا.

صمتَت نور للحظات وهي تفكر فيما قاله القائد، ثم قالت:

- ولكن...

- ولكن ماذا؟

- ولكني لم أعتَدْ على هذا أبدًا.

تنهّد القائد بمرحٍ وهو يحتوي نور بعينيه ولا يرى سواها في قلبه، ثم قال:

- يجب أن تعتادي؛ فمن حقي أن أسمع اسمي من فم من أحب.

أعادت نور بحركة خفيفة بعض خصلات شعرها التي اعتدَت على وجهها، وقد بدأت تشعر قليلًا بالشجاعة، لترفع عينيها باتجاه قائدها قائلة:

- حاضر، أعدكَ بأنني سأحاول.

شعرت نور في هذه الدقائق التي جمعتها مع القائد بأنها تغمس السعادة في طبق ذهبي من الحياة وتضعها في قلبها، وكأنها لا تريد أن ينتهي أبدًا، فلم تكن الابتسامة تغادر محياها، وقد وعدَت نفسها بألا تفكّر في انتهاء هذا اليوم الجميل، كانت تحاول هي والقائد أن يتحدثا في أمر يجمعهما لأول مرة دون

عتاب أو قسوة، فقالت:

- لقد أخبرَتني اعتدال أنك ستوجّه لي كلامًا جميلًا لا تريد من أحد أن يسمعه.

ضحك القائد، ورد على نور قائلًا:

- يالها من فتاة متعبة؛ لقد أتعبتني حتى استطَعت إقناعها بالذهاب إلى المزرعة.

رفعت نور رأسها وقد ملأت وجهها شجاعة وهي تنظر إلى القائد بسعادة، ثم قالت:

- هل تعتقد أن اقتراحك بشأنهما يمكن أن يُثمِر عن شيء بينهما؟

نظر القائد إلى نور وكأنها أخطأت في أمر ما، ثم قال مبتسمًا:

- ماذا تعنين بكلمة شيء؟!

حين التقَت أعينهما عرفت نور بسرعة بما يفكر فيه القائد؛ فأشاحت وجهها بخجل شديد، وقبضت على يديها بقوة، خاصة وهي تسمع صوت ضحك القائد الذي تسبّب في ارتباكها وإحراجها أكثر، رغبت قليلًا في الدفاع عن نفسها بعد صمت دقائق، فقالت:

- يبدو أنني أسأت التعبير.

- يبدو ذلك، وفي كل حال حتى بعد عودتهما سأجبرهما على العيش سويًا، فقد أعددتُ لهما بيتًا ملحقًا في المعسكر سيسعدان به.

- ولكن اعتدال تعتبر أن هذا قسوة بحقها.

- قسوة!

- أجل، هل تظن أن الجميع يمكن أن يحتمل قسوتك مثلي؟

ابتسم القائد وهو ينظر إلى نور بعتابِ عاشق، ثم مد يده بهدوء لتحتضن كفها الأيمن، ثم قال:

- ولماذا احتملتِ قسوتي؟

لم تجرؤ نور على التعبير إلا بملامح وجهها الخَجلَى والتي لوّنها القائد بجرأته وحبه، فقال هامسًا:

- أجيبي عن سؤالي؟ لماذا احتملتِ ثلاث سنوات متتالية؟

ابتسمت نور وهي ترقب الغروب يتراقص أمامها معلنًا رحيل يوم لم تشبع منه بعد، ثم قالت:

- لا أعرف.

- بل تعرفين.

- ربما؛ لأنك عامل نظافة.

مرت لحظة قبل أن تنتابهما موجة ضحك متتالية، كانت على أثرها ما تزال يد نور أسيرة بيد القائد الدافئة، كانت هذه الضحكات تُشعر نور والقائد أن الفجر أشرق من جديد، وأن الليل لا وجود له إلا إذا زيّنه قمر العاشقين ونجمة الحب، صمتا مجددًا وكان الصمت بينهما معبرًا، وكذلك الابتسامة التي ترتاح على شفتيها، نظرت نور إلى النافذة التي بدا الليل يغزوها فلم يتبقّ إلا ساعة واحدة ويغلق السكن أبوابه، إلا أن القائد طمأنها قائلًا:

- لا تفكّري في أي أمر مزعج و أنتِ معي.

أعادت نور نظرها إلى القائد ثانية، وكذلك الابتسامة على وجهها، ثم قالت:

- هذه أول مرة لا أشعر فيها بالخوف منك، فحتى اليوم و أنت تتحدث إلى رُبا وعُلا كنت خائفة كأنني طفلة صغيرة.

تحوّلت ابتسامة القائد في لحظة إلى غضب وهو يفرك بيده جبينَه قائلًا:

- لقد كان أمرًا مزعجًا.

حاولت نور أن تخفف من وطأة انزعاجه قليلًا، ثم قالت:

- هل أستطيع أن أتدخّل في الموضوع؟

برقت عينا القائد بغضب وهو ينظر بحدة إلى نور كأنه يستهجن ما قالته؛ مما حدا بنور إلى الاعتذار فورًا وبصدق، إلا أن هذا لم يمنعه من التعليق قائلًا:

- نور، إياكِ في أي حال من الأحوال أن تدّخلي بعملي؛ لأنني سأغضب غضبًا شديدًا، فأنا لا أسمح لأي إنسان مهما كان قريبًا مني أن يفعل ذلك؛ لأنه سيخسَرَني إلى الأبد، أرجوكِ، وما سوى ذلك افعلي ما تشائين.

صمتت نور، كان صمتها غضبًا، فقد سارعت إلى سحب يدها بهدوء من كف القائد الذي أعادها ثانية وبقوة، ثم قال:

- أغضبتِ؟

حركت نور رأسها نافية للغضب، لكن نبرة تهديد القائد أزعجتها، وأشعرتهُ بأنه كان قاسيًا معها قليلاً؛ فأعاد ملامح وجهه إلى الابتسام ثانية وهو يرى نور تحدق بالطاولة أمامها وترفض النظر إليه، فقال:

- لماذا لم تسأليني عن الهدية التي أحضرتُها من السفر؟

حاولت نور أن تخرج من جوّ غضبها وتغيّر الموضوع؛ لتستغل الوقت القليل المتبقي بينهما، إلا أنها لم تفلح كثيرًا، حيث قالت:

- لأنها لمن تحب.
- وهل سواكِ من أُحب.

لم ترضَ نور بعد، بقيت ملامح بسيطة من الغضب أصر القائد على قتلها؛ فهمس قائلًا:

- حين تعودين إلى السكن ستكون في انتظارك.

نظرت نور إلى القائد وفي عينيها ضعف وعتاب، فقالت:

- وما هي؟
- لن أخبرَكِ.

ابتسمت نور لشعورها برغبة القائد في إرضائها وإزعاجها في آن واحد، ثم قالت:

- بل ستخبرني.

رفع القائد نظره إلى الأعلى إشارة إلى عدم سماعه لما قالته نور، رغبة في مداعبتها ورؤية ابتسامتها الجميلة؛ مما جعل نور تلحّ عليه في معرفتها، فرد قائلًا:

- أنصحكِ أن تريها وحدكِ دون أن أخبركِ.

حركت نور رأسها بقوة، رافضة لما قاله القائد ومهددة له بالغضب فعلًا؛ حتى أعلن استسلامه قائلًا بشيء من العشق المختبئ بالهمس:

- ثوب زفاف.

كل شيء تغير بسرعة، صمتت نور وهي تداري حياءها وندمها على عدم انصياعها لنصيحة القائد الذي كان ينظر إليها بزهو وعشق قديم، كان يعلم أن نور لن تستطيع أن تقول شيئًا، فقال هادئًا:

- متى سترتدينه؟

زاد سؤال القائد ارتباك نور وقد شعرت بأن يدها المختبئة بكفه أصبحَت شلالًا من العرق المتصبب أو جمرة من نار لن تنطفئ، ابتسم وهو يرقب انفعالاتها السريعة المتأججة؛ فأراحها من عناء الإجابة، حيث قال بدفء:

- عندما يزهر شجر اللوز حتى تشاركنا مُنَى فرحتنا، هل يناسبكَ هذا الوقت؟

لم تفكر نور بأي شيء إلا برغبتها في أن ترتمي بأحضان القائد إلى ذاك الموعد.

كان يوما رائعًا، ما أن أنهته نور بالنوم على سريرها حتى كان يساورها شعور أن هذا السرير أصبح حديقة مزهوة بألوان قوس قزح في سماء الوطن.

أغلقت اعتدال حقيبتها ببطء وتوتر واضح، وكان هذا شأن الجميع؛ عُلا ورُبا ممّ ينتظرهن من عقوبة، ولِينا التي تحضّر لحفل زفافها، واعتدال للمجهول التي ستلاقيه قريبًا، إلا نور التي كانت في فرحة متجددة كل لحظة، ولم تشعر أنه يمكن أن يعكر صفو سعادتها أي طارئ؛ فهي تعبت كثيرًا وقسَت الأيام عليها حتى جَنَت هذه اللحظات الجميلة من الزمن المتغير إلى الأسوأ دومًا.

دقائق مضَت وكانت اعتدال تقف أمام السيارة التي ستستقلها مع مصطفى؛ حيث كان يقف في انتظارها، وما أن الْتقَت عيونهما حتى بادرت إلى إظهار عدائية واضحة، وقالت بجدية:

– أريد أن أُسدي لكَ نصيحة مهمة أرجو أن تأخذ بها قبل أن ننطلق من هنا، أنا لا أملك أبدًا وقتًا للحب؛ فلا تنتظر مني أن أقابلك إلا بالكراهية فقط.

لم يُجب مصطفى على أية كلمة، بل استقلّ السيارة إلى جانب مجد ومَضُوا جميعًا إلى المزرعة، رغم غضب اعتدال الواضح؛ لأن مصطفى لم يُعِر أي اهتمام لكلامها.

– ماذا كان يريد القائد منكِ بالأمس؟

كان سؤال لينا لنور يشعرها بأنها كانت معهما؛ فسمِعَت كل ما قاله القائد، لكن نور تداركت نفسها للحظات وقالت:

– لا شيء.

– أمر غريب؛ ثلاث ساعات متواصلة وتقولين لا شيء.

- أعني لا شيء يهم الآخرين.
- إذن كانت جلسة مغازلة وعشق.

كررت نور النظر إلى لينا، توقفت قليلًا عن ارتداء ملابسها العسكرية، وقالت بجدية:

- لينا، من فضلِك لا تتحدثي في هذا الموضوع.
- إذن ما سر ذاك الصندوق الذي وصلكِ يوم أمس؟
- لم أفتحه بعد.
- لا تنسِي يا عزيزتي أن تُرينا إياه حين تفتحينه.

ضحكت نور بعفويةه هي ولينا وكأنهما يفهمان بعضهما تمامًا؛ فنور لم تستطع أن تفتح الصندوق خوفًا من كشف صديقتها له؛ لذلك آثرت أن تحتفظ به في مكان آمن؛ لعل الزمن يكتب لها أن تفتحه مع القائد مباشرة.

كان الطريق إلى المزرعة مبتلًا رغم أن السماء لم تمطر كثيرًا، اعتدال تصارعها أفكار كثيرة وبائسة؛ فهي تعلم تمامًا أنها لن تخرج بجديد من هذا اللقاء، شعرت أن الضغوط النفسية تفرض نفسها عليها باستمرار؛ فاستسلمت للألم والحزن المتراكم على قلبها منذ سنين، وما أن وصلت مع مصطفى وودعهما مجد على أمل اللقاء بعد أسبوع حتى انقلبت فجأة وتغيرت ملامحها ودقات قلبها، خاصة بعد استقبال الجدة لهما بالسرور وكأنهما تزوّجا لتوهما، ولم يزد توترها إلا بعد أن دلتهما على غرفتهما التي سيقطنانها معًا طوال هذه المدة، وأخيرًا واجهَت اعتدال هذا الموقف الصعب رغم استبعادها له سنين طويلة، وما أن حطّت رحالها وجلست حتى شعرت بضيق وألم يسيطر عليها.

اقتربت الجدة منها ومسحت على جبينها قائلة:

- ما هذا الشحوب البادي على وجهكِ فجأة يا ابنتي؟

اتجهت كل الأنظار إليها، و اقترب منها مصطفى قائلًا:

- ما بكِ يا اعتدال؟ هل أُحضر لكِ طبيبًا؟

في لحظة واحدة لم تذكر اعتدال سواها، كانت ترى الجميع يحيط بها يسألها عن حالها، ثم غابت عن وعيها تمامًا.

مر وقت عمره ساعة زمن طويلة وما زال الطبيب يرقب حالة اعتدال ومرضها المفاجئ الذي أحزن الجميع، يتخلّلها قلق مصطفى وارتباكه الواضح مترقبًا لما سيقوله الطبيب، والذي أكّد على أنها حالة عصبية تبعًا لظروف ضغطَت عليها، وقد يرافقها مضاعفات؛ لذا يجب الاهتمام بها لتجاوز مرضها، ودّع مصطفى الطبيب وعاد للغرفة حيث اعتدال تسكن فراشها، وكأنها تجمع تعبًا وألما وذكريات حزينة، وتزرعها في ملامح وجهها و أناملها الهادئة، جلس إلى جانبها ينظر إليها بتمعّن وهي تستسلم للمرض كزهرة داستها خيول سريعة، ثم ألقى رأسه بين كفيه متنهدًا، وهو يلوم نفسه على كل هذه الجراح التي أودت بحبيبته بين يديه.

- مصطفى..

نظر بسرعة ليرى الجدة تقف أمامه والحزن يحرك شفتيها بسرعة، ابتسم وهدّأ قليلًا من حزن الجدة، ثم قال:

- لا تقلقي يا جدتي؛ ستكون بخير، أنا لن أفارقها أبدًا، تستطيعين الخلود إلى النوم بهدوء.

- ألا تريد أن تتناول طعام العشاء؟

– لا يا جدتي، شكرًا لكِ، فقد وقفنا عند استراحة وتناولنا الطعام.

– إذا رغبتَ بأي شيء فلا تتردد في إيقاظي، تصبح على خير.

– تصبحين على خيريا جدتي.

شعر مصطفى أن اعتدال ستبدأ تعاني من ارتفاع في الحرارة، اقترب منها ولازم فراشها مستخدمًا كل الوسائل التي يمكن أن تشعرها بالراحة ونسيان الألم، الليل ما زال في بدئِه، يدق أبواب المزرعة ويهمس في أذان السهارَى أن ثمة الكثير من الناس ما زالوا مستيقظين ولن يناموا، من هم؟ إما عاشقون، متألمون، أو تائهون وسط الحياة التي لا تنتهي، ولكن مهلًا! أوليس العاشقون متألمين؟! هما وجهان لشطرَي بدر في ليلة صافية، لقد تأكد مصطفى في تلك الليلة الطويلة أن العاشق يفقد الشعور بالزمن والتعب والحزن إذا كان برفقة من يحب، وما كان يؤلمه شعوره بأن اعتدال تعذّبَت كثيرًا كثيرًا لفقدانه خمس سنين متتالية، فكيف سيعيد لها الزمن ليحبها مجددًا؟! وليهمس لها بأن ليس في الدنيا سواها، كانت حرارة اعتدال المرتفعة تشعره بالألم يدبّ في أوصاله ولا يدعه يهنأ بدقيقة راحة واحدة يهديها لها، كيف سينتهي هذا اليوم وهذه الليلة؟ لم ينتبه مصطفى إلى الساعة أبدًا، ولم ينس أن يخبر كل أهل المزرعة ألا يُعلموا القائد بمرض اعتدال أو تعبها.

الساعة الثانية فجرًا... وقد قرر مصطفى أن تكون هذه الضمادة الأخيرة المبتلة بالماء على جبين اعتدال؛ فحرارتها عادت طبيعية تمامًا، رغم أنه لم يظهر عليها أي ارتياح، بقيت ساعتان لطلوع الفجر، لا يهم؛ ما كان يهمه أن يشرق فجر اعتدال فقط وتعود لصحتها مجددًا.

الساعة السادسة والنصف صباحًا... قبل الطابور الصباحي بنصف ساعة، ونور تقف أمام مكتب القائد في مهمة رسمية، دخلت بهدوء وألقَت تحية الصباح على القائد وليث ومجد؛ فردوا بسرعة و انتباه، ونظر ثلاثتهم إليها وهي تداري ارتباكها الواضح قائلة:

- سيدي، من فضلك نودّ الاطمئنان على اعتدال.

نظر القائد إلى نور بحب مخفي خلف بزّته العسكرية قائلًا:

- فلنعطهم فرصة ليوم آخر يا نور.

- ولكنّني قلقة عليها.

ابتسم القائد وهو يستمع لكلام نور، بينما كان يناول مجد البريد اليومي، ثم قال:

- لكنها مع زوجها، ولن نستطيع أن نصنع لها شيئًا أكثر منه، إلا أنني أعدكِ أنني سأحدثهم غدًا وأطمئنكم عليهما.

شكرت نور القائد وغادرت؛ لتستقبل يومًا جديدًا لا تعرف كيف استقبله مصطفى الذي لم ينم دقيقة واحدة وهو يشرف على راحة اعتدال، ومع كل ذلك لم يشعر بالتعب والإرهاق، إلا حين تفاجأ بالجدة وقد استيقَظَت مبكرًا ومعالم الشفقة ظاهرة عليها، ثم قالت:

- ألم تنَم يا بني؟

- لا يا جدتي، ولكني بخير؛ لا تقلقي.

- إذن اذهب لتنام قليلًا، بينما نحن نبقى إلى جانب اعتدال.

ضغط مصطفى قليلًا على رأسه وعينيه تزدادان حمرة، ثم قال مبتسمًا:

- لا يا جدتي، أنا سأبقى مع اعتدال، وإذا كان من خدمة تسدونها لي فاصنعوا لي فنجان قهوة فقط.

استغربت الجدة من عناد مصطفى وإصراره على بقائه إلى جانب مريضته رغم وجودهم جميعًا، فهزت رأسها مغادرة الغرفة؛ لترقب صباح هذا اليوم الجديد، وقت النهار كان أكثر سرعة لوجود الأحباب الذين يختصرون الوقت ويقصّون أطرافه، وهذا ما كان يشعر به مصطفى رغم أن اعتدال لم تستجب بعد للعلاج، إلا أنه من الظاهر أن شعورها بالألم بدأ يخفّ تدريجيًا، وهذا ما كان يريحه قليلًا، فالساعة تمام الواحدة بعد الظهر؛ حيث ألقى بنفسه على السرير إلى جانب اعتدال وغرق في النوم لمدة ساعة واحدة فقط، لا يعرف كيف بدأت وكيف استيقظ؛ لتنتهي آملًا أن ينتهي معها استسلام اعتدال لمرضها وألمها، لم تكن الغرفة تفرغ ولو قليلًا؛ فأحباب اعتدال كُثُر وجميعهم يتمنون راحتها، وخاصة تلك العينان اللتان تسكنان وجه مصطفى، لم تغادراها رغم ذاك الإرهاق والتعب الشاق الذي يحيطهما، كان يكتم حزنه ويطلق لعنان ذكرياته التسلل إلى قلبه حين كان يجمعه مع اعتدال بيت واحد،

ما كان يشعر به أو بها، لقد شعر للحظة أنه يُعاقَب على ما فعله بغزو حب اعتدال إلى قلبه ومنعه من التنفس إلا بعشقها، كان يبتسم وهو ينظر إليها هادئة لا تشعر بعناء الحياة وألمها، ذاك الشعر الأسود الهادئ يملأ وسادتها جمالًا ويزيدها تألقًا، تبًا! أمَا في الحياة سعة لكي نعشق من جديد؟!

نظر مصطفى إلى الجدة، وقد دخلت مثقلة بقلقها قائلة:

- القائد يريد أن يتحدث معكَ على الهاتف.

وقف مصطفى مرتبكًا، ومشى خطوات، ثم نظر إلى الجدة قائلًا:

- هل أخبرتموه بما حدث؟

- لا يا بني.

وهذا كان شأن مصطفى الذي أعلم القائد بأن الأمور جيدة، رغم أنه كان يحمل في لهجته أسًى وقلقًا واضطرابًا، لكنه تمنّى ألا يكون القائد قد شعر بأي منها.

الجو دافئ بعض الشيء، والمطر لم يكن ليراه أحد منذ أيام، وهذا ما كان يشجع نور لتلف نفسها بغطاء السرير ترقُب الغروب بلهفة، فلم يكن لها من أمر تقوم به غير ذلك، كانت لينا إلى جوارها تضحك من خلودها إلى السرير مبكرًا هذا اليوم، إلا أن نور كانت ترد عليها قائلة:

- ما أجمل أن نسامر أسرتنا بدفء، والهدوء يحيط بنا من كل مكان، وخاصة في قلوبنا.

لم تنتبه نور لوقت طويل إلى ذلك الحزن الذي يحف بعيني صديقتها رُبا إلا حين أسنَدَت نفسها إلى وسادتها ور اقبتها بانتباه، ثم قالت:

- رُبا، ما بكِ يا عزيزتي؟

وما أن نطقت نور بكلمتها حتى كانت الدموع تسبقها؛ لتخفيها وراء يديها المرتعشتين، وفي لحظة اقتربَت لينا ونور وعُلا إلى سريرها يجمعهن شعور بالشفقة والتعاطف مع صديقتهن التي رَمَت بنفسها على السرير باكية بحرارة، نظرَت الصديقات إلى بعضهن قليلًا ثمّ رفعت لينا رُبا و أبعدَت يديها عن عينيها، وطلبَت منها الحديث بجرأة ودون بكاء، لم تستطع رُبا أن تسيطر على أعصابها إلا بعد أن بكت بكاءً طويلًا وسط تهدئة صديقاتها لها، ثم قالت:

- أخشى أن يعاقبني القائد بحرماني من أجازتي وعودتي إلى أهلي.

تذكرت الفتيات ما كان فيه من استجواب حاد لرُبا وعُلا حول إهمالهن، لكنّهن نسِين الموضوع لاهتمامهن باعتدال وأمرها، عُلا لم تقُل شيئًا؛ فهي ستعاقَب إلى جانب صديقتها وبنفس العقوبة، إلا أن الأسى لم يملأها؛

لأنها رأت أهلها منذ وقت قصير، أما نور فكانت كذلك صامتة؛ لأنها لا تستطيع الدفاع عن أي من القائد أو رُبا، لينا حركت رأسها يمينًا ويسارًا، ثم ثبّتَت نظرها على رُبا وقالت:

- في كل الأحوال يا صديقتي يجب أن نتقبل الأمور كما هي.

عادت رُبا للبكاء بحسرة وحزن، وكانت دموعها صغيرة متدحرجة في رونقِها شوق وحب لأهلها الذين لم ترهم منذ سنوات ثلاثة.

وهنا تدخلت نور قائلة:

- أرجوكِ رُبا كُفِّي عن البكاء، أنتِ تسببين الحزن لنا.

- ولكن هذا ليس عدلًا.

- فلنرقب أولًا العقوبة، ثم تبكين بعد ذلك كما تشائين.

- أنا لم أرَ أبي منذ أربع سنوات، وأمي منذ ثلاث سنوات، فإن منعني من أجازتي سيكون الأمر قاسيًا جدًا عليَ.

وقفت عُلا، و اتجهت إلى المطبخ قائلة:

- لا تقلقي يا عزيزتي، سأكتب استدعاءً إلى أخي أعترف فيه بذنبي وحدي فيما حدث، وأرجو أن يقتنع بذلك.

بدأت جراح رُبا تخفّ قليلًا بعد أن أحاطت بها صديقاتها اللو اتي زرعن فيها الأمل مجددًا.

وأخيرًا فتحَت اعتدال عينيها بصعوبة وإرهاق، فيما كان الجميع يحيط بها والليل يخيّم على المزرعة، نظرت حولها والسعادة تملؤهم، خاصة مصطفى الذي أطبق يده على أناملها المتعبة برفق قائلًا:

- كيف تشعرين الآن يا عزيزتي؟

لم تقل شيئًا، بل أشاحت وجهها إلى الجهة الثانية، حيث الجدة تجلس إلى السرير بجانبها، وكانت تمسح على جبينها بحنان وحب قائلة:

- هل أنتِ بخير يا ابنتي؟

لم تفارق عيون مصطفى وجه اعتدال التي أرادت أن تبعده عنه إلى أقصى مكان في العالم، كانت أناملها في يده تتحرك مبتعدة عنه دون أن يشعر بها أحد سوى مصطفى الذي استوعب تعاملها الجاف معه، حين كانت توجه كلامها إلى الجدة قائلة:

- أشعر أن جبلًا ثقيلًا ملقَى على جسدي فلا أستطيع الحراك.

داعبت الجدة بيدها خصال الشعر المتناثرة على وجه اعتدال، ثم قبّلتها وغادرت متعلّلة بإحضار كوب من العصير، إلا أنها أرادت أن تعطي فرصة لمصطفى بالحديث إليها منفردًا.

كان الليل يحطّ بالمكان، واعتدال ما زالت تشيح وجهها إلى الجهة الأخرى، رغب مصطفى أن يتجاوز إهمالها للمحافظة على استقرار صحتها، اقترب منها قليلًا، ثم همس قائلًا لها:

- حمدًا لله على سلامتك.

شعرت اعتدال أن هذه اللحظة هي أكثر لحظات حياتها تود أن تملأها بالبكاء؛ فهي في موقف سيء؛ مريضة، متعبة، عاشقة، ومجروحة، وماذا تفعل حين تلتقي الأحزان كلها في لحظة واحدة؟ لم تستطع اعتدال أن تصل إلى جواب، كانت فقط تحاول أن تتجنب الحديث مع مصطفى أو النظر إليه، لم ينقذ هذه اللحظات إلا كوب العصير الذي أحضرته الجدة وقدمته إلى مصطفى؛ ليشرف على إعطائه لها، شكر مصطفى الجدة التي غادرت راجية السلامة للجميع ومتمنية لهما الصحة والسعادة، عدَّل مصطفى جلسته وما زال الكوب في يده طالبًا من اعتدال الاستناد في جلستها لتشرب العصير، إلا أنها نفَت بحركة من رأسها ما يريد، لحظات صمت وعادت محاولة مصطفى ثانية وهو يقول:

- اعتدال، من فضلك تناولي هذا العصير؛ فأنت منذ يومين لم تأكلي أو تشربي.

كل ملامح الغضب كانت مسيطرة على وجه اعتدال التي نظرت إلى مصطفى بقسوة، وقالت:

- لا أريد منكَ شيئًا.
- ولكن...
- قلت لكَ لا أريد منكَ شيئًا.

مشاعر الحزن تسيطر على مصطفى أكثر من الغضب، فقد كان يتمنّى لو أن اعتدال تنظر إلى عينيه فترى كم لحظة سهرَ من أجلها وتعب لراحتها، إلا أنها كانت مصمّمة على كل معاني القسوة، بل كانت تبتكر لغة لم يستطع أن يترجمها أو يعرف معانيها، وفي آخر محاولة له عدل جلسته قليلًا، وقال:

- يجب أن تشربي هذا الكوب من أجل صحتّكِ وليس من أجلي.

وفي أصعب لحظة مرت عليهما ألقَت اعتدال بكأس العصير لينسكب على الأرض، وليؤرخ بينهما لحظة احتقار لا نهاية لها لمصطفى، ولحظة قسوة لا بداية لها، كل شيء كان هادئًا؛ الليل والمطر وأوراق الشجر، حتى خيول المزرعة التي لا تكفّ عن الحراك، تدارك مصطفى كل ذاك وما حدث، ثم نهض ومشى خطوات ثقيلة إلى الباب؛ ليكون خارج الغرفة في دقائق، ولتدخل الجدة فزعة وهي ترقب اعتدال التي ملأت وجهها بدموع سريعة وغزيرة، إلا أن الجدة لم تغادر أطياف وجهها، جلست على مقعد مصطفى إلى جانب اعتدال، وقالت بعتاب شديد:

- ما الذي حدث؟

- لا شيء يا جدتي.

- ولكني سمعتُ صوتًا عاليًا، هل تشاجرتما؟

- لا يا جدتي.

- لو تعرفين ماذا فعل من أجلك في اليومين الماضيين؛ لم ينم لحظة، بل أنه لم يسمح لأحد منا أن يعتني بكِ سواه.

كان القهر يصارع قلب اعتدال وهي تستمع لكلام الجدة، والذي ردت عليه بصوت حزين ودموع قائلة:

- أنا مريضة يا جدتي، ومن حقي عليه أن يعتني بي ويراعي ظرفي الصحي السيء.

هزت الجدة رأسها وهي تشكو قلة حيلتها في إصلاح الأمر بينهما، ثم غادرت الغرفة لعلها تستطيع إرجاع الأمور إلى نصابها.

حين يُعدّ الشتاء عُدّته للرحيل عن المعسكر يتأخر الجميع في الخلود إلى النوم؛ فالمشاكسات والضحكات تحلّق بين الأجواء وبين غرف الفتيات اللواتي خرجن جميعًا ليجلِسْن في غرفة استقبال السكن رغبة في السهر والمتعة، حتى رُبا التي نسيَت حزنها للحظات وشاركت صديقاتها الفرح واستقبال الصيف، مرّت لحظة هدأ الجميع فيها فجأة؛ فقد حضر القائد، وما أن دخل حتى تفاجأ بوجود الفتيات لوقت متأخر، فقد كان عمله محددًا بمراجعة مشرفة السكن حول تفريغ غرفة اعتدال تمهيدًا لسكنها مع زوجها، مرت نصف ساعة وما زال القائد مع ليث يجلسان مع المُشرِفة في غرفة زجاجية أنيقة؛ حيث يستطيع أي شخص رؤيتهم بوضوح، كانت نور سعيدة، عيناها تتلألآن فرحًا والقائد على مرمى عينيها رغم أن العدد لا يقلّ عن عشرين فتاة يُحِطنها، كانت الدقائق بينهما طويلة، بدأت الفتيات بالعودة شيئًا فشيئًا للغرفة حتى شعرت نور بضرورة عودتهِنّ أيضًا، فوقفَت إلى جانب صديقاتها، لولا لينا التي سارعت لإلقاء تحية المساء على القائد وليث بعد خروجهما من عند المشرفة مبتسمين هادئين، اقتربت نور ولينا و انسحبَت عُلا ورُبا.

- مساء الخير.

كانت تحية الشابين هادئة وفيها ملامح من الرسمية والمحبة.

- مساء النور.

رددن بعفوية وسرعة، وقفت لينا إلى جانب ليث موجهة حديثها إلى القائد قائلة:

- هل لي بسؤال يا سيدي؟

حرك القائد رأسه بابتسامة، وقال:

- تفضلي.

إلا أن نور تدخّلت ببساطة، وقالت:

- و أنا كذلك، هل لي بسؤال؟

ضحك الجميع، ورد القائد قائلًا:

- ما قصة الأسئلة هذا اليوم؟

ارتبكت لينا قليلًا، ثم قالت:

- هل لديكَ فكرة يا سيدي حول الصندوق الذي أُهدِي لنور قبل أيام؟

كان سؤال لينا صدمة كبيرة لنور التي احمرّت وجنتاها بشكل ملحوظ وهي ترقب بعينيها جرأة لينا؛ مما أدخل ليث في الحديث قائلًا:

- إذا كان الجواب يحرج أحدًا يا أحمد فلا تجب عنه.

ابتسم القائد وهو ينظر إلى نور الغاضبة في محاولة؛ لتهدئة غضبها، ثم قال:

- أجل أعرف ما فيه، هل تريدين أن أخبركِ؟

تحمّسَت لينا إلى الإجابة دون أن تعير اهتمامًا لانفعالات نور، وقالت:

- أجل، أرجوكَ يا سيدي.

- حسنًا، بعد إذن ليث ونور؛ لأن الأمر لا أعتقد أن فيه ما يحرج، فالجميع يستطيع الزواج في أي وقت ومكان.

لم تفهم لينا ما يعنيه القائد الذي كان يتحدث بهدوء؛ للمحافظة على نفسية نور وغضبها، ثم قال:

- في الصندوق ثوب زفاف لنور هدية منّي لها.

قفزت لينا فرحة دون أن تقول شيئًا، وأدارت نور وجهها بغضب وإحراج لتعود إلى غرفتها، لولا يد القائد التي أوقفتها وهي تمسك بمعصمها قائلًا:

- نور، لا تغضبي؛ فهما يحضّران نفسيهما لحفل زفافهما ونحن كذلك، فما المشكلة؟

لم تغادر عينا نور الأرض وهي تشعر بأن انفعالاتها ترجمَت إلى دموع لَامَ ليث فيها لينا على أنها كانت السبب؛ فتقدّمت لينا واعتذرت لتحاول إعادة جو السعادة والمرح، لكن نور بقيَت صامتة لم تقل شيئًا، حتى تدخل القائد ثانية وقال لنور:

- هل ترغبين يا سيدتي أن أُنزل عقوبتي على لينا حتى تبتسمي؟

ابتسمت نور ومسحت دموعها، وكانت هذه اللحظة الأولى التي يتحدث فيها القائد مع نور أمام الاخرين بهذه الطريقة، لكنه أكمل قائلًا:

- هيا تفضلي بسؤالك الآن.

عدلت نور عن سؤالها بابتسامة مصطنعة، وقالت:

- لا بأس، لقد عدلتُ عن سؤالي؛ فأنا أخشى من غضبِك.

نظر القائد بعمق إلى نور كأنه فهم ما تريد؛ فطمأنها قائلًا:

- اسألي، لن أغضب.

- كنت أريد أن أسأل عن موضوع رُبا وعُلا.

صمت القائد وتنهد بعتب، ثم قال بصوت خافت:

- لقد تحدثنا في هذا الأمر مطولًا.

- ولكن...
- نور، أرجوكِ.

أشعرت كلمات القائد نور بأنه سيغضب أذا استمرت في الحديث عن عمله، مما كان يزعجه كثيرًا ؛فصمتت متوجسة من غضبه، ليسود الصمت للحظات أنهاها القائد بقوله:

- لقد اتصلتُ بمصطفى، وحسب ما قال بأنه واعتدال بخير؛ فأحببت أن أطمئنكم.

ابتسمَت نور وهي تنظر للقائد بشفافية تعبيرًا عن شكرها لاهتمامه؛ فبادلها الابتسامة محاولًا تجنّب ما حدث، وقال بهدوء:

- تصبحين على خير.

وقبل أن ترد نور تدخلت لينا بعتاب، وقالت:

- و أنا؟

ضحك القائد ورد عليها قائلًا:

- أما أنتِ فليقل لكِ ليث تصبحين على خير.

انتهى ذاك اليوم بضحكات جميلة، إلا أن من افتقد إلى هذه الابتسامات هي اعتدال التي لم تكن تعرف كيف سينتهي هذا اليوم حين عاد مصطفى ثانية إلى الغرفة موجهًا نظراته إليها، وهي تجلس على السرير دون إن تعيره انتباها.

دخل إلى الغرفة بهدوء وأغلق الباب وراءه؛ لتنتفض اعتدال وتقول بارتباك:

- من فضلك، لا تغلق الباب.

لم يجب مصطفى، بل تقدّم بخطوات ليثير استفزازها ثانية، وليعلو صوتها قائلة:

- قلت لكَ لا تغلق الباب.

كان رد مصطفى باردًا لا يحمل معنى أو حياة، ابتسم بسخرية وقال:

- المفترض أننا أزواج.

زاد جواب مصطفى ارتباك اعتدال، التي احتدّت في كلامها وقالت بغضب:

- ولكننا لسنا كذلك.

- إذا كان الأمر يضايقكِ تستطيعين فتح الباب ثانية.

كان غضب اعتدال يتسارع لتداري شعورها بالخوف والقلق، خاصة بعد أن استرخى مصطفى على السرير ممددًا على يديه في رغبة لشعوره بالراحة، كانت اعتدال تتحدّث ولم تكن تجد صدًى لحديثها أمام هدوء مصطفى؛ فصرخت قائلة:

- لا تتعامل معي بهذا البرود.

لم تلحظ اعتدال أي انفعال بدا على وجه مصطفى، بل استقبل كلامها بجمود وأغمض عينيه، ثم قال:

- أنا متعب وليس لدي رغبة في الحديث.

نظرت اعتدال إلى مصطفى والغضب لا يغادر عينيها، ثم قالت بغيظ:

- لا تمنّ عليّ بأنكَ سهرت وتعبتَ من أجلي.

- هذا واجبي يا عزيزتي؛ فأنا زوجكِ، وليس من حقي أن أمنّ عليكِ.

بدأت عيونها تنطق بحزن وهي تنظر إلى انفعال مصطفى اللامبالي، ثم قالت:

- أنا أكرهك.

تحرك مصطفى واسترخى على جانبه الأيسر؛ لتصبح اعتدال خلفه مباشرة، ثم قال:

- أريد أن أذكّركِ أن لي طاقة احتمال محددة، وبعدها...

- أتهددني؟

جلس مصطفى بسرعة وهو ينظر إلى اعتدال بنفاذ صبر، وصرخ بوجهها قائلًا:

- ماذا تريدين يا اعتدال؟ أخبريني هيا.

بدأت اعتدال تبكي بحرارة وحزن بالغَين، ثم قالت:

- أريد أن ننفصل عن بعضنا، الآن.

تنهد بغضب وضرب بيده طرف السرير، ثم قال موجهًا نظره إليها ومحاولًا أن يكون هادئًا:

- إذن أنصحكِ أن تنامي وتحلمي بهدوء؛ لتتَحقّق رغبتكِ هذه في المنام.

كلام مصطفى شكّل صدمة قوية لاعتدال التي لم تكن تتخيل في يوم أن يكون هذا رأيه، فنهضت من السرير؛ لتفرغ غضبها في أنحاء الغرفة، ولتكتم صوتها لئلا يسمعها أحد، ثم قالت:

- أنا لستُ على استعداد للعيش مع إنسان لا يربطه بي إلا خوفه من أهله وخشيته من غضبهم.

نظر مصطفى باستغراب إليها وقد ابتعدت عنه بعدما وقف مقتربًا منها، ثم قال:

- أرغب في إعلامكِ أنني لا أخشى أحدًا ولا أهتم لرأي غيري، وما يربطني بكِ الآن هو حبي لكِ فقط.

لم تعط اعتدال فرصة لنفسها بالتفكير قبل ان تجيب؛ فتقول:

- أنتَ كاذب.

ابتسم مصطفى مستهزئًا بكلامها، ثم اقترب منها وقبض على ساعدها بقوة، وقال بهدوء:

- هل تريدين أن أثبتَ لكِ صدقي؟

شعرت اعتدال أنها في ورطة كبيرة، وأنها لا تستطيع فِكاك نفسها من أسر زوجها الذي كان لا يهتم بدموعها المنهمرة، وهي تصرخ به قائلة:

- دعني وشأني.

احتدّ الموقف بينهما، وشعرت اعتدال بندم شديد على أنها تجاذبَت أطراف الحديث معه، حيث كانت مشاعر النصر والزهو تملؤه وهو يبتسم بهدوء أمام قطرات العرق المتصببة منها والمختلطة بدموعها الغزيرة.

هي فقط بضع طرَقات على الباب وكان الهدوء يعم الغرفة، فتح مصطفى الباب حيث الجدّة تقف متوترة ومضطربة على أثر صوتهما الذي ملأ المكان؛ فقالت:

- هل من خطبٍ يا أحبابي؟

طمأن مصطفى الجدة بابتسامته الباردة وعينيه الغامضتين، ثم قال:

- لا يا جدتي، اطمئني.

إلا أن اعتدال التي وقفت أمام الجدة بدموعها الحزينة قالت بضعف وألم:

- ولكني أريد أن أعود إلى المعسكر الآن؛ فأنا متعبة ولن أشعر بالراحة إلا هناك.

كان كلام اعتدال يوضح أن ثمة مشكلة حصلت بينهما لتوها؛ فحاولت الجدة التخفيف منها، اقتربت من اعتدال ومسحت على شعرها المتناثر، ثم قالت:

- يا ابنتي، الوقت متأخر؛ فاصبري حتى الصباح، ولا تنسي أنكِ مازلت مريضة، نامي الآن و انطلقا عند ضوء الشمس.

كان لا بد من الانصياع إلى كلام الجدة؛ لأنه لا يخالف المنطق أبدًا، فدخلت اعتدال ومصطفى إلى الغرفة؛ ليناما بقلق في انتظار شروق الشمس البعيد.

صباح جديد داعب رمل البحر ليرسم منه صورة اسمها وطن، إلى جانبها شمس باردة لا تعادل شمس الصيف الحامية، كم من البشر كانوا ينتظرون شروق الشمس لتخفّف آلامهم؟ وكم منهم كان هذا الصباح لهم حزنًا وألمًا؟ يالهذه الحياة التي تحمل المستحيل دومًا، والشجاعة في الوطن هي أن نحسن العيش مع المستحيل رغم آهاته.

إزعاج الصباح يملأ السكن، بينما كانت نور تستعد لفتح باب غرفتها للانطلاق إلى المعسكر فكانت المفاجأة، وكانت اعتدال تقف بحزن وألم ورغبة في الانفجار، وما أن رأت نور حتى ألقَت نفسها في أحضانها باكية؛ لتختصر كل ما حدث بثوان، تحوّلت رغبة نور في استقبال الصباح إلى رغبة في انتهائه، كانت تعانق اعتدال بشوق وحب والشفقة والعطف يملأنها تجاه صديقتها الحزينة، وما هي إلا دقائق حتى كان القائد يقف خلف اعتدال مباشرة بعد أن افرغت كل أحزانها على صدر نور، لينا ورُبا وعُلا، ثم القائد ومجد ومصطفى؛ جميعهم يحيطون باعتدال ونور وكأن إعصارًا سيحدث بعد ثوانٍ، لم يقل أحد شيئًا إلا القائد موجهًا حديثه إلى اعتدال بغضب قائلًا:

– ماذا تفعلين هنا؟ ومن أذِن لكِ بالعودة إلى المعسكر؟

كانت اعتدال تمسح دموعها وتنظر إلى القائد بتوسل، ثم إلى نور بحزن، اقترب القائد خطوة، وقال بصوت واضح:

– لا تنظري إلى أحد، أجيبيني أنا، ماذا تفعلين هنا؟

استغربَت اعتدال من سؤال القائد؛ فهذا مكانها، ولكنها تذكّرت بأنه يرغب في انتقالها مع مصطفى إلى بيتهم الجديد؛ فتداركت نفسها وتلعثمت في الكلام قائلة:

- أنا متعبة جدًا، وأريد أن أرتاح قليلًا بين صديقاتي، إذا سمحْتَ سيدي.

حاول مصطفى أن يقول شيئًا، إلا أن القائد في إشارة منه منعه من التدخل، ثم قال في قسوة لاعتدال:

- تفضلي إلى بيتك، وهناك تلقين راحتك المطلوبة.

طردت اعتدال بعض الدموع عن فمها؛ لتستطيع أن تواجه الموقف بشجاعة، وقالت:

- ولكن سيدي...

لم يعطها القائد فرصة وكأن وجودها في حضن نور لم يشفع لها، حتى توسلات عيني نور لم يثْنِه عن قراره، فصرخ ثانية قائلًا:

- قلت لكِ أن لا مكان لكِ هنا، مكانك في بيتكِ وعند زوجكِ فقط.

أثار كلام القائد انزعاج الجميع، فحال اعتدال كان مزريًا ولم يجد أحد من حيلة إلا التعاطف معها، ولكن... تحركت اعتدال بألم شديد إلى جانب مجد ومصطفى؛ ليوصلاها إلى بيتها الجديد الذي لا تعرف اعتدال ماذا يخبئ لها الزمن فيه.

ربما كان التوتر ما زال مخيمًا على السكن بعد رحيل اعتدال، وكان الحزن يسيطر على قلب نور التي كانت تتمنى لو أن القائد كان أقل قسوة من ذلك، الجميع يظن أن القائد سيرحل، لكنه توقف ونظر إلى الفتيات الأربعة، ثم قال بجدية:

- أما عُلا ورُبا فأرغب في إبلاغكما عن العقوبة التي صدرت بحقكما.

كل شيء بدا متوترًا، ومشاعر الاستياء بادية على الوجوه، وقبل أن تسمع رُبا عقوبتها بدأت تبكي بصمت، وقف القائد أمام رُبا وعُلا مباشرة وملامح الغضب مسيطرة على وجهه، أما لِينا ونور فكان الحزن لا يتركهما أبدًا، ماذا يمكن أن يحدث؟ لا أحد يعلم، تذكرت نور أن لينا أخبرتها عن نية القائد بحرمان صديقاتها من أجازتهما السنوية؛ مما يترتب عليه عدم رؤيتهن لعائلاتهن، يا له من شعور مقيت حين يفصل الزمان بقسوة بيننا وبين من نحب، كيف نواجه هذا العنف؟ كيف نخفّف من حدة هذا الوقت؛ لنحسن العيش فيه دون حزن؟ رغم أن السماء واحدة في كل الأوطان لكنها في وطني تعشق وتضحك وتداعب خصيلات شعرنا بدفء وحنان، رغم أن شمس الكون واحدة لكنها في الوطن تشرق كل يوم، حتى في الشتاء نكاد نراها ولا تفارقنا؛ فهي وحدها التي تقبّلنا حين نستيقظ في الصباح، وتمسح أرق الليل الذي لا يغادرنا ونحن عشاق، كم من لحظة مرت قبل أن يقول القائد شيئًا؟ لا تذكر نور، فقط تتذكر حين جمعها وطن واحد مع لينا ورُبا، وسنوات الطفولة والأحلام الصغيرة التي كبرَت معهن وألقَتهُن في موقف صعب، حزين، وقاس، خطوة واحدة تفصل بين القائد ورُبا وعُلا، أما نور التي كانت تقف إلى جانبهن وتر اقب شفاه القائد الذي كان يهم بالحديث اقتربَت، وفي لحظة كانت تفصل بينهم جميعًا لتفصل الزمن إلى شطرين، وتفتح يديها على مصراعيها، ثم تقول بحزن وخوف:

– أرجوك سيدي، عاقِبني أنا بدلًا منهما.

شعرت نور أن الزمن توقف في عيني القائد، وكل أطياف الغضب اجتمعت فيهما، لم تكن ترى غيره، يفصلها عنه صوت أنفاسه، ويفصله عنها وطن بلا حدود، رأت في عينيه تراب الطفولة تتقلب عليه حين لا تعرف معنى لأحزان الزمن، رأت تلك الأرجوحة التي حملتها بين أحضانها؛ لتلقيها بين أكف الحياة،

ما زال القائد وما زالت نور ترغب بالبكاء يتخلل أوصالها، يالهذه الأنفاس الواحدة التي جمعتهما في لحظة فراق، آخر ما تذكره نور عيون القائد تبرقان ولا تحملان إلا المشاعر المزعجة والغضب الذي لا ينتهي، غادر ولم يقل شيئًا، ثم استسلمت لينا للقلق ونور للبكاء، أما عُلا ورُبا فللدّهشة والأسف.

مالذي حدث؟! هدوء الاستراحة قاتل، والصمت منذ الصباح يفرض نفسه بقوة، جميع الفتيات -حتى اعتدال- كُنّ يشرَبن الشاي دون أن يقُلن شيئًا؛ فكل واحدة تحمل حزنًا صغيرًا أو كبيرًا، في النهاية هو حزن كبر أم صغر، لعل الحزن الحقيقي كان منقسمًا بين نور واعتدال؛ فهن يعِشْن حالة من الصدمة وفراق الحبيب رغم وجوده، إلا أن نور لم تكن تجرؤ أن تقول شيئًا؛ كي لا تسبب الحزن لصديقاتها اللواتي ضحَّت بأشياء كثيرة لم تعرفها بعد من أجلهن، كانت نظرات لينا بين الجميع تحاول اختصار هذه الأحزان وتحويلها إلى فرح صغير، فقالت بهدوء:

- لقد بقي أسبوعان على أجازتنا، وشهر كامل لحفل زفافي.

لم تعن كلمات لينا شيئًا لأحد؛ فالاجازة الصيفية التي مُنحَت للمجندات بعد ثلاث سنين مدتها شهر تقريبًا ستبدأ بعد أسبوعين، لكن هل ما فعلته نور أعاد الحق لرُبا وعُلا بهذه الأجازة؟ لم يعلم أحد بعدُ الحقيقة، كانت اعتدال تلمح في عيني نور فراغًا، وكأن ملامح وجهها تحوّلت إلى شتاء بارد أو رمل صحراوي مَقِيت، لكنها لأول مرة لم تستطع أن تفعل لها شيئًا؛ فهي تفقد هدف وجودها في الحياة تمامًا كنور، والتي أنهت شرب الشاي وخرجت دون أن تقول شيئًا.

أسبوع كامل مرّ بمرارته وألمه دون أن يحدث شيء غير الشحوب الذي بدأ يغزو وجه نور واعتدال، والحزن الذي يغطي وجه عُلا ورُبا، رغم إلغاء عقوبتهن لعدم الحديث فيها من قبل القائد، والذي لم يعد أحد يراه حتى شقيقته، كانت نور تصارع رغبتها في الحفاظ على من تحب وخوفها من ردة فعل القائد، هذا ما يشغلها طوال أسبوع كامل؛ حتى قرّرت في لحظة ما أن تسارع خطاها صباح يوم إلى سكن القائد الذي لم تذهب إليه يومًا؛ لعلها في رغبة للاعتذار، أو شيء آخر كانت تجهله وتؤجله إلى ذاك الوقت، كل الذكريات رافقت نور وهي تتجه إلى الغرفة؛ سجنها، المزرعة، المستشفى، معسكر الصيانة، صديقاتها، خالها، قريتها، وحب القائد الذي شعرت بأنه وحده من سيغفر لها لأجله، هي دقائق طويلة لكنها تحولت إلى ساعات من الزمن المخيف، وكانت نور فيها تقف امام غرفة القائد؛ لتطرقه بهدوء وخجل، ودقات قلب متسارعة لا تكاد تحصيها إلا بزمن مغيب خلف حبها، وأخيرًا فُتح الباب، كان ليث يقف باستغراب تداركه بسرعة وهو يبتسم لنور التي استأذنت بالدخول بعد إلقاء تحية الصباح عليه، لم تلمح نور القائد، كانت فقط تسمع صوته مستفسرًا عن الزائر، لم يعطِ فرصة لليث بالرد، بل خرج بسرعة وهو يغلق أزرار قميصه، ونظر ليجد نور تقف أمامه مرتبكة وشاحبة، ونظرَت هي لترى في عينيه تلك النظرات التي رأتها آخر مرة لم تختلف، انسحب ليث بهدوء إلى المطبخ؛ ليتم تحضير القهوة.

- صباح الخير.

ألقت نور التحية بحب وشوق و انتظرت الإجابة التي تأخرت كثيرًا، قبل أن يقول القائد بغضب:

- ماذا تريدين؟

بدأ الحزن يسيطر عليها ويحل بدلًا من شوقها، فقبضَت على يديها بشجاعة، وتقدّمت خطوات نحو القائد؛ لتبرر بصوت متقطع قائلة:

- كنت أريد...

- لا أريد أن أسمع مبررًا واحدًا لما حدث.

كان صوت القائد قويًا غاضبًا كأنه لا يرى نور الفتاة التي أحبها وما زال، تداركَت نور نفسها للمرة الثانية وعادت لتطلب المستحيل كما تهيأ لها، فقالت:

- ولكن سيدي...

- نور، لا أريد أن أخوض في أي موضوع حتى لا نخسر بعضنا للأبد.

كانت كلمات القائد قاسية على نور؛ فدموعها لم تعط فرصة لتبرر موقفها الذي بدا ضعيفًا هشًا، هل يعقل أن نخسر بعضنا للأبد من أجل ما حدث؟! لم تتوقع نور أن يقول القائد هذه العبارة أبدًا، فنظرت إليه بعتب ومسحت دموعها، ثم قالت:

- ولكن سيدي من حقي أن أدافع عن نفسي.

زاد الغضب في عيني القائد لنور، و اقترب منها صارخًا بوجهها:

- لقد حذرتك يا نور أكثر من مرة ألا تتَدخّلي بعملي مهما حصل.

كانت نور تحاول تدارك ما يحدث، فلم تقل شيئًا، بل كانت تبكي وهي تنظر إلى القائد بأسى، بينما كان ينظر إليها بغضب قائلًا:

- نور، اخرجي.

شعرت نور أن كل شيء انتهى، وأنها تقف لحظة حزن لن تستطيع تحملها، فماذا يعني القائد بكلامه، أاهو الخروج من الغرفة؟ أم حياته؟ أم من حبه أم ماذا؟ لذا تسارعت الكلمات على لسانها قائلة:

- ماذا تعني؟

تنهد القائد الذي فهم تمامًا ما كان يدور في ذهن نور، فقال في رد على سؤالها:

- ما تشائين.

كل شيء يمكن أن نفسره إلا الحزن حين يتراكم ويتراكم ليصنع جبلًا حده كالسيف ولا نهاية له، ما هذا الذي يجعلنا نندم على حب قدمناه ذات يوم؛ ليشكل هجائية جديدة لنا تضيء تلك العتمة التي غرسناها في أيامنا؛ فلم يعد لها وجود دون ذلك الحبيب؟ فمن غير أحبائنا يلونوا لنا حياتنا بألوان زاهية؟ ويشكلونها كتشكيلة السماء لا عيب فيها ولا حزن، هل انتهى كل شيء؟ بالتأكيد، كيف نتقبل نهايات لا نرغبها؟ تمامًا كما نتقبل غياب الورد في مطر الشتاء، وغياب الشمس في أحلك الأوقات، تمامًا كما نتقبل تسارع الأيام لتسخر منا ويدوس الزمن فيها كل أحلامنا، أجمل لحظات اليأس حين نقف عاجزين عن فعل شيء وتضيق بنا كل لحظات الجمال؛ فلا نرى غير أنفسنا نسخر منها ونضحك لضعفها وجُبنها، وهذا ما كانت تشعر به نور التي ما إن الْتَقَت باعتدال حتى غرقتا في بكاء لا اسم له، رفعَت اعتدال نور ونظرت إليها بعطف ثم مسحت دموعها، وقالت مداعبة لها:

- وهل يعشق القادة أيتها الحمقاء؟ فعشقهم صعب وخسائره كثيرة.

هزت نور رأسها وابتسمت في محاولة لكسر هذا الحزن الصعب، قبضت اعتدال على يد صديقتها وأجلستها، ثم قالت:

- كأنك لا تريدين رؤية بيتي؟

نظرت نور إلى بيت اعتدال الجميل نظرات خاطفة، وتنهدت بعمق ثم قالت:

- بلى يا صديقتي.

كل منهما كانت تشعر بشلال من الألم لا ينتهي، لكن القلب ما دام ينبض فعلينا أن نحتمل كل ما يأتيه، تفقدت نور البيت وأعلنت إعجابها ببساطته وجمال الصباح فيه، لكن اعتدال أكدت لها جماله صيفًا وبرودته شتاء؛

فو افقت نور، وجلست لتشرب القهوة وتتجاذبا أطراف الحديث، وفجأة تذكرت اعتدال شيئًا؛ فنظرت إلى نور وهما في المطبخ، حيث كانت تجلس نور على المقعد في انتظار اعتدال التي قالت بسرعة:

- لقد نسيتُ أن أطلعك على غرفة الأحلام السعيدة أو التعيسة.

ضحكت نور وهي لا تفهم ماذا تعني صديقتها التي قالت ثانية:

- غرفة النوم يا صديقتي.

حركت اعتدال كتفيها، و ابتسمت قائلة:

- لا حاجة لي بها، ولكن..

- ولكن ماذا؟

لوّن الخجل وجه نور وهي ترقب صديقتها تسكب القهوة بانتظام، وقالت:

- هل تستعملانها؟

ملأت السخرية وجه اعتدال، وقالت:

- بالطبع لا.

- لماذا؟

- لأن كل شيء يجب أن يبقى على ما هو عليه حتى...

- حتى ماذا؟

- لا أعرف، ما يهمني الآن أن نشرب القهوة باستمتاع مطلق.

فهمت نور أن مصطفى قدم الكثير من التنازلات، وأن اعتدال لا تحاول تقديم شيء بالمقابل، ولكنها مرتاحة بعض الشيء فيما وصلت إليه من قرار ومن حياة، لملَمَت نور نفسها و انطلقت إلى عملها مع صديقتها؛ ليكون هذا

اليوم كغيره من الأيام التي نقضيها دون روح أو حياة؛ لأن هدف الحياة غائب مرتحل إلى موعد غير معروف.

نظرت لينا إلى نور وهي تغطي نفسها بغطاء السرير، رغم أن الجو ما زال مبكرًا ودافئًا، فهمست لها:

– نور، وجهك شاحب، هل من خطب؟

لم تجب نور، بل سافرت بعينيها إلى مكان لا يعلمه أحد، لكن الدموع التي حلّقَت بهما أجابت عن سؤال لينا، وأثارت جملة من التنهيدات الباهتة، اقتربت لينا فجلست على سرير نور ونظرت إليها بتمعن، ففاجأتها نور بقولها:

– غدًا سأعيد الصندوق إلى صاحبه.

فهمت لينا ماذا كانت نور تعني؛ فتغيرت ملامحها إلى الحزن والغضب، وقالت بانفعال:

– لماذا يا نور؟ هل...؟

أشاحت نور وجهها عن رُبا وعُلا؛ حتى لا تشعرا بشيء، ثم بكت بحرارة دون صوت قائلة للينا:

– عليّ أن أختصر الإحراج عليه.

قامت لينا وخرجت من الغرفة؛ لتبكي بهدوء كما فعلت صديقتها، فما حدث كان مفاجأة غيّرت كل شيء في ثوان.

الساعة الحادية عشرة ليلًا... الجميع يخلد إلى النوم بقلق أو هدوء أو ترقب، ونور متعبة تلفّ نفسها بغطائين ولا تشعر بالدفء أو الراحة، كان الألم يسيطر عليها حتى لم تعد تدرك شيئًا، كانت صورة أمها تلاحقها ورائحة الطعام حين كانت تدخل بيتها لا تفارقها، ماالذي جرى؟ حتى خالها يمسك بيدها ويركضا إلى تلك التلة المطلة على القرية، أهي هناك؟ هو وحده الوطن من أغرق نور بالدفء؛ فشعرت وكأنها تجاور الشمس لتزرع فيها ذكرياتها.

- نور... نور.

كانت نور تسمع صوتًا ولم تقو على الإجابة، من الذي يناديها؟ أهو حلم أم حقيقة؟ أين أنا؟ لتوّي كنت مع خالي نركض ونتأرجح على أرجوحة بيتنا الممتدة من شجرة الزيتون إلى جذع الشجرة الصلب الذي ركزناه معًا؛ لنمكن أرجوحتنا الصغيرة، لكن الصوت ما زال ينادي، كانت نور تئِنّ ولا تعرف ماذا يجري؟ أصوات أخرى اجتمعت تناديها، وكفّ دافئة صغيرة امتدت على جبينها بخوف وهي تقول:

- نور، حرارتك مرتفعة يا صديقتي.

أية حرارة؟ وكيف ارتفعَت؟ كما رفعتنا الأيام وألقتنا بألمها وصعوبة لحظاتها؟ ولكن لا بأس إذا كانت هذه الحرارة تبقيني في وطني وتزرعني بين أحبابي.

أسرعَت لينا بلهفة وخرجت إلى مشرفة السكن تطلب منها إحضار الطبيب، كان الأمر صعبًا؛ فقوانين السكن تمنع الدخول إليه أو الخروج منه بعد الساعة السابعة مساءً، كانت لينا تشرح وضع نور الصّحّي المتدهور بسرعة وخوف إلى المشرفة، والتي قابلته بجمود معلقة طلبها على ضرورة الاستئذان من القائد، كتمت لينا غضبها في قبضة يدها وتوسلت إلى المشرفة:

لتمكن نور من رؤية الطبيب لها، حرّكت المشرفة رأسها رافضة لكل ما تقوله لينا؛ حتى اضطرت على مضض الاستئذان باتصال هاتفي مع القائد، خمس أو ست مرات ولا أحد يجيب، أمر طبيعي؛ فالساعة متأخرة ولا أحد على الأرجح مستيقظ، فكرت لينا أن تغامر وتدخل الطبيب على مسؤوليتها، لولا صوت ليث الذي أنقذها في آخر لحظة قائلًا:

- مساء الخير.

لم تستطع لينا أن تتمالك أعصابها؛ فبدأت بالبكاء وكأنها أخرجت كل ما في قلبها من حزن وألم، فقالت بصوت متقطع:

- ليث، نور متعبة جدًا وحرارتها مرتفعة، ونرغب بإحضار الطبيب لها، لكن..

أوقف ليث كلام لينا مسرعًا حين قال:

- أنا قادم.

وما أن أصبحَت الساعة الثانية صباحًا حتى كان الجميع يحفّ نور وهي على سريرها في المستشفى؛ ليث، مصطفى، اعتدال، وصديقاتها، فتحت نور عينيها وكأنها ترى أطيافًا بدأت تتضح أمامها، ابتسمت وتنهدت بألم؛ فقد فهمت كل شيء في لحظات، ساعدتها صديقاتها بإسناد نفسها، وبدأ الشحوب يحيط بوجهها والوهن بجسدها؛ فقالت بتعب واضح:

- أشكركم جميعًا، و أنا آسفة لإزعاجكم.

اقترب مصطفى خطوة من نور، وقال مبتسمًا:

- عليكِ أن تشكريني أنا وليث مرتين.

عدلت نور جلستها للمرة الثانية، وقالت:

- لماذا يا صديقي؟

- لأن صديقاتك جِئنَ بسبب حبهن لكِ، أما نحن فجئنا لسببين: أولهما أننا نحبك، وثانيها أننا نحب صديقاتك اللو اتي يُحبِبنك.

ضحكت نور وما زال الإرهاق مسيطرًا عليها، ثم قالت:

- هذا يعني أنكَ تحب صديقتي اعتدال.

- ولا أحب سواها، ومع سابق الإصرار والترصد.

عمّ الضحك أرجاء الغرفة، فيما كانت اعتدال تداري ابتسامتها خلف النافذة الموشحة بظلام الليل، وهذا ما أشعر نور بالتحسن تدريجيًا في صحتها، ثم قالت:

- لكن حب صديقتي متعب يا مصطفى.

- و أنا أحب هذا التعب وأعشق تلك الصديقة.

اتجهت جميع الأنظار إلى اعتدال التي تلون وجهها باللون الأحمر وهي تشعر بأنها تقابل هذا الشاب الوسيم بذاك الحب المخفي منذ سنين.

اقترب ليث من سرير نور، وقال:

- كيف تشعرين الآن يا نور؟

حركت نور رأسها مطمئنة ليث، وقالت:

- أنا بخير الآن، تستطيعون أن تغادروا؛ فغدًا ليس يوم عطلة كما تعلمون.

تدخلت رُبا في الحديث قائلة:

– هي أيام قليلة وتبدأ أجازتنا بعد ثلاث سنين، وسننام كما نشاء.

تذكرت نور للحظات كل ما جرى، إلا أن لينا التي كانت تجلس إلى جانبها وتحتضن يدها رغبت في تغيير الموضوع، فقالت:

– نحن لن نغادر حتى نطمئن عليكِ وتخلدي إلى النوم.

– اطمئنوا؛ أنا بخير.

لم يغادر أحد المستشفى إلا بعد الساعة الثالثة صباحًا، حيث اتجه كل إلى مكانه، وكذلك ليث؛ فهي نصف ساعة وكان في السكن ليتفاجأ بأحمد في انتظاره بغضب وتوتر، نظرا إلى بعضهما وألقى ليث التحية، ثم قال ببرود:

– تبدو مستيقظًا!

كانت عيون أحمد تسيطر على ليث وترفض هدوءه القاتل؛ فاقترب منه منفعلًا وقال:

– نور في المستشفى وتريدني أن أنام.

– من أخبرك؟

– لا يهم، المهم نور، كيف هي الآن؟

ابتسم ليث وهو ينظر إلى أحمد بطرف خفي، ثم قال:

– أما زال أمرها يهمك؟

صرخ أحمد بوجه ليث حين سمع كلامه، وقال:

– ليث، لا تستفزني.

وجّه ليث نظراته إلى أحمد للمرة الأخيرة، وهو يتجه إلى النوم قائلًا:

– أظن أن المستشفى قريب، وتستطيع أن تطمئن عليها بنفسك.

كان ليث يعلم تمامًا أن كلامه لن يترك لأحمد فرصة للنوم هذه الليلة أبدًا.

الهدوء الساكن في وجه نور أسعد اعتدال وهي تمد يدها لتمسح على جبين صديقتها النائمة بسكينة، فتحت نور عينيها مبتسمة لتداعب خيوط الشمس التي تفرض نفسها بقوة على عينيها، سعدت اعتدال برؤية صديقتها وقالت:

– صباح الخير يا نور.

رفعَت نور يدها وأعادت شعرها المتبعثر؛ ليحرس جسدها الممدّد باستقرار على السرير، ثم حركت رأسها يمينًا وشمالًا؛ لتستنشق هواءً عليلًا مغيبًا عنها منذ وقت طويل، ثم جلست على سريرها تنظر إلى صديقتها بسعادة، وقالت:

– أهلًا اعتدال، كيف حالك؟

كانت اعتدال ترقب صديقتها بحزن وهي تكابر على المها وترجو أن تكون نفسيتها هادئة كتعابير وجهها تمامًا، جلست على السرير وهمسَت قائلة:

– ماالذي جرى يا نور؟

وبدون بداية ولا نهاية، وبسرعة ضوء الفجر تغير السكون في وجه نور إلى تعابير لم تستطع اعتدال أن تقرأها إلا بعد أن نظرت إليها، وقالت:

– لم أعد أقوى على فراق من أحب يا صديقتي.

– ومن منّا يقوَى على ذلك؟

كان صمت نور جوابًا لسؤال اعتدال التي لم تكرره ثانية، بل همست بصوت

خافت قائلة:

- لماذا كان عليكِ أن تحرجيني بالأمس أمام الجميع؟

ضحكت نور وهي تذكر ما دار بينها وبين مصطفى من حديث، فقالت مبتسمة:

- وهل أثمر الحديث بيننا عن حديث بينكما؟

- لا؛ فالأمر ليس بهذه السهولة، وكفِّي عن أفعالك الشقية هذه.

ضربات هادئة على الباب وكانت الأعين معلقة بالزائر، من؟ لوهلة صغيرة خفق قلبا الصديقتين، كل منهما تظن أن الطارق هو الحبيب، فمن كان؟

- صباح الخير.

ابتسامة رسمية رافقها إفطار تقليدي من المستشفى خيّب ظن الاثنتين؛ فنظرتا إلى بعضهما بعدما استلمته اعتدال وقدمته إلى صديقتها التي رفضته معلّلة ذلك برغبتها في تجهيز نفسها لمغادرة المستشفى.

تناولت اعتدال كأس الشاي وقبلته بدفء وكأنه جاءها هدية من السماء، ثم نظرت إلى نور وقالت:

- أين تنوين قضاء أجازتك؟

جمعت نور ثيابها التي ستغادر بها، واتجهت لارتدائها قائلة:

- لا أعرف، ربما أولها في قريتي وآخرها في حفل زفاف لينا، وأنتِ؟

جلست اعتدال على المقعد أمام نافذة الغرفة، ومدت قدميها على سرير نور، ثم قالت بمرح: أما أنا فلا أعرف، ربما أولها في قريتي وآخرها في حفل زفاف لينا.

توقفت نور دقيقة ونظرت إلى اعتدال، ثم انفجرتا بالضحك الذي يخبئ في داخله حزنًا عميقًا.

ها قد عادت نور ثانية إلى السكن الذي تحول إلى خلية نحل؛ الجميع منهمك في تحضير حقائب السفر، الشوق يملأ القلوب، والابتسامات تتلقفها الأيدي والوجوه، فبعد غد سينطلق الجميع للُقيا أحبائهم، أما نور فهي لن تعود إلى عملها بسبب خروجها من المستشفى؛ لذا قررت أن تجلس لتراقب الفتيات وخاصة لينا التي كانت فرحتها مضاعفة بلقاء أهلها وحفل زفافها، كان رأس نور لا يتوقف عن الحراك يمينًا وشمالًا، فهذه هنا وتلك هناك، وهي تدفن نفسها في سريرها الدافئ و ابتسامتها الصامتة.

- نور.

نظرت نور بسرعة إلى رُبا التي وقفت تنظر اليها بشوق وحب قائلة:

- ألن تغادري معنا إلى القرية؟

- بلى، لكني سأحضر حقائبي غدًا و أنتم في المعسكر.

ارتبكت رُبا قليلًا قبل أن تهمس لنور بقولها:

- نور، هل تعلمي أن ما يحزنني في هذه الأجازة هو أن...

تدخّلت عندها لينا قائلة بسعادة:

- كفُّوا عن حديث الحزن، يجب أن نفكر أن أجمل ما في هذه الأجازة هو أن كل من في المعسكر سيحضرون إلى قريتنا ويحضرون حفل زفافي.

ابتسمت نور ورُبا بسعادة وهن يتخيلن ذاك اليوم، فعلقت نور قائلة:

- سيكون يومًا جميلًا بالتأكيد.

هزت رُبا رأسها، وأكدت كلام صديقتها قائلة:

- وسيكون يومًا رائعًا أيضًا.

كانت نظرات أحمد لا تفارق ليث الذي يجهز نفسه ليرأس المعسكر في أول أسبوعين من الأجازة بدلًا منه، فيما يرأسه القائد بعد أسبوعين ليتمكن ليث من التجهيز لحفل زفافه، مشاعر أحمد المتدفقة من قلبه إلى قلبه كان يشعر بها ليث تمامًا، لكنه كان ينتظر أن يصرّح بها القائد؛ ليرتاح قليلًا، ولهذا كان صامتًا على الدوام، حتى أوقفه القائد لحظة وقال:

- لماذا تصر على إتعابي؟

كانت لهجة القائد مثيرة للحزن، وكأن ليث يسمعها لأول مرة، نظر إليه مرارًا وقال:

- أنا يا أحمد؟!

- لكنك لم تخبرني شيئًا عن نور.

صمت ليث لفترة، أراد أن يتهرب من السؤال والجواب؛ فهو لا يمتلك القرار ليجبر به صديقه، ولكن في النهاية يجب أن توضع الأمور في نصابها الصحيح، جلس ليث وأخذ بيد صديقه ليجلسه إلى جانبه قائلًا:

- بالنسبة إلى صحتها جيدة، وقد خرجت من المستشفى، لكن نفسيتها سيئة جدًا، هذا ما قرأته في عينيها آخر مرة، هي أخطأت بلا ريب، ولكن..

أوقف أحمد ليث في إشارة من يده، وقال بحدة:

-لا يا ليث، لقد حذرتها أكثر من مرة ألا تتدخّل في عملي ولا تخلط بين حبي لها ومركزي كقائد للمعسكر، وهي لم تستمع؛ فلتدفع الثمن إذن.

نظر ليث إلى صديقه، وهمس له بحب قائلًا:

- ما زلتَ تحبها يا أحمد؟

ابتسم أحمد وتنهد بشوق، ثم قال:

- أكثر من أي وقت مضى.

مضى الوقت مسرعًا، إلا عند نور التي تعمدت تأخير نفسها؛ لئلا تلتقي بالقائد حين يحضر ليرافق عُلا، فما أن غادرت عُلا حتى جهزَت ونزلت إلى ساحة السكن؛ لتنطلق إلى السيارة التي ستقِلها مع صديقتيها إلى القرية، جلسَت الفتيات الثلاثة ترافقهن الابتسامة والسرور، تذكَّرْنَ تلك اللحظات التي جمعتهن حين جِئْن إلى المعسكر أول مرة، عقّبَت نور على تلك الذكريات بقولها:

- لَيتنا لم نُقبَل ولم نأت إلى هنا.

- لماذا يا نور؟

ردت عليها لينا باستغراب، فيما كانت تنظر إلى المعسكر بعد مغادرة الجميع له، ثم قالت:

- كنا أكثر سعادة وصفاءً، ولم تكن الحياة قد شوّهت بعد أيامنا الجميلة.

أقفلَت اعتدال حقيبتها ووضعتها جانبًا منتظرة مصطفى الذي مشى نحوها في لحظة للانطلاق نحو قريتهما، توقفت فجأة ونظرت إلى مصطفى، ثم قالت:

- سأذهب لمدة أسبوع لزيارة أهلي، ولكن..

كان مصطفى يستمع لاعتدال باهتمام، ورغب بأن تكمل كلامها فقال:

- ولكن ماذا؟

- ولكني لا أريد أن أراكَ في هذا الأسبوع.

شعرت اعتدال بقليل من الندم وهي ترى مصطفى يهز رأسه مو افقًا، ثم قال:

- كما تشائين.

إلا أنها لم تتحرك خطوة واحدة، بل بقيت و اقفة وهو ينظر إليها مجددًا ليسمع ما ستقول، وقد تفاجأ حين قالت له بشيء من الغضب:

- كأن الفكرة قد ر اقَت لكَ، أو كأنك كنتَ في انتظارها.

شعر مصطفى أن اعتدال ترغب بإزعاجه، فقال في نفاذ صبر:

- أعتقد أن الوقت ليس مناسبًا للشجار، قد طلبتِ منّي طلبًا وو افقتُ عليه إكرامًا لك؛ فغضبتِ لاني و افقت، ماذا أفعل لكِ؟

قبضت اعتدال على حقيبتها و انطلقت خارج البيت، وهي تقول:

- لا شيء، لا أريد منكِ شيئًا.

القرية على حالها نهاية كل شتاء وبداية فصل جديد؛ خجولة تغطّي نفسها بقليل من أوراق الشجر الصغيرة، لم تكن نور تعتقد أنها كلما ابتعدت عن المعسكر زاد حزنها، يالهذه المعادلة الغريبة، كيف نحزن حين نفارق أحزاننا؟ إلا أنها أصبحَت جزءًا منا؟ أم لأن بفراقها نفارق الأحباب الذين سببوا لنا هذه الأحزان؟ كانت نور تحاول أن تنسى ما حدث معها تمامًا في تلك السنوات الثلاث، مهلًا؛ تُرى بماذا يفكر القائد الآن؟ أنَسِيَ شوقه لي؟ كيف مرّ كل هذا الوقت دون أن يسال عني؟ لعلّه لم يعد يتفرغ لأن يذكر أحبابه، أي احباب؟ قد أصبحتُ جزءًا من تاريخه القديم الذي طواه إلى الأبد، ماذا لو نسِيَ القائد حبه لي، كيف سأعيش؟ كيف ستكون وستمضي أيامي؟ أنا لن أحسن العيش بدونه، كل المعاني ستموت من قلبي، حتى لونُ وطني لن أجده ثانية، أكانت الحياة تنتظر أن تزرع السعادة لتحصد لنا الألم؟ كل هذه المشاعر والأفكار كانت تغزو رأس نور المثقل، والذي منعها من الاستسلام للنوم كصديقاتها.

كان استقبال لينا ورُبا للقرية رائعًا، لم تندم نور بعدما رأته على ما قدمته من تضحية لصديقتها رُبا؛ فلقاء الوطن يعني لنا الكثير، يختصر الحب والسعادة وكل المعاني الجميلة في لحظة واحدة، وهذا لا يكون إلا للوطن.

وما أن وصلَت نور بيتها الساكن مكانه حتى ألقَت بنفسها في حضن أمها العتيق لتعود سنين طويلة إلى الماضي، فيكف الزمن عن محاسبتنا على أخطائنا، أكان الذنب الذي اقترفناه أننا كبرنا رغمًا عنا وصرنا محاسَبين حتى على حبنا؟

كان صوت نور متعبًا؛ فهي لم تقل شيئًا منذ جاءت، بل أخفت آلامها خلف قطرات الماء الساخنة التي أراحت جسدها المنهك، ثم أرخَت نفسها على سريرها الدافئ، كان الغروب يحاول إرخاء ذيوله على القرية لولا حضور أيمن الذي توقعته نور منذ طرق الباب؛ فأشعرها بأن الشمس أشرقت مجددًا لبدء يوم طويل، لم تحرك نور نفسها، بل نظرت بعينيها إلى ذاك الشاب الذي يقف بسعادة ينظر إليها، ويعاتبها قائلًا:

- أنتِ هنا منذ وقت و أنا لا أعرف.

كانت ابتسامة نور المستهترة تحتل وجهها تمامًا قبل أن تتنهد قائلة:

- أمري لم يعد يعني أحدًا يا خالي.

- إلا أنا ياحبيبتي.

بدأت دموع نور تتساقط بحزن، فكم مرة سمعت هذه الكلمة، وكم مرة عليها أن تسمعها؛ لكي تستقر قلبها ولا تغادره، ولعلها لن تسمعها مرة ثانية إلا في ذكرياتها الجميلة.

جلسَت نور ومسحت دموعها فور رؤية والدتها تدخل غرفتها؛ لتذكرها بموعد العشاء، هزت رأسها وتحركت بصمت مع خالها، والذي وقف إلى جانبها هامسًا:

- منذ وقت طويل جدًا لم أر ابتسامتك يا نور.

- بقي عامان لأعود هنا إلى الأبد، لعلكَ عندها ستراها دومًا.

- كيف تتحملين كل هذا الحزن والألم يا عزيزتي؟

أجابت تعابيروجه نور عن كل أسئلة خالها المحزنة، والتي يعرف إجابتها تمامًا.

ما أجمل شروق الشمس حين يتخلل أوراق الشجر فيضيئها، ويوقظ صوت العصافير وهديل الحمام؛ لتعزف لنا أنشودة حبنا تارة سعيدة وأخرى حزينة، وهذا شأنها اليوم مع أحمد الذي كان يجلس يرقب في غرفته صباح أول يوم قضاه في بيته منذ وقت طويل، بماذا كان يفكر؟ هذا ما سألته عُلا وهي تقبض على بعض الأزهار الملونة بيدها الجميلة، نظر إليها بحب و ابتسم رادًا على سؤالها:

– لا أفكر بشيء مهم.

نظرت عُلا بخبثٍ إلى أخيها وهي تعرف تمامًا أنه يفكر بنور، فقالت:

– لعلكَ تفكّر بنور؟

كانت أنامل أحمد تداعب تلك الأزهار الجميلة وهو يحاول التهرب من سؤال شقيقته؛ فنفى ذلك حين حرك رأسه يمينا وشمالًا؛ مما دفعها إلى جذب الكرسي البعيد عنها والجلوس قائلة:

– أمر غريب.

– وما هو الغريب؟!

– اليوم يصادف عيد ميلاد نور، ألا تستحق منك الاهتمام قليلًا؟

– لا.

– أخي، أرجوكَ لا تكن قاسيًا.

بدأت ملامح الجدية تسيطر على القائد وهو ينظر إلى شقيقته قائلًا:

- ليتكِ تصمتين، فيكفي ما فعلتِهِ وكنتِ السبب فيما حصل.

- صباح الخير.

نظر الشقيقان إلى الأم التي تقف بسعادة وهي ترقب ولديها يجلسان بهدوء، فردّا:

- صباح الورد يا امي

اقتربت الام لتقبل ولدها وهي تكاد لا تفارقه لحظة وتقول:

- هل تبخل علينا بالجلوس معنا لتناول قهوة الصباح يا أحمد؟

- لا يا أمي، أنا أضع كل شيء في حياتي جانبًا؛ لأجل عينيك الجميلتين.

كانت عُلا تر اقب الموقف بشيء من العطف والخبث، فتدخلت في الحديث قائلة:

- إلا..

نظر أحمد بسرعة وقوة إلى عُلا، ثم وقف وما زالت يده بيد أمه قائلًا:

- إلا ماذا يا علا؟

- لا لا شيء، فنحن هنا في بيتنا، أنتَ لستَ سيدي و أنا لستُ مجنّدة عندك.

كان الكلام يزعج الأم وهي تشعر أن هناك ما لا تفهمه في الموضوع، فقالت بضجر:

- أنا لا أسمح لكِ أبدًا أن تزعجي شقيقك.

نظر أحمد بنصر إلى شقيقته، والتي اتجهت إلى باب الغرفة، وقالت:

– أبي سيحميني من تحالفكما ضدي.

أسبوع كامل مر من الشهر ونور ما زالت ترقب الهاتف، كلما رن خطف قلبها معه، فإن لم يكن من تريد تبقى وقتًا طويلًا تهدئ من دقات قلبها وتعيدها كما كانت، بدأت تشعر كأنها أصبحت في خرم إبرة مسمومة، لم تعد تتذوق طعمًا لا لوجودها في القرية، ولا لجلوس خالها قربها، ولا حتى لدفء الربيع الذي ينتظره الجميع، كات تمر بحالة من الصدمة، لم تستوعب بعد أن كل شيء انتهى بهذه السهولة؛ فقد نسيَت كل شيء، إلا وعد القائد لها بأن يكون زفافهما عند أزهار شجر اللوز، ها هو أزهر، كانت نور ترقبه كل يوم؛ تخشى أن تفتح النافذة فلا تجد لونه الأبيض يملأ المكان، كم بقي حتى يثمر؟ كل يوم تسأل أمها ولا تنتظر الجواب لئلّا تخبرها أن بضعة أيام بقيَت وينتهي كل شيء.

كانت اعتدال تركض مسرعة؛ لتفتح الباب ظانة أن الطارق هو مصطفى، فقد انتهى الأسبوع الأول وهي في انتظاره كما اتفقا، وصدق ظنها حيث كان يقف مبتسمًا بشوق وسعادة، اقترب منها، وبث شوقه في قُبلةٍ طبعها على جبينها قائلًا:

– اشتقتُ إليكِ كثيرًا.

بقيَت اعتدال صامتة، بينما سلّم مصطفى على عائلة زوجته بحرارة، و انتقل إلى غرفة اعتدال حتى يغير ثيابه ويتخلص من عناء الطريق، نظر إليها مداعبًا وقال:

– هل أُغلق الباب يا سيدتي؟

أشاحت اعتدال وجهها مخفية ابتسامتها ومظهرة غضبها قائلة:

- قلتُ لكَ لا أريد أن أراكَ، ولم أقل أني لا أريد أن أسمع صوتك.

ابتسم مصطفى وهو يستمع لعتاب اعتدال الذي يعلوه الحب والشوق، فقال:

- عجبًا! تكرهينني وتحبين صوتي؟! حسبتُ أنكِ لا تريدين شيئًا مني كما أخبرتِني؛ فاجتهدتُ ألا أتصل بكِ أيضًا.

كان الغضب يسيطر على ملامح اعتدال وهي تحاول ألا تبكي، فقالت:

- لا بأس من أن تقول الحقيقة.

- وما هي الحقيقة؟

- أنكَ لا تشتاق إليّ ولا تريد رؤيتي.

تنهد مصطفى ضجرًا من كلام اعتدال، وبدأ صوته يتجه إلى الجدية والعتب، فقال:

- أنتِ غريبة التفكير يا عزيزتي.

- بل أنا لا أريد أن أظلمكَ معي، فمن حقكَ أن تختار شريكة حياتك، وأن تعيش معها الحياة التي تحلم بها ولا تعيش مع امرأة تكرهك.

اعتدال كانت تشعر بحزن شديد إلى درجة البكاء المتواصل؛ فرقّ لها قلب مصطفى و اقترب منها يضم يديها الاثنتين بيديه الدافئتين وما زال محافظًا على ابتسامته، وهمس لها بعشق قائلًا:

- ماذا أفعل حتى تصدقي أنني أحبك أنتِ فقط، و أنني لو شعرت للحظة أن في عينيك كراهية لي لتركتك الآن؟

حاولَت أن تبعد يديها عن يديه وهي تشعر بالضعف يحتل أجزاء جسدها؛ فابتعدت خطوة ليقربها خطوتين، وما زالت الدموع تستقر في عينيها العنيفتين، فقالت بقسوة:

– أنا لا أحتاج إلى عطفك، و أنتَ لا تحتاج إلى جفائي.

– أنا الآن أحتاج إلى شيء واحد فقط، أتعرفين ما هو؟

نظرت اعتدال إلى من تحب بلهفة، فيما كان يحيط بها بشوق ويرغب بأن يهدئ من انفعاله قليلًا، قبل أن يهمس لها قائلًا:

– أحتاج إلى أن ألقّنكِ درسًا في الحب لن تنسيه أبدًا.

كانت خُطى نور ثقيلة حزينة وهي ترقب أمها تعمل في المطبخ لا تفكر إلا بتحضير الإفطار ورسم السعادة على وجه ابنتها، كانت خائفة حزينة ترغب بالبكاء، اقترَبَت من أمها، لم تستطع أن تلقي تحية الصباح، فقالت:

– أمي، هل أثمر شجر اللوز؟

– أجل يا نور.

لم ترقب الأم الحزن في عيني ابنتها والأسى يملؤها، فقالت:

– كله يا أمي؟

– أظن ذلك، لعل الشجر البعيد قليلًا لم يثمر بعد، تستطيعين التأكد من ذلك.

اتجهت نور تهمّ بالخروج من المطبخ، فنظرت إلى أمها للحظة وقالت:

– إذن سأغادر.

- إلى أين يا ابنتي؟
- لا أعرف يا أمي.
- نور..نور.

لم تستجب نور، بل انطلقَت إلى المعسكر لتبدأ حياة جديدة لا تعرف نهايتها أبدًا.

هنا جلسنا ذات يوم وحلِمنا أن نعيش حياة تبدأ بإشر اقة الشمس وتنتهي بضحكاتنا، أذكر تمامًا الحب الذي سيطر على ذرات الهواء من حولنا؛ فغيّر شكل الصباح الذي كنا نعهده إلى شكل آخر في الوطن، يالهذا الحزن الذي لا ينتهي، على هذه الطاولة جلستُ أنا والقائد، وعدَني بالحب والشوق، وهمس لي أن زواجنا سيكون عند أزهار شجر اللوز، فها هو قد أزهر و أثمر وودعنا ليأخذ معه ما كنا نرجوه من الحياة، دقائق سعيدة بل ثوان، لو توقّفتَ هناك أيها الزمن لأخبرتك أن لا شيء في الكون يساوي أن نسرق لحظة الحب في تألقها، عندها سنبكي ونبكي ونتذوق طعم الأسى بكل ألو انه، ونزرع في قلوبنا جبلًا من الحزن يحرقنا ويقتل كل ابتسام فينا، هل أخطأتُ إلى درجة أصبحت فيها ذكرى؟ لا بأس؛ كل شيء سينتهي، ويومًا ما سأعود إلى وطني يحتضنني ويقبّلني ويغفرلي، ثم يمنحني القدرة على الابتسام ثانية، هل أستطيع أن أسعد مرة أخرى، فأنت كأذان الفجر تعود مرتين يا أيها الحزن المتكئ على قو افل قلوبنا.

- صباح الخير.

رد ليث التحية على مجد وهو يحمل أور اقًا كثيرة، تناولها وقلّبها دون أن ينظر إلى مجد الذي تمنى لو أن قائده لا يرفع رأسه فيكشف قلقه وتوتره، وهذا ما لم يكن حين رفع ليث رأسه، وقال مبتسمًا:

- أرجو أن تحتفظ بهذه التقارير حتى يأتي القائد، فكلها أربعة أيام وسيعود.

هز مجد رأسه وهو يعلم أن هذه التقارير تتحدث عن أحوال المجندين في أجازتهم ومكان إقامتهم بتفصيل دقيق، لكنه لم يكن يعلم ماذا سيفعل ليث لو علم ما يحدث الآن، شعر ليث أن هناك مشكلة؛ فعينا مجد لم تكن على ثقتها الدائمة وراحتها، قلّب نظره متمعنًا فيه، ثم وقف وتقدم اليه قائلًا بهدوء:

- ما بكَ يا مجد؟

انتفض مجد حين سماع اسمه وصمت؛ مما أقلق ليث قليلًا، فقال مجددًا:

- هناك ما تخفيه عني، أليس كذلك؟

شيء وحيد كان يشعر مجد بالراحة؛ أنه لا يقف أمام القائد، وإلا لكانت الطامة الكبرى، حاول ليث أن يُشعر مجد بالهدوء ويزيل عنه التوتر؛ فصمت ونظر إليه مطولًا، حتى اضطر مجد أن يرفع نظره إلى قائده بتوتر و أنفاس متقطعة، ليقول:

- نور...

تسمّرت عينا ليث على مجد، وتقدم منه بسرعة، وقال خائفًا:

- ما بها نور؟ هل حصل لها شيء ما؟ تكلم.

حاول مجد أن يهدأ دون فائدة؛ فردة فعل ليث أخافته أكثر، لكن القلق والاضطراب الذي سيطر على قائده جعله متلعثمًا ومتقطع الصوت، فقال:

- لقد دخلَت المعسكر قبل ثلاثة أيام ولا نعرف أين هي الآن.

- ماذا تعني يا مجد؟

- لقد اختفت.

كان الخبر سيئًا، مروعًا، عكر صفو ليث تمامًا؛ فصمَتَ والوجوم يسيطر على جسده الغاضب الحزين، حاول مجد أن يخفّف مما أصاب ليث قليلًا، فقال:

- سيدي، ربما ستعود قريبًا، و أنا سأبذل قصارى جهدي لمعرفة مكانها، أعدكَ بذلك.

كان ليث يعلم تمامًا أنه في مشكلة كبيرة، فمجرد دخول نور المعسكر وعدم خروجها منه يعني أنها مسؤولة منه وحده، وبعد ساعة خرج مجد وقد اتفقا على أمرين؛ أولهما عدم إخبار القائد بما حدث، وثانيهما أن يبحثا عنها بكل الطرق المتوفرة لديهما.

ما أقسى هذه الأيام الثلاثة التي مرت على ليث ومجد، وكذلك نور وأحمد؛ فالضيق الذي أصاب ليث كان خانقًا... أخفى سعادته ورغبته بالتحضير لحفل زفافه، لم يعنِهِ أن القائد قد يعاقبه ويتهمه بالإهمال، بل كان خائفًا على نور؛ فمنذ ستة أيام لم يثبت تقرير واحد عن مكان وجودها رغم جهد مجد المتواصل، وأخيرًا لا بد من إخبار القائد؛ فغدًا سيعود إلى عمله ويعرف كل

شيء، ولكن كيف يمكن أن يخبرا القائد؟ فكّرا طويلًا ومجد يرجو ليث ألا يدعه هو من يخبر القائد؛ لأن الأمر سيكون سيئًا جدًا، وفي النهاية استقرّا على رأي وهما في غاية القلق والاضطراب.

الهدوء يعم بيت القائد وهو يسرق لحظات بعد الظهيرة؛ ليجالس أهله قبل عودته للمعسكر في اليوم التالي، كان مع والده يتحدثا عن الحياة العسكرية والخسائر التي تلحق بصاحبها، فيما كانت عُلا ترجوهما أن يكفّا عن هذا الحديث الممل، والأم ترمق عُلا بنظرات تأمرها بعدم توجيه الحديث القاسي -كما تسميه- لشقيقها، لم يكن أيّ منهم ينتظر زائرًا وعُلا تتجه إلى باب الحديقة لتفتحه، لم تتفاجأ حين رأت مجد يقف بابتسامة مصطنعة... جدية، أدخلته البيت والجميع يرمقه باستقبال هادئ ولطيف، حاول مجد أن يداري مشاعره بالنظر المتواصل إلى الأرض في تصرف لم يألفه القائد عنه رغم معرفته به منذ سنوات، جلس مجد بعد إصرار القائد عليه، فيما لم يغادر أحد الجلسة؛ فقد كان والدا القائد يرغبان في رؤية ولدهما وهو يمارس قيادته العسكرية بجدية، كان أحمد يظن أن مجد يشعر بالخجل؛ فعرض عليه أن يجلسا وحدهما مما أثار رفض مجد الذي كان يرجو أن يخفف والداه من الخبر الذي يحمله للقائد، ولا يعرف بعد ماذا يمكن أن يفعل؟ بدأ القائد بالحديث مبتسمًا وهو يسأل عن أحوال المعسكر وأخبار ليث، كان مجد يهز رأسه أمام كل كلمة يقولها القائد في تعبير عن أن الأمور بخير وأحسن حال، وبعد... الشجاعة، القوة، الإرادة، كلها نحتاج لنواجه موقفًا صعبًا، وفي النهاية نواجهه بأي منها، كأن القائد بدأ يفهم أن هناك ما يخفيه مجد في طيات عينيه الغائبتين عنه، لكنه لم يقل شيئًا؛ فهو زائر وليس من حقه أن يمارس عليه دور القيادة، شعر مجد أن من غير المناسب بقاءه صامتًا وهو يحمل خبرًا كهذا،

فعدل جلسته وقال:

- هناك أمر لم أخبركَ عنه يا سيدي.

كل الأنظار اتجهت إلى مجد والخوف والقلق يتنقلان بين عُلا ومجد والقائد، قبض القائد على يديه محاولًا كتمان اضطرابه قليلًا، ثم قال:

- كأنه أمر مزعج.

حاول مجد أن يبتسم ليخفف من حدة كلامه، فرفع عينيه إلى والدي أحمد راجيًا أن يمنعا غضبه قليلًا، تنحنح ثوان وقال:

- بعض الشيء يا سيدي.

وقف أحمد بسرعة حين ذهب ذهنه إلى ليث، فقال بكثير من الهلع:

- ماذا حدث يا مجد؟ هل جرى أمر مزعج لليث؟

- لا سيدي، اطمئن؛ فهو بخير، إنما...

اقترب أحمد من مجد وهو لا يدرك كم خطوة خطاها ليصل إليه، فيما بدأت عُلا ترتعش خوفًا من سماع ما يزعجها، حاول مجد أن يختصر كل هذه الانفعالات؛ ليقول كل شئ في لحظات.

- سيدي نور اختفت..

نور حبيبتي؟ كيف؟ متى؟ ماذا يعني اختفت؟ أهو كابوس ليس له زمن أو نهاية؟ لم يستطع أحمد أن يتدارك الخبر؛ فجلس كأنه فقد العالم كله، كان حزينًا، تائهًا، بلا وطن، بلا قلب ولا نبض، هي المرة الأولى التي أحاطت الدموع بعينيه فلم يعد يقوى على إيصال أنفاسه إلى جسده الضعيف بلا روحه، من قال أن لحظات الربيع دائمًا جميلة؟ لعلها تحمل حزنًا لا نستطيع تحمله؛ فنحن لا نحتمل القسوة ممن تحب كما تأتي ممن لا نحب.

تذكر أحمد في لحظات وجه نور كأنه أمامه الآن، ألن يراها ثانية؟ إذن كيف قسى القلب عليها دفعة واحدة دون أن يسمعها؟ كيف قضَيتُ كل هذا الوقت دون أن أفكر في رؤيتها أو السؤال عنها؟ كيف أزهر اللوز وغادر دون أن أتحدث إليها؟ كيف حصل كل هذا؟ لم يستطع أحمد أن يقول شيئًا، بقي صامتًا فيما كانت عُلا تبكي بهدوء وهي تسأل مجد كيف حدث هذا؟ رفع مجد كتفيه وهو يتنهد بألم ويقول:

- لا أعرف، لقد قرأت اسمها وقد عادت إلى المعسكر بعد أسبوع من الأجازة، بحثت عنها في كل مكان لم أجدها، وها هو الأسبوع الثاني يمر دون أن أعرف عنها شيئًا.

تدخلت الأم للحظات، وهي تهم بالبكاء وتقول:

- من نور؟

كان الأب ينتظر الجواب بعدما رأى انفعالات ولده العنيفة، والذي تدارك نفسه وقال بغضب:

- وليث؟

كان مجد يحاول أن يمتص غضب القائد من صديقه، فقال:

- ليث لم يأل جهدًا في البحث عنها.

وقف أحمد يسابقه الحزن والألم، نظر إلى مجد وقال:

- هيا يا مجد، علينا أن نعود إلى المعسكر الآن.

وفي لحظات وقفت عُلا إلى جانب شقيقها والحماس يملؤها وهي تقول:

- سأذهب معكم.

رفض أحمد فكرة عُلا بالذهاب معهم معللًا ذلك بأنه ينوي البحث عن نور في كل مكان، وما هي إلا ساعة واحدة وكان القائد مع مجد قد غادرا إلى المعسكر لعلهما يعرفان مكان نور عما قريب، شعرت علا وهي تعود إلى أحضان والديها دون وجود شقيقها بأن قلبها فارغ تمامًا، وهي تتذكر نور صديقتها العزيزة التي لا تعرف أين أرساها الزمن، كانت تحاول أن تطرد كل التخمينات القاسية من عقلها وقلبها؛ لتشعر قليلًا بالهدوء، نظرات والديها لم تفارقها وهي لا تكاد تستقر في مكان، كان صوت والدها يأتيها متسائلًا وقويًا وهو يقول:

– عُلا، أخبريني من نور هذه التي كاد أحمد يفقد صوابه لأجلها؟

فكرت عُلا قليلًا، لا تعرف ما تقول، كان سؤال والدها محرجًا لها بعض الشئ فلم تجب، إلا أن نظراته كانت حادة بما فيه الكفاية، داعبت خصال شعرها بأناملها وقالت:

– إنها... إنها...

– إنها مَن يا عُلا؟

– أعتقد يا أبي أنها...

– حبيبة أحمد؟

كانت صراحة والدها محرجة؛ فأشاحت وجهها لتنظر إلى أمها التي وجدت عندها نفس النظرات، فقالت:

– أظن ذلك يا أبي.

لتوه شعر والد ووالدة أحمد بأن ولدهما كبر وأصبح رجلًا قادرًا على قيادة معسكر بأكمله، وكذلك على عشق امرأة جميلة كنور.

- أين نور يا ليث؟

كان سؤال القائد لليث قاسيًا رغم توقعه له ورغم معرفة القائد بجهل ليث، كانت الكلمات عاجزة عن الحديث، وهنا أعلن ليث جهله وعجزه قائلًا:

- لا اعرف.

حاول ليث طويلًا أن يتجاهل نظرات أحمد القاسية التي لم تعطه مجالًا لأن يبتعد عنها، لكن معرفته بصديقه كانت تجعله يتأكد أنه كان يعمل حسابًا لحفل زفافه بعد عشرة أيام، وإلا لكان بالتأكيد سيتصرف بشكل آخر؛ لذا اقتصر على قوله:

- ومن يعرف إذًا؟

نظر ليث بحزن إلى صديقه، وقال:

- افعل ما تشاء وعاقبني بأية عقوبة، امنع زواجي إن أردت، ولكن أريد أن أطمئن على نور.

وحين تقابلت نظرات الصديقين ذرف أحمد من عينيه دموعا صعبة شديدة، لم يستطع أن يكتمها، ثم قال والعبرات تخنقه:

- أنا لا أسألك معاتبًا، بل أريد من يواسيني بفقدانها.

اقترب ليث من أحمد وهو يشعر بمقدار الألم الذي يعتصره، ثم عانقه بحرارة قائلًا:

- لا تقلق يا صديقي، أنا متأكد أنها بخير وستعود قريبًا.

لم يستطع ليث أن يقول غير هذه الكلمات رغم تأكده من وجوب القلق على نور، خاصة وانها لم تخرج من المعسكر كما تؤكد التقارير، فأين ذهبَت إذًا؟

لا بأس من أن ننسى أحزاننا ونؤجل آلامنا للحظات حين نشعر أن لا معنى للحياة، فربما النسائم التي تلقيها علينا سحب الربيع تصنع لنا شأنًا آخر، لا يهم أن نلقي الحب ممن نحب، فلماذا سمّي حبًا إذًا؟ لأننا نعشق دون مقابل، ليس كذلك فقط؛ بل حتى لو لم نرى من نحب على الدوام فهم يستحوذون على القلب وينشرون ضحكاتهم، حتى إذا تقابلنا يومًا نستنشق هواءهم ونحرص ألا نزيّن أعيننا إلا بهم.

كانت نور منهكة، متعبة، أدماها العشق، فلم يعد لها دنيا جميلة ولم تعد قادرة على مواجهة الذكريات وصناعة هوى من جديد، كانت تستمع لكلمات صديقتها مروة وهي تسترخ على بساط الربيع تحاول بث الابتسامة في نفسها مجددًا، فمنذ وقت طويل لا تذكره نور لم تشتم رائحة الربيع ولم ترقب لون السماء الأزرق الذي يبتسم ليضيء الكون بألوانه الزاهية، حتى أنها نسيَت كم يومٍ صار لها في هذا المعسكر، ما كان يهمها هو أن ترحل في نهاية الأجازة لحضور زفاف لينا، لكنها لم تكن تعلم أبدًا أن كل من يحبها يبحث عنها في شوق ولهفة بالغين.

أحمد يحرّك حدقات عينيه في كل اتجاه؛ يحاول أن يحتوي بهما وبقلبه قرية نور الهادئة، كل المشاعر سكنت قلبه وكأنه بركان انفجر مُخرجًا كل ما فيه، فهم أن نور كانت محقة بعودتها إلى قريتها كلما شعرت بالضيق؛ فالوطن جميل، وأجمل ما فيه حين يحنو علينا فيصبح كعروس جميلة لا يكفيها روعة واحدة، كان القائد يتفقد القرية يسائلها كم مرة داعبَت نور؟ وفي أي الطرق

مشَت؟ هل بكت عند هذه التلة؟ أم ضحكت هناك حيث الجبال التي تصنع لوحة كحلم أو أفق من لونين يبهران الناظر إليهما؟ منذ دخل القائد القرية وهو عاجزعن الحديث، وكأنه لا يكلم إلا نور التي يراها في كل شيء جميل، حتى هواء القرية الربيعي، كان يعضّ على شفتيه وهو يلوم أشجار اللوز التي أثمرت مبكرًا هذا العام؛ فلم تعطه فرصة لرؤيتها واحتضانها بقوة كما وعدها، لقد تعب القائد، بحث عن نور في كل مكان حتى علم الجميع باختفائها، لم يبق أمامه إلا بيتها، رغم أن ليث أكد له استحالة وجودها؛ لأن لا خروج من المعسكر مدوّن لها، فكيف عادت دون علمهم؟ وفي النهاية استسلم ليث لإرادة القائد في البحث عنها أو القرب منها بزيارة قريتها، فلعل روحها الساكنة هناك تشعر به، كانت أشجار القرية ترحب بالقائد وتفتح ذراعيها تمامًا كنور وهي مشرقة، كم تركتِ من أسى في قلبي أيتها الحبيبة؟ هي أيام كانت وسنلتقي، فلماذا اختصرتِ كل شيء ومضيتِ بهذه السرعة؟ يالقسوتك! ألا تعلمين بأني أبحث عنك قلقًا فزعًا؟ يجب أن تعلمي تمامًا أنني فقدتُ كل شيء ندعوه جميلًا، وأصبحَت قسوة الشتاء حين أراكِ أجمل من نسائم الربيع دونك، قريتك جميلة يا عزيزتي، وربيعها أنتِ، حين نمزج لون الثلج الأبيض مع وريقات الخريف وصوت العصافير، مع كل دقيقة تمر في صيف هي كلها حين نحملها ونضمها في حضن الوطن ورائحة برتقاله أنتِ، تتربعين في قلبي وأهمس لكِ أنا هنا في قريتِك، فلنقف دقيقة حب لا تكون لسوانا.

- أين نور؟

كم مرة سأل القائد هذا السؤال، لكنه الآن بنكهة مختلفة؛ فهو يقف أمام بيتها ويسلم بحرارة على خالها آملًا أن ينتظر الجواب، كان كلاهما ينظران إلى بعضهما بحب واحترام، فمن تجمعُهما هي حبيبة للاثنين، حاول القائد أن لا يظهر شيئًا من القلق عند سؤاله لأيمن الذي بدا خائفًا من زيارة القائد

وسؤاله؛ فقال مضطربًا:

- نور! لقد عادت إلى المعسكر، هل حدث شيء ما؟

- لا أبدًا، إنما كنتُ في زيارة القرية وأحببت رؤيتها.

كانت قبضة القائد و أيمن ما زالتا ملتصقتين، كل منهما متمسك بقراره، أيمن في دخول أحمد إلى البيت والقائد بضرورة عودته إلى المعسكر مبكرًا، وحسم الموضوع تواجد أم نور في لحظات مرحبة بالقائد وراجية دخوله بيتها، كان أيمن يرى في عيني القائد شوق بالغ لنور وكأنه يتفقدها في كل ركن من البيت، يحاول أن يبحث عنها وهو كاتم لهواه، متنسم لجماله، أم نور لطيفة هادئة، هذا رأي أحمد حين رآها للمرة الأولى، جلست وفي عينيها حزن تشكوه للقائد قائلة:

- نور كانت حزينة في هذه الزيارة لدرجة أنها جاءت وغادرت دون أن تُعلِم أحدًا، ولأول مرة في حياتها لا تودّع خالها، ولم تُعلِمه كذلك حين عادت إلى القرية.

وحده القائد كان يعرف كل شيء، لكن ابتسامته الباردة كانت تحاول إخفاء مشاعره والمكابرة على ألمه، كان يستمع لأم نور التي وقفت قبل أن تتجه لتحضير طعام الغداء، وقالت:

- نور لم تغادر إلا بعد أن أثمر شجر اللوز، أرجوكَ حين تراها أن تخبرها أنني مشتاقة لها.

لم تعرف أم نور وقع كلماتها على القائد، الذي تنهد بحزن ولم يقل شيئًا.

كل شيء كان هادئًا ونور ترقب قرص الشمس وهو يودّع يومًا لم يحمل معه جديد، وهذا ما قرأته مروة في عينيها حين قالت:

- بماذا تشعرين و أنتِ تر اقبين ضوء الشمس يختفي؟

جمل من المشاعر والأشياء زاحمت قلب نور الذي داعبته بابتسامة صفراء، ثم قالت:

- أظن أن ما يميز معسكركم هو الغروب الذي فيه، تحتضن الشمس وكأنها قرص جمر ملتهب كل التلال والجبال مودعة لسنابل القمح بسعادة وفرح.

لم ترقب مروة كلام نور بقدر ما راقبَت لون عينيها الذي اكتحل بآخر شعاع للشمس، نظرت بتمعن وحذر إليها، ثم قالت:

- نور، هل لي بسؤال؟

أغمضَت نور عينيها لتضم لون السماء الساحر، ثم فتحتهما على وجه صديقتها، وقالت:

- تفضلي.

حاولت مروة أن تتراجع عن سؤالها خشية غضب صديقتها، فصمتت لدقائق ثم قالت:

- لماذا عدتِ إلينا رغم أنكِ كنتِ في ضيق من عملكِ معنا قبل أشهر؟

كانت نور تتوقع هذا السؤال الذي هي نفسها لا تعرف جوابه، لم تعرف بماذا تجيب؛ لذا كان عليها أن تكون صادقة مع صديقتها التي تُكنّ لها الكثير من الفضائل، فصمتت لحظات قصيرة وقالت:

- لا أعرف، لعلي أريد أن أهرب من نفسي.

ابتسمَت مروة وهي تنظر إلى صديقتها التي بدأت تراقص أناملها على شفتيها الحائرتين، ثم قالت:

- إن كان داءكِ في العشق؛ فالصبر هو دواءكِ يا صغيرتي.

حركت كلمات مروة الحزن الساكن في قلب نور والتي بقيت لفترة طويلة تحتفظ بهدوئه، وهذا ما أشعر مروة بالندم لما تسببته لنور من ألم، فقالت مداعبة لها؛ لتصرف عنها هذا الحزن المقيت:

- لو كان هناك من أحد يعلم من أين يشترى الصبر للعاشقين لما كان الألم هو الوجه الآخر للحب يا صديقتي.

ابتسمت نور بألم لعلها تستطيع أن تحافظ على صمتها لفترة أطول، لكن هدوء الليل الذي يكشف الآلام دومًا منعها مما تريد؛ فاستسلمت لدموع صغيرة، وقالت بأسى:

- هذا إذا كان ثمة عشق، أمَا وقد زال إلى الأبد فأظن أنه لم يعد هناك طعم للحياة، ولانكهة لرائحة الفجر في وطني.

- وهل يزول العشق يا نور؟

تنهدت نور وتركت لنفسها العنان في بكاء طويل أحزن صديقتها، والتي أخذت بيدها ومسحَت دموعها؛ لتنهي حديثًا لاينتهي.

كان أحمد يجمع رأسه بين كفيه محاولًا أن يجد تفسيرًا واحدًا لما يحدث، الساعة الثانية عشر ليلًا ما زال جالسًا في مقعده لا يلقي بالًا للوقت، مرة يرقب النافذة ليهمس لها بألمه وقهره، ومرة يدوس بأنامله الطاولة ليكسر حاجز القلق المسيطر عليه، كان يأبى أن يستسلم لفراق بلا عودة، بماذا يمكن أن يحدّث عاشق نفسه في ليلة ربيع فقَدَ فيها من يحب؟

هل تكفي كل اللحظات والثواني التي مرت فتحولت إلى زمن واسع لا حدود له يا نور؟ هل تكفيكِ لأعلمَك أنكِ وحدكِ من تسكنين هذا القلب؟ وأن وجودك رحيل للوقت وعالم بأسره، كيف يقولون أننا نحسن العيش إذا فارقنا الأحباب؟ ومن قال إن ألوان الأزهار خُلقَت عبثًا؟ أمَا كل لون فيها يدل على همسة نشدوها للحبيب عند الصباح؟

– أحمد.

قطع صوت ليث كلمات أحمد إلى حبيبته عند المساء، نظر أحمد إليه وهو يجلس إلى جانبه هامسًا:

– أرجوك أحمد، ارحم نفسك قليلًا من التفكير.

– دعكَ مني الآن، عليكَ أن تغادر غدًا؛ فزفافك لم يتبقّ له إلا أسبوعًا واحدًا.

– ليس لي رغبة بفعل أي شيء قبل الاطمئنان على نور، فلم يتبقّ إلا الأمل في أن تحضر زفافي، فإن لم تحضر فسأتيقن أنها في خطر.

هز أحمد رأسه وتأكد تمامًا أن نور في خطر.

تأخرت نور؛ فسببت القلق لمروة التي انتظرتها ساعة إضافية قبل أن تفتح الباب باحثة عنها؛ لتجدها و اقفة أمامها بكثير من الإرهاق ومعالم فرح صغيرة، تنهدت مروة بقلق وقالت:

– لقد خِفتُ عليكِ كثيرًا يا نور، أين كنتِ؟

دخلت نور بسرعة لتغيير ملابسها المتسخة والابتسامة ما زالت تر افقها، ثم قالت باستهتار:

– ولماذا خفتِ عليّ يا صديقتي؟

ضاقَت مروة باستخفاف نور، فيما عَلا صوتها قليلًا لتوقفها قائلة:

– لأنكِ مسؤولة مني، ألا يكفي أنكِ لم تُعلِمي أحدًا بوجودكِ هنا؟

ضحكت نور بصوت مرتفع لتزيد من استهتارها أكثر، وقالت:

– أيتها الحمقاء، وهل تعتقدين أن هناك من يسأل عني أو يقلق بشأني؟ لستُ أنا ممن يُسألُ عنهم إذا غابوا أو يُفتقد أمرهم؛ فاطمئني.

– المهم أين كنتِ؟

– كنتُ أكتشف سر الحياة.

نظرت مروة باستغراب إلى صديقتها التي حملت ثيابها راغبة بالاستحمام، ثم قالت:

– وما هو سر الحياة أيتها الشقية؟

ضحكت نور وقالت: - إنه العمل الذي يشعرنا دومًا بأننا ما زلنا قادرين على العطاء وعلى الحياة، وأن هناك من ينتظر عطاءنا هذا بفارغ الصبر؛ فالعمل بقدر ما نعطيه يعطينا، بعكس العشق الذي بقدر ما نعطيه يأخذ منا.

فهمت مروة بأن نور قضت يومها بالعمل المتواصل الذي ينسيها أحزانها حتى تصل إلى درجة الرغبة بتذوق طعم الراحة فقط، وهذا ما كان باديًا على يدها التي أصيبت ببعض الرضوض المؤلمة، والتي لم تشعر نور بألمها؛ لأنها حققت ما هو أهم من الشعور بالألم.

- صباح الخير.

وقعت تحية مصطفى على اعتدال وكأنها سهم مغموس بالألم اللذيذ، ردت التحية وهي تضم جسدها بيديها دون أن تنظر إليه، جلس إلى جانبها مبتسمًا ومحدقًا طوال الوقت بها حتى أخرجها عن صمتها، فقالت:

- لماذا تحدق بي هكذا؟

اقترب مصطفى منها أكثر حتى بدأ الخجل يتسلل إلى أوصالها، ضم جسدها الضعيف بيده، وهمس لها قائلًا:

- حتى تبتسمي.

ابتسمت هي وضحك هو، قبل أن تقول له مجددًا:

- ولماذا أبتسم؟

- لأنني أحبك.

استوقفت كلماته قلبها وهي ترقبه وقد أحاطها بيديه الدافئتين وعينيه العاشقتين، ثم قالت:

- ألم تيأس من حبي بعد؟

لم تثركلمات اعتدال غضب مصطفى الذي يحتضنها بشوق، وقال:

- إما أنني أحمق لا أعرف شيئًا في الحب، أو أنكِ تكابرين إلى درجة الجنون.

- وماذا ترجّح؟

- الثانية طبعا.

- وما دليلك؟

رفع مصطفى رأسه في إشارة لسعادته بهذه اللحظات التي تجمعه مع حبيبته منذ وقت طويل، ثم قال:

- هل تريدين دليلًا واحدًا أم جملة من الأدلة؟

بعثت كلمات مصطفى الضحك والسرور في قلب ووجه اعتدال قبل أن تستسلم لحضنه الدافئ الحنون.

استلقت مروة على فراشها وهي ترقب نور التي تقضي يومها بالعمل المتواصل ومساءها بالنوم العميق، ثم قالت:

- كم أتوق لأن أجد تفسيرًا واحدًا لما تفعلين.

نظرت نور إلى صديقتها للحظات وكأنها تستذكرالإجابة، ثم قالت:

- في غمرة عشقي نسيتُ كل الأشياء الجميلة، لم أعد أعرف حتى الإجابة عن الأسئلة السخيفة، أي طعم للقهوة ألذ قهوة الصباح أم المساء؟ أي حياة أفضل حياة العاشق أم غيرالعاشق؟

بدأ الانفعال يسيطر على كلمات نور التي شعرت أنها في دوامة من الحزن لم تنته بعد كما ظنت، فجلست والأسى لا يفارق كلماتها مجددًا وهي تقول:

- أردت أن أعاقب نفسي، وسأعاقبها وسأستمر في ذلك حتى تعدل عن العشق إلى الأبد.

جلست مروة بسرعة وهي تسمع كلام نور الحزين، وقد انفعلت باضطراب وغضب قائلة:

- عجبًا منكِ يا نور، كيف تقولين هذا؟

مسحت نور دمعتين تساقطتا رغمًا عنها وهي تبتسم؛ لتمحو كل أثر للهم في قلبها قائلة:

- أنتِ لا تعلمين ماذا يعني أن نعشق فيصبح العشق عالمنا الوحيد الذي به نحيا ونصمد؛ لنعيش، وأن لكِ حبيبًا لا تكفّين عن التأكد من أنه دائم التفكير فيكِ، يحبكِ ويملؤكِ عشقًا وبهجة وسعادة، وأن صباحكِ ومساءكِ وألمك وفرحكِ لها أشكال أخرى وألوان لا يعرفها الآخرون، وفجأة ينتهي كل شيء؛ ليأمركِ بالخروج من حياته ويطردكِ من عشقه، المملكة الجميلة التي بنيتها في سنوات لتهدم في لحظات، أي ألمٍ تعتقدين أنه يمكن أن يكون في تلك اللحظات؟ وأي همٍّ يمكن أن يسيطر علينا؟ كيف لنا أن نمحو هذا الحب؟ كيف لنا أن نبدأ من جديد؟ هل انتهى كل شيء؟ هل أصبحتُ كالآخرين لا يعشقون؟ أَأَصبحَت الأزهار لا تعني لي شيئًا؟ ألم أعد أعني شيئًا لأي إنسان على وجه الأرض؟ هل حقًا أستطيع البداية من جديد؟ لا أعرف، لا أعرف شيئًا إلا أن أغمس نفسي في العمل لنسيان كل همومي.

أشرق الصباح أخيرًا؛ فحملت نور حقيبتها لتفرد يديها في الفضاء الطلق مستعدة للرحيل إلى المزرعة؛ لترقب ولادة شيرين بعد وداع صديقاتها، كانت تشعر أن كل شيء فيها تدبّ فيه السعادة وكأنه جزء من الربيع، وما هو إلا زمن قصير لم يسيطر فيه التفكير على عقل نور إلا بذكريات جميلة وأخبار أجمل تعتقد أنها في انتظارها، كان الربيع يبسط أجنحته ليريح الناظر إليه ويمنحه سعادة بحجم الورد في المزرعة، قفزت نور بسعادة وهي تنظر إلى الجدة وشيرين تجلسان لترقبا ماهر وهو يطعم الخيول، اقتربت بهدوء، ثم صرخت ملوحة بيدها ليسمعها الجميع:

- صباح الخير يا أصدقائي.

- نور!

نظر الجميع بسرعة تأخذ المفاجأة عقولهم والسعادة تملأ محياهم، لم يصدق أحد رؤيتها، فوقفت الجدة مع شيرين وكانت ملامحهما مستغربة وسعيدة، كل هذه التناقضات لم تستوعبها نور حين قبضَت الجدة على يدها صارخة بصوت عالٍ:

- أين كنتِ طوال هذه المدة يا نور؟

تألمت نور من يدها التي أصيبت في المعسكر، ورجَت جدتها أن تتركها للحظات، حيث قالت:

- جدتي أرجوكِ، يدي تؤلمني.

انصاعت الجدة لتوسلات نور التي كانت تنظر باستغراب إلى الجميع وهم يحيطون بها، كأنهم يهمون بتقبيلها وصفعها وعناقها وفراقها، ما هذا؟ مالذي يجري؟ كل البراءة كانت تسكن وجهها وهي لا تعرف كم عليها أن تجيب عن أسئلتهم الكثيرة، فأشارت بيديها لتصمتهم وهي تقول:

- ماذا هناك؟ أنا لا أفهم شيئًا.

حاول الجميع أن يتكلم ليوصل إلى نور حجم ما فعلته وتسببته من قلق عليها، إلا أن الجدة صرخت بهم جميعًا، وقالت بقسوة:

- لقد قلبنا الدنيا عليكِ رأسًا على عقب، كدنا نُجَنّ، وكاد القائد يفقد صوابه؛ فنحن منذ أسبوعين نبحث عنكِ، أين كنتِ؟ ولماذا فعلتِ هذا بنا؟

ما زال الاستغراب باديًا على وجه نور، وهي تنظر إلى الجميع بسرعة وتقول:

- جدتي أرجوكِ مهلًا عليّ قليلًا، لماذا حدث كل هذا؟

نظرت الجدة بعتب إلى نور، وما زالت نبرة القسوة في كلامها:

- أتسأليني أنا ما الذي حدث؟

- ولكن ياجدتي أنا كنت في المعسكر ولم أخرج منه، فلماذا كل هذا القلق؟ ثم إنني لم أعرف أبدًا أنني سببتُ لكم كل هذا الإزعاج، أنا آسفة.

- لا تعتذري لنا، اعتذري للقائد الذي أمضى كل وقته في البحث عنكِ، لم يهدأ لحظة واحدة فيها.

- ولكن يا جدتي..

صمتت نور فجأة وهي تنظر إلى شيرين تقبض بيديها على الكرسي الخشبي؛ لتصرخ بصوت عال وألم شديد؛ فنسيَت كل شيء و انطلق الجميع لنجدتها.

طرقات سريعة وعالية أقلقَت ليث وهو يتجه إلى الباب ليفتحه، إنه مجد، الابتسامة تنفرد على وجهه، يلهث بصوت عالٍ وكأنه كان في سباق مع الزمن، دخل إلى غرفة القائد بسرعة وهو يقول:

- أين القائد؟ أين هو؟

نظر ليث بشيء من الغفلة إلى مجد، لا يستوعب سبب انفعاله الضخم، فقال:

- إياك أن توقظه؛ فقد نام منذ وقت قصير، قل لي ماذا هناك؟

قفز مجد بفرحٍ وهو يلف حول ليث قائلًا:

- لقد وجدت نور.

بضع خطوات وكان القائد يقف أمامه مدهوشًا وقد أيقظه ما حدث، فقال مسرعًا:

- أين هي؟ أخبرني.

- في المزرعة.

لم يستمع القائد لبقية الكلام، بل انطلق إلى ملابسه وقد بدت عليه السرعة دون تفكير، بدأ يغيّر ثيابه ويعد العدة للرحيل، كان التوتر سيد الموقف، يرسم لوحة على وجه ليث الذي وقف أمام أحمد قائلًا:

- أحمد، لا تذهب و أنت في هذه الحالة، أنت منهك ولم تنم طوال الليل، ومتوتر أيضًا.

كأن أحمد لم يعد يسمع شيئًا إلا ما يمليه عليه قلبه و انفعالاته، لكن ليث كرّر محاولته في الوقوف أمامه خشية حدوث ما لا يحمد عقباه، فقال ثانية:

- أرجوك أحمد، دعني أذهب بدلًا عنك، و أنا سأحل المشكلة.

نظر أحمد إلى ليث، وقال بخشونة واضحة:

- أريد أن أعرف منها أين كانت، ولماذا فعلت هذا؟

- لكنك متوتر جدًا يا صديقي، وأخشى أن تتشاجرا.

أبعد أحمد ليث عن طريقه في حركة سريعة قائلًا:

- ابتعد عن وجهي يا ليث.

عجز ليث عن إيقاف أحمد أو تهدئة غضبه المتوقد، فقال في محاولة أخيرة:

- أحمد، عِدني أن تكون هادئًا، أرجوك.

اتجه أحمد مع مجد بسرعة إلى الباب، وفتحه ليقول لليث قبل رحيله:

- مستحيل يا صديقي... مستحيل.

بدأت نور ترقب صديقتها شيرين بحزن وألم، فيما كانت شيرين تصارع آلام الولادة بصعوبة ومشقة، لم تشأ نور أن تظهر دموعها أمام صديقتها؛ لئلّا يزيدها هذا ألمًا، فكانت تشبك يديها ببعضهما، تغادر وتعود لتخفف من قلق ماهر الذي ينتظر طفله بفرح وخوف، اقتربت من الجدة الهادئة التي تخبر هذه الآلام وتصاحبها لكثرة مداومتها لها، فهمست قائلة:

- جدتي، أنا خائفة، ماذا افعل؟

ابتسمت الجدة وهي تنظر إلى شيرين حينًا ونور حينًا آخر، ثم قالت:

- ممّ تخافين؟ أعتقد أنه من الأفضل أن تخافي على نفسك من مجيء القائد الآن.

لم تأبه نور بما قالته جدتها، بل أسرعت إلى شيرين ومسحت العرق المتصبب من جبينها بيديها المرتعشتين قائلة:

- شيرين يا حبيبتي، أرجوك اصبري قليلًا؛ فالألم دائما يهدينا شيئًا جميلًا في النهاية.

كانت تعلم الجدة أن شيرين حين ترى ولدها ستنسى كل هذه الآلام الصغيرة وتعدها فرحًا لا حزن فيه؛ لذا لم تكف عن رمق نور المتوجسة والتي تتمنى أن تنتهي هذه اللحظات بسرعة، وفي ثوان طلبت من نور أن تغادر الغرفة لاستقبال هذا الطفل الجميل.

في الطريق الممتد من المعسكر إلى المزرعة أخبر مجد القائد عن كل ما حدث إلا جهله بالمكان الذي كانت فيه نور طوال أسبوعين، فهي كانت في المعسكر وخرجت منه إلى المزرعة كما ورد في تقرير الخروج، لم يكن القائد غاضبًا بقدر خوفه عليها وعدم اهتمامها بإعلام أحد عن مكان تواجدها، أما ليث فكان بدوره قد أعلم الجميع بضرورة ذهابهم إلى المزرعة؛ لعلهم يستطيعون امتصاص غضب القائد على نور، وهذا ما لم يكن يعلمه لا مجد ولا القائد.

لم تكف نور عن حضن الطفل الصغير ومداعبته بحنان وحب كبيرين، وكذلك ماهر؛ فقد كانت ايديهم تنقله كما تتنقل الأزهار بين أيدي العشاق، وهذا ما أثار استياء الجدة التي طلبَت منهما مرارًا ترك الطفل الصغير حتى يرتاح إلى جانب أمه المنهكة، وأخيرًا امتدّت يدها مختطفة الطفل، كان السرور يملأ المكان وزاده فرحًا حضور اعتدال ومصطفى الذي أضاف ابتسامات وضحكات كان الجميع مشتاق إليها منذ وقت طويل، فما الذي فجأة نشر الهدوء والخوف؟ إنه حضور القائد مع مجد، كانت لحظات عصيبة حين كانت الجدة تجلس إلى جانبها نور وماهر، وفي الجانب الآخر مصطفى واعتدال، شعرت نور أن لا قدمين لها تحملانها على مقاومة الخوف الذي تسلّل إليها فاحتل جسدها الهادئ، كانت نظرات الجميع متجهة إما إلى نور أو القائد، حاولت نور أن تقترب من الجدة قليلًا لعلها تمنع بعض غضب القائد، لكن دون فائدة؛ فهي لم تستطع أن تظهر غير الارتعاش في جسدها وتجنب النظر إليه باستمرار، احتضنَت الجدة يد نور في إشارة إلى إبداء رغبتها في عدم حدوث أية مشكلة بينهما، لكن عيون القائد المتوهجة بالغضب والشوق والعنف كانت هي سيد الموقف، حين تقدم ولم يقل شيئًا غير إلقاء السلام على الجميع دون

أن تغادر عيناه وجه نور الخائف، حاولت الجدة أن تخفّف من الجو المشحون بالتوتر بينهما، فقالت بابتسامة هادئة:

- أهلًا وسهلًا يا ولدي، وأخيرًا وُلد أحمد الصغير، أنا متأكدة أنكِ ستحبه كثيرًا.

ابتسم القائد مجاملة لجدته وإظهارًا لسعادته بالمولود الجديد، لكنه لم يقل إلا بضع كلمات وجّهها إلى ماهر قائلًا:

- حمدًا لله على سلامة شيرين، لابد أن نقيم حفلة تليق بأميرنا الجديد.

لمحت نور في عيني القائد وكلامه حدّية كانت تعلم أنها موجهة إليها تمامًا، فمَن يحميها من غضب القائد اليوم؟ هي لم تره منذ شهر تقريبًا؛ كلها شوق إليه، كم كانت ترغب أن يبدِلها بهذا اللقاء العصيب شوقًا وحبًا وهدوءًا، إلا أن أمنياتها تبخّرت وهي تحبس أنفاسها وتودع وجه صديقتها اعتدال؛ لترقب القائد وهو يتجه إليها، ويهمس بهدوء يخفي عاصفة كبيرة:

- أين كنتِ يا نور؟ ولماذا اختفيتِ فجأة؟

بقيت نور جالسة إلى جانب الجدة وتخفي يدها بيديها، لم تقل شيئًا، كانت تعابير وجهها تنمّ عن اصطناعها لإظهار الابتسام وعدم الخوف مما سيفعله القائد إزاء صمتها، الجميع كان جالسًا حتى مجد، إلا القائد الذي أظهر من وقوفه جدية حديثه مع نور التي بقيت صامتة رغم معرفتها بما يترتب على هذا الصمت.

- أين كنتِ يا نور؟ ولماذا فعلتِ ذلك؟

كلمات متقطعة، حادة، غاضبة، لكنها هادئة، لم يعرف أحد سبب صمت نور المفاجئ، حاول الجالسون أن يجيبوا عنها بأي كلمات، فلم تجد الجدة إلا أن تقول:

- اجلس يا أحمد، لا نريد أن نعكّر صفو سعادتنا الآن، فيما بعد تتحدثان بما تريدان.

لم يسمع القائد كلام جدته، بل صرخ بصوت عالٍ أغمضَت نور على أثره عينيها بسرعة قائلًا:

- أجيبي عن أسئلتي الآن.

بدأت نور تبكي وتحاول أن تبحث عن أية قوة تمكّنها من فعل شيء يهدئ من روعها قليلًا، فوقفت تحاول أن تبتعد لتجد الشجاعة، إلا أن يده التي امتدت إلى يدها بعصبية أوقفتها وهو يطبق على معصمها بقوة ينتظر الجواب، وعندها وقف الجميع محاولًا التدخل لمنع مشكلة كبيرة يمكن أن تودي بالحب الساكن بينهما، ووحدها الجدة التي حاولت أن تبعد يد القائد عن يد نور التي كانت تتألم بصمت، فقالت ترجو القائد:

- أرجوك يا أحمد، اتركها؛ فيدها مصابة وتؤلمها.

حاول القائد أن يستوعب ما يحدث حوله، رغم أنه يرى دموع نور لكن عنادها كان يجبره على رفض أي توسلات إليه، فقال محاولًا أن يكابر على خوفه وألمه مما يفعل:

- من فضلكم لا أريد أن يتدخل أحد في الموضوع، أريد أن أحله بطريقتي الخاصة.

لم تعرف نور كيف يمكن أن تخرج من هذا المأزق؛ فخليط من الحزن والخوف وقلة الحيلة تسكن روحها الآن، فماذا تفعل؟ عندها تقدّمت اعتدال خطوات قائلة بهدوء:

- سيدي، هل أستطيع أن أسأل أنا نور؟

نظر القائد بغضب إلى اعتدال، ولكنه متفهم إلى مشاعرها تجاه صديقتها، فقال:

- هي مُجبَرَة على أن تجيب عن أسئلتي كلها.

وهنا خرجت نور عن صمتها وما زالت يدها ساكنة بغضب وألم في يد القائد، فقالت والدموع تملأ وجنتيها:

- أنا لستُ مجبرة على شيء.

زادت كلمات نور التي تحمل نبرة التحدي غضب القائد وقلق الجميع، حيث أعاد النظر إليها قائلًا:

- بل أنتِ مجبرة، ولن أتركِكِ حتى تجيبي عن كل ما أريد.

مسحت نور دموعها، وبدت أكثر قوة وهي تقف بمواجهة القائد قائلة:

- أنا في أجازتي، وليس من حق أحد أن يسألني أين أقضيها.
- هذا إذا كنتِ في بيتكِ، أما و أنكِ قد دخلتِ المعسكر فقد أصبحتِ تحت مسؤوليتنا.
- القائد ليث وحده الذي من حقه أن يسألني؛ لأنني حين دخلتُ المعسكر كان هو القائد.

احتد النقاش وبدأ التوتر يزداد إلى مالانهاية وسط دهشة وقلق الجميع، ووسط آلام نور وتوسلاتها إلى جدتها بأن يترك القائد يدها المتألمة، حتى صوت أحمد الصغير الذي بدأ يملأ المكان كان يشاركهم الأحزان، كانت عينا القائد تحيطان بنور وهو يحاول أن يغيّر نبرة حديثه؛ ليخفف من التوتر، فقال بهدوء مصطنع:

- نور، أنا أحذّرك للمرة الأخيرة، قولي قبل أن أفقد أعصابي.

فقد الجميع الأمل في أن تسير الأمور على ما يرام، حاولَت نور أن تستذكر كل ما حدث في معسكر الصيانة، وكيف أنها كانت تتألم وتعاني من حبها دون جدوى، كان ألم الحب يسيطر عليها، حتى أنها لم تستطع أن تغفر للقائد إهماله لها وتركه لشأنها، فهي متحدية ماهرة والقائد عاشق غاضب، كيف يمكن أن يلتقيا؟ أخذ القائد بيد نور و أبعدها عن الجميع والغضب يسيطر عليه تمامًا، رغم محاولات الجدة المتكررة لفضّ النزاع بينهما، كانت نور تحاول بجهدها أن تفلت يدها وهي تصرخ:

- اتركني؛ فيدي تؤلمني، وليس من حقكَ أن تعاملني بهذه الطريقة القاسية.

وفي لحظات كانت نور تقف خلفها الجدار وأمامها القائد بغضبه ونبرة صوته المرتفعة الحادة قائلًا:

- يجب أن تعلمي أنكِ لا تتعاملين مع حشرات لا قيمة لها حتى تأخذي على عاتقك الهروب دون علم أحد.

عادت نور تفقد شجاعتها مجددًا بعدما فقدَت السيطرة على دموعها الغزيرة؛ فهي لم تتوقع أن تلقى كل هذا الغضب من القائد، حاولت أن تخفف من خوفها وتحديها قليلًا؛ فقالت:

- أنا لم أهرب، إنما وصلتُ إلى نتيجة أنني لم أعد أعني شيئًا لأحد.
- نتيجة غبية.

إلى الآن لم يجرؤ أحد على التقدم لفض الشجار، خاصة بعد أن أخذ القائد نور إلى ركن آخر في البيت ليحاسبها كما يشاء، رغم أن الجميع ما زال واقفًا يستمع وينظر إلى هذا التحدي العنيف، حاولت نور أن تفلِت من قبضة القائد مجددًا حتى لا يستمر النقاش إلى ما لا ترغب من حديث، وقد تفاجأت حين أكمل القائد كلامه بحدية أخف قائلًا:

- لقد بحثنا عنكِ في كل مكان حتى كدنا نجنّ.

شعرت نور أن حزنها الذي رافقها طوال هذا الوقت تحول إلى عتاب وقسوة لم تظن للحظة أن تسيطر عليها وهي توجه كلامها للقائد قائلة:

- ولكنني منذ أكثر من شهر وأنا أمامكم لم يسأل أحد عني، دخلتُ إلى المستشفى وخرجت ولم أجد غير أصدقائي يهتمون بي.

بدأ النقاش ينتقل من دائرة الغضب والتحدي إلى العتاب والحب، فقد خفّف القائد من قبضته على نور وقال:

- لقد أخطأتِ، وكان يجب أن تدفعي الثمن.
- أهذا جزائي لأنني رغبتُ في أن أدافع عن صديقاتي؟
- وأنا من قبل يا نور رغبتُ في الدفاع عن صديقي وزوجته فغضبتِ منّي وخاصَمتِني؛ حتى بذلتُ جهدًا كبيرًا في سبيل إرضائك.

لحظات صمت عادت فيها الذكريات إلى الماضي، فنور ما زالت حزينة متأثرة بإهمال القائد لها طوال تلك الفترة التي استمرت أسبوعين كاملين بحزن وألم، أما الجميع فقد كان يرقب هذه اللحظات بسكون تام، إلا أن الوضع بقي على ما هو عليه، حتى قطع القائد هذا الصمت بغضب متجدد قائلًا:

- قد أحسنتِ عقابي يا نور.

- أنا لم أرغب بعقابِكَ، ولكني..

قطع القائد كلام نور المتدحرج الخائف صارخًا:

- لم تجيبي عن سؤالي إلى الآن، أين كنتِ؟

لم تجِب... حاصرها الجُبن ممزوجًا بالتحدي المؤلم، كانت لا تعرف ماذا تفعل وكيف يمكن أن ينتهي هذا الموقف العصيب دون أن تقول شيئًا، فرغم أن القائد فهم مدى المها وحزنها إلا أن الغضب كان يسيطر عليه؛ فلم يعد قادرًا على الفكاك منه، حاول أن يجمع بين غضبه وحبه بهدوء؛ فعاد لتكرار المحاولة ثانية هامسًا وهو يقول:

- أجيبي يا نور.

نظرت نور إلى الأرض مرارًا وهي تحاول أن ينتهي هذا الموقف وقد عاد الخوف يسيطر عليها ثانية، فلم تصمد أمام يد القائد التي عادت لتتمكن منها مجددًا، فقالت بضعف:

- لن أجيب.

عاد التوتر والقلق مجددًا يفرض نفسه على هذا الموقف الذي لن ينتهي، ولم ينته حتى كانت المفاجأة، ودخلَت عُلا بابتسامة هادئة وسعادة بالغة، فقالت:

- كانت في معسكر الصيانة، فقد وصل خطاب إلى معسكرنا يشكر فيه نور على تعاونها معهم طوال هذين الأسبوعين.

أخيرًا انتهى كل شيء، تنفس الجميع الصعداء إلا نور التي خذلها قول الحقيقة؛ فغادرت المكان إلى غرفتها بعد أن تركها القائد، لتبدأ عاصفة من البكاء والغضب كانت ترغب في أن تفرغهما بوجه القائد وهي تستفزه بصمتها، ما أصعب اللحظات التي يجب أن يقرر فيها الإنسان، وأصعب منها حين يقرر الآخرون عنه؛ فهي لحظات اختصروا فيها خوف النتائج غير المتوقعة، لكن الشعور بالقدرة على اتخاذ القرار بشجاعة وقوة رغم صعوبته أمر جميل ممتع، يقسّم الناس إلى جبناء وشرفاء في لحظة واحدة.

دخلت اعتدال على نور بعد نصف ساعة مما حدث، كانت تدفن رأسها في وسادتها تبكي بحرارة، تقدمت منها ولامسَت بيدها خصال شعرها المتناثرة على جسدها قائلة بارتياح:

- نور أرجوكِ، لقد بكيتِ بما فيه الكفاية، وقد اشتقتُ إلى ابتسامتك.

لم تحرك نور ساكنًا، بقيت على حالها لم تقل شيئًا، حاولت اعتدال مرة ثانية أن تخفّف من أحزانها وتقنعها بأنها أخطأت حتى لو كان خطؤها يُحمل على النية الحسنة، ومع ذلك لم تنفعل نور ولم تغيّر من حالها رغم انضمام عُلا إليهما، بدأت اعتدال تفكر مع صديقتها عُلا لمحاولة إخراج نور من آلامها، فابتسمت وهمست قائلة:

- نور، سأقول لكِ شيئًا وإن ابتسمتِ فأنت مُجبرة على مسح دموعك والخروج معي لنستمتع مع الجميع.

صمتت نور قليلًا، نظرت إلى صديقتها في انتظار ما ستقوله؛ فتعالَت اعتدال قليلًا لتجبر نور على التفاعل معها، ثم قالت:

- أنا بعد أشهر قليلة سأصبح أمًا.

جلست نور بسرعة على السرير ولم تتوقع أن تسمع هذه المفاجأة، مسحَت دموعها وهي تشعر أن السعادة لا تفارق محياها، وقالت مبتسمة:

- هكذا إذن؟

نظرت عُلا واعتدال إلى نور التي خسرت الشرط، فيما قبضت اعتدال على يدها وهي ترفعها عن السرير قائلة:

- أنتِ لم تعطيني فرصة لأقول لكِ شيئًا، سنخرج الآن وبعد ذلك أخبركِ بكل شيء.

كانت نور متوجسة قلقة، لا تعرف كيف يمكن لها أن تستوعب ما حدث، فقد كان أمرًا مزعجًا ومحرجًا حيث كانت في خطوات تقف أمام الجميع مع صديقاتها وبعينيها الباكيتين متجنبة النظر تمامًا إلى القائد الذي كان يرمقها بحب واستفزاز كبيرين، جلست نور وقد حاول الجميع أن يتحدث في مواضيع شتى لنسيان ما حدث أولًا ودفعًا لمشاركة نور في حديثهم ثانيًا، فقالت الجدة مبتسمة وهي تنظر إلى اعتدال:

- أصحيح ما سمعناه يا اعتدال؟

احمرّت وجنتا اعتدال وهي تنظر إلى الأرض وتهز برأسها مو افقة، فكرّرت الجدة سؤالها ولكن لمصطفى قائلة:

- بماذا تحب أن تُرزق، بولد أم بنت؟

رفع مصطفى كتفيه مبتسمًا وقال:

- لا يهم يا جدتي، ما يهمني أنه ابن اعتدال فقط.

رفعت الجدة حاجبها وسط السعادة التي غمرت الجالسين بالعلاقة الحميمة التي تربط بين اعتدال ومصطفى، فيما تدخلت عُلا لتسأل قائلة:

- وماذا تنويان تسميته؟

عدّل القائد جلسته ناظرًا إلى نور ومبتسمًا باستفزاز قائلًا:

- أظن أن صديقتكِ تعرف الكثير من الأسماء الجميلة، سبق وأن اقترحت بعضها على ماهر وشيرين، اسأليها عنها، أعتقد انها ستروق لكِ كثيرًا.

بدأ الغضب ومشاعر القهر تسيطر على نور وهي تقع فريسة لحديث القائد مذكرًا إياها باقتراح اسم سامية من قبل، تنهدت بصمت وقبضت على أناملها بغضب دون أن تجرؤ على رؤية ذاك الحب العميق والراحة المتناهية في عيني القائد.

كان السمر واللحظات السعيدة تنتقل بين الجميع وهم يداعبون الطفل حينًا ويضحكون معلقين على ليث ولينا في استعدادهم لحفل الزفاف حينًا آخر، كان الليل يسعد الجميع، خاصة نور التي رغم غضبها وما وصلت إليه من لحظات قاسية، إلا أنها تشعر بالأمن والطمأنينة والحب الذي تخفيه وراء وجهها الساكن لقائدها، ماذا تخبئ لنا الأيام واللحظات؟ لا أحد يعلم، لو كنا نعلم لفرّقنا مشاعرنا إلى حزن وفرحٍ ودهشة وعتاب وهدوء وصخب، ثم قسمناها على أيامنا دون الاستغراق بأرَق حول مشاعرنا ليوم غدٍ كيف تكون؟

وهذا ما كان حين جاء زائر لم يخطر بالبال ولم يتوقعه أحد ليغير معالم ذلك اليوم والمستقبل القريب، فمن هو؟!

ما إن فُتح الباب حتى كانت تقف بسعادة وخجل و انفعالات شوق غمرت فيها الجميع، إنها سامية التي ما أن رأتها نور حتى ظنت أن دقات قلبها ستتوقف، الدهشة أثارت الجميع؛ حتى شعرت سامية بالإحراج لولا تدخل القائد بسرعة لإنقاذ الموقف، حين مشى بسرعة إليها مسلّمًا عليها بحرارة واستقبال لطيف، دخلت معتذرة ومعلّلة حضورها بضرورة حضور حفل زفاف لينا وليث، كانت جميلة، لطيفة، وجذابة، لم يستطع أحد أن يقاوم ابتسامتها الساحرة، نور فقط التي كانت خائفة من قدومها وتُساءل نفسها حول صدق ما قالت، كانت ترقب انفعالات القائد بتمعن؛ فقد كان سعيدًا مبتهجًا يحاول أن يرضي سامية ويقوم بواجبها على خير وجه، جلس الجميع بعد سلامهم على سامية وتبادلوا ألوان حديث كثيرة تخلّلها لحظات سعادة أظهرها الجميع تجاه أحمد الصغير، كانت اعتدال ترقب نور بهدوء، فيما كانت تستمع لسامية وهي تحتضن الطفل الصغير قائلة:

- إنه حميل جدًا ولطيف، ولعلكم وُفّقتم باختيار اسمه.

ابتسم القائد وهو يشكر سامية على مجاملتها رافضة ذلك، ومؤكدة رأيها بقولها:

- أظن أنه سيكون محظوظًا إذا كان مثلَكَ يا أحمد.

لاحظ الجميع أن سامية تغيّرت تمامًا، وأصبحت لطيفة لدرجة تجذب فيها الجميع، كانت نور تشعر بالضيق والغضب، خاصة وأن سامية لم تكن تضع حاجزًا بينها وبين القائد فتناديه باسمه، وتبدي إعجابها به أمام الجميع، وما كان يحاول أن يهدّئها خشيَتُها من أن تحظَى بالتعليق أو النظرات إذا قامت من

الجلسة دون عذر؛ لهذا آثرت الصمت الذي لم يعجب اعتدال أبدًا وهي تعرف نتيجة ذلك على نور بعد قليل، كان الحديث الذي يدور بين سامية والقائد مع مصطفى والجدة لايثير إعجاب نور، فقد شعرت أنها مُهمَلة لم تعد تعني للقائد شيئًا بجلستها؛ فهو لم ينظر إليها منذ جاءت سامية، بدأت الأفكار تغزو عقلها وترسم على وجهها ملامح استياء كورق خريف تالفة، لم يستطع أي عذر أن يمنع نور من تأكيد ما وصلت إليه من أن القائد تعمّد مشاجرتها وكان على علمٍ بقدوم سامية، وإلا لمّا ذكر اسمها اليوم بالتحديد، كانت تشعر بخيبة أمل ووهن لا يترك جسدها وقلبها الحزين، لم تمنعها نظرات اعتدال من الاستئذان للخلود إلى النوم، لولا ابتسامة سامية الرقيقة وهي تقول لها:

- كأنكِ يا نور ما زلتِ غاضبة منّي حول آخر لقاء بيننا.

هزت نور رأسها نافية، فيما قال القائد بهدوء:

- لا أبدًا، نور منزعجة منذ الصباح.

كانت نور ترمق القائد بغضب، فهو لم يكتف بما فعل، بل كان يُطَمِئن سامية حتى لا تنزعج في جلستها، عادت سامية وكرّرت سؤالًا آخر على نور وهي تشعر بغضبها قائلة:

- إذا كان وجودي يسبّب إزعاجًا أرحل الآن.

ودون تفكير وبانفعال شديد قالت نور:

- لا... لا تقلقي، أنا التي سأرحل الآن.

دخلت نور إلى غرفتها فيما توجهت أعين الجميع إلى الساعة التي قاربت على العاشرة والنصف ليلًا، ولمنع أي حدث طارئ استأذنَت اعتدال ولحقت بصديقتها، والتي ما إن دخلت الغرفة حتى بدأت تجمَع أشياءها الخاصة

بعصبية وسرعة، حاولت اعتدال أن تقول شيئًا لكنها خشيَت من انفعال نور؛ فتنحنحت قليلا وقالت بابتسامة متوترة:

- أنا لن أمنعكِ من الخروج الآن، ولكن أريد أن أقول لكِ شيئًا.

نظرت نور بعصبية ونفاذ صبر إلى صديقتها، ولم تعطها فرصة لتسمع منها كلمة واحدة، فقالت وهي تحبس دموعًا كثيرة في عينيها تكاد تراها اعتدال من نبرة صوتها:

- اعتدال، أرجوكِ لا تتدخّلي في أي أمر يعنيني.

- ولكن يانور..

ألقت نور من يديها زجاجة العطر بانفعال شديدن وضربت بيدها حائط الغرفة؛ لتخرج ما في جوفها من غضب، ثم قالت:

- ولكن ماذا يا اعتدال؟ ألم تنظري إليه كيف انفرجَت أساريره منذ حضورها؟ ألا تلاحظين كيف يحتويها بعينيه ولا يفارقها لحظة؟ لم يعد هناك طعم للحديث إلا بها وكأنها نزلت عليه من السماء، أما نحن فلا نعني شيئًا له، الآن في هذه اللحظة عرفتُ أسبابَ أفعاله معي؛ فهو نادم على بوحِهِ بحبه لي، وتيّقَنتُ الآن أنه يريد إصلاح هذا الخطأ بأية طريقة، لم يستطع أن يقاوم سحرها وجمالها أنه يحبها.

ضربَت اعتدال جبينها بأطراف أناملها وهي تستمع لكلام نور الفظيع، ثم قالت بانفعال:

- نور اصمتي... اصمتي، إنكِ لا تفهمين شيئًا.

- بل أفهم كل شيء.

- يا غبية، إنها متزوجة ولا يحق لكِ أن تقولي ما تشائين.

- دعيها تقول ما تشاء يا اعتدال.

كانت كلمات القائد -الذي دخل دون أن يلحظه أحد- هادئة لا يظهر فيها الاستياء رغم أنها وتّرت الصديقتين كثيرًا، إلا أن نور التي كانت تُصرّ على إظهار هدوء مبالغ فيه كانت تنهار من داخلها، وتمنع دموعها أن تفضحها؛ فصمتت للحظات، وعادت توجه كلامها إلى اعتدال قائلة باستهزاء:

- دعيني أقول ما أشاء، المهم ألا تسمع هي كلامي فتنزعج.

اقتربت اعتدال من نور وأغلقت بيدها فمها؛ كي لا تستطرد في الكلام، لكن نور أبعدت يد صديقتها بعنف قائلة:

- أنا حرة، أفعل ما أشاء و أقول ما أرغب بقوله.

اقترب القائد من الصديقتين فيما كانت اعتدال تخشى من حدوث مشكلة جديدة، كان الاستياء يتنقل بين ثلاثتهم؛ ليجمعهم في دائرة الغضب والقلق، غير أن القائد مسح آثار الخوف عن قلب اعتدال، وقال:

- أجل أنتِ حرة فقط فيما تقولين، أما في خروجكِ الآن من المزرعة فلستِ حرة فيه.

- بل سأخرج الآن.

شعرت نور أن هذا الموضوع يمكن أن يغضب القائد؛ فبدأت تتشبث فيه لتستفزه أطول وقت ممكن، رغم أنها متيقنة من خسارتها في النهاية، كانت اعتدال تنظر إلى الاثنين في حزن تحاول أن تخفّف من الغضب بينهما، فقالت متوسلة إلى نور:

- نور كفى أرجوكِ.

أشار القائد بيده إلى اعتدال في محاولة لتخفيف توترها، وقال:

- اعتدال لا تقلقي، أنا لستُ غاضبًا، فمنذ الصباح و أنا أزعج نور.

بدأت نور محاولة التغلب على دموعها المتساقطة بهدوء، ثم قالت:

- أنا منذ عرفتُكَ و أنتَ تزعجني وتسبب الألم والحزن لي.

تنهّد القائد بعمق وغضب مخفي، ثم توجه إلى الباب خارجًا، توقف قليلًا وقال:

- أريد أن أذكركِ يا نور أن سامية تحب زوجها كثيرًا، تمامًا كما..

وصمت ليعاقب نور على ما قالته في حقه؛ مما أثار انفعالها أكثر وزاد من غضبها، فقالت:

- اذهب إليها فهي تنتظرك.

نظر القائد مرارًا إلى نور ورغبته في الهدوء ليس لها مبرر، فقال بعد ثوان:

- حاضر يا نور، سأذهب، لكني أريد أن أقول لكِ شيئًا مُهمًا، إنكِ لن تخرجي الآن من هنا أبدًا؛ لأن الأمر في النهاية لي، فإن ظننتِ أن حبي لكِ سينقذكِ من عقابي كما في المرة الماضية فأنت مخطئة.

نور لم تفهم شيئًا مما قاله القائد، فهي كانت تنتظر منه أن يحتويها بحبه؛ كي يزيل كل آثار حزن تركه في قلبها، لكنها لم تستوعب أن كلامها كان قاسيًا، لا يترك فرصة لأحد بالحب والشوق، اقتربَت قليلًا من الباب الذي يقف عنده القائد، وقالت:

- أريد أن أخرج؛ لأني لا أحب أن أكون حجر عثرة في طريقك، أقصد جدارًا في طريقكما.

وما أن أنهت كلامها حتى انفجر القائد بالضحك قائلًا:

- لو تعلمين ماذا يعني الجدار في لغة العشاق ما قلتِ ذلك.

وخرج تاركًا نور تتخبّط في دهشتها وغضبها و أثار دموعها، لا تعرف من أين تبدأ ولا تنتهي، حتى دخل مصطفى الذي كان يبتسم قائلًا:

- نور، أما زلتِ مُصرّة على الخروج الآن؟

هزت نور رأسها في إشارة إلى إصرارها، فاقترب منها وقال:

- إذا كان لي شأن عندكِ فلا تفعلي ذلك.

لم تستطع أن تمنع دموعها الغاضبة من التساقط على وجنتيها الجميلتين؛ فلاذت بالصمت، فيما كانت عُلا تدخل بهدوء وهي تحمل الطفل الصغير، فوضعته بأحضان نور وقالت:

- وإذا قلنا لكِ من أجل أحمد الصغير.

ابتسمت نور وهي تنظر إلى ذاك الطفل الذي يسكن بين يديها، ترى فيه تلك البراءة المفقودة من عالم يخلو من الحب، هل علينا أن نرجع أطفالًا صغارًا توسمنا البراءة ثم نعود إلى عالمنا؟ أي جمال تخفيه وراء جسدك الهادئ لدنياك أيها الطفل؟ وأي ألم سيقدمه لكَ الزمن حين تكبر؟ كانت تحتضن الطفل بشوق وحب؛ فهو ولد بين يديها عوضًا عن أن اسمه اسم حبيب لا ترى للعالم نورًا بسواه، وأخيرًا استسلمَت لرغبة الجميع وهي تمسح دموعها وتبتسم، ثم تنظر إلى مصطفى قائلة:

- مصطفى، ماذا يعني الجدار بلغة العشاق؟

شعرت نور من انفعال مصطفى أنه يعلم، لكنه هز أكتافه قائلًا:

- لا أعلم.

- بل تعلم.

ضحك مصطفى وشعر أن نور كشفته، فقال:

- وإن كنت أعلم لا أستطيع أن أخبركِ.

نظرت نور بدهشة إلى مصطفى والفضول يملؤها، فسألت:

- ولماذا؟

- لأن من قال هو الذي يجب أن يخبركِ وليس أنا.

انتهى هذا اليوم بشق الأنفس، كان يومًا صعبًا بلا شك، أتمّت نور صعوبته بأنها لم تنم إلا فترة وجيزة؛ فقد شعرت مع اعتدال التي أخبرتها بكل ما آلت إليه علاقتها مع مصطفى الشاب الهادئ، العاشق، الطيب كما وصفته اعتدال، كثير من المشاعر ملأت قلب نور وهي تقرر الخروج من المزرعة في الصباح المبكر جدًا رغبة منها في معاقبة القائد والانتقام لنفسها، فهي لم تنتظر شروق الشمس ولا صياح الديك، حتى الندى الذي يداعب أوراق الشجر لم تأبه أن تراه رغم حرصها على رؤيته دومًا، ووسط الهدوء الذي يعمّ المزرعة الجميلة عند الصباح أفاقت نور، حملَت حقيبتها و انطلقت لتتوقف قليلًا عند النافذة تستنشق هواء الصبح النقي وصوت هديل الحمام عند الصباح، جملة من الآلام تركتها وراءها ثم غادرت، أغلقت باب البيت و انطلقت متجهة إلى باب المزرعة، لولا ذاك الصوت الهادئ الذي أوقفها قائلًا:

- صباح الخير.

نظرت وراءها بسرعة، حين خرجت لم تلمح أي شخص جالس بقربها، فمالذي حصل؟! إنه القائد مع الجدة وسامية يتناولون قهوة الصباح ويتجاذبون أطراف الحديث، كانت نور ترقبهم باهتمام؛ فبدأت تشعر أن صفوها هذا اليوم قد تعكّر تمامًا، فلا يكفيهم ما حدث بالأمس وسهرهم حتى وقت متأخر، بل إنهم يجلسون منذ الصباح كأنهم في شوق بالغ لبعضهم، لم تعلّق نور على ما قاله القائد، بل ابتسمت مجاملة لهم وعادت لتكمل مشوارها، لكن خطوات القائد وراءها أشعرتها بأنها لا تحسن المشي خطوة واحدة دون أن تتوقف وتسمع ما يريد، اقترب منها وكان الهدوء يزين ابتسامته قائلًا:

- أوليس الوقت مبكرًا بعد للخروج؟

وضعت نور يدها على باب المزرعة وهمت بالخروج، توقفت للحظات وقالت:

- لا أريد أن أسبب الإزعاج لأحد.

لم يقل القائد شيئًا، بل ابتسم باستهزاء وقال بضعف:

- أريد أن أخبركِ بأن سامية كانت زوجة لي لعدة أيام، ورغم بعدكِ عني وكراهيتكِ إلا أنني عاملتها وكأنها شقيقة لي، حبًا لكِ واحترامًا لصديقي، فكفّي عن غيرَتكِ، أرجوكِ يا نور.

أنهى القائد كلامه لتخرج نور والحزن يتقاسم كجناحي طير بينها وبينه، هي لا تحتاج إلى أن تصل القرية حتى تندم كما أخبرها القائد؛ فهي ندمت منذ وطأت قدمها خطوة واحدة خارج المزرعة.

أجمل ما في الربيع لون الأزهار عند الصباح في الوطن، هذا ما كانت نور تعتقده، لولا أن قطرات المطر التي كانت تنزل بخجل على نوافذ القطار غيّرت رأيها تمامًا؛ فهي لوّنت الأرض بلون جميل لا يشبه لونها عند الشتاء، بل وألقَت رائحة للفضاء لا تُشتَمّ إلا عند الْتقَاء المطر في الربيع مع الأرض، كانت نور هادئة رغم ما حدث، لا تعرف السبب، لعل الأمور وصلت إلى نهايتها، هي عرفت وتأكدت أنها أخطأت بالأمس كثيرًا، ولكن ماذا يمكن أن تفعل وهي ترى من تحب يتنقل بعينيه إلى غيرها، كان سؤالًا سخيفًا، لكنها أسندَت كل ما فعلته إلى أفعالها الطفولية وحبها الذي كلما تقدم خطوة عاد ألفًا إلى الوراء.

اعتادت نور على الطريق بين أي مكان ووطنها، فهي منذ البدء طويلة ثم تقصر مع الوقت والشوق، كانت تتخيل أمها تحضر طعام الإفطار وتعد شاي الصباح، فيما خالها يقف عند النافذة يرقُب ساعة خروجه إلى العمل مسرعًا، وهذا ما كان حين فتحت نور باب بيتها لترى أمها على حالها الذي تخيّلته، فيما كان خالها ما زال مستغرقًا في النوم، جملة من العبارات والقُبَل تبادلتها مع أمها التي كانت بشوق بالغ لها، سعدت أن أمها لم تكن تعرف شيئًا عن اختفائها، فمشت خطوات إلى غرفة خالها؛ لتوقظه وكثير من الحب يسكن يديها الممتدتين إليه.

- صباح الخير أيها الحبيب.

سمع أيمن صوت نور وعرفه، لكن النعاس ما زال مسيطرًا عليه، هذا ما كانت نور تعتقده؛ فكررت صباحها ثانية مع قُبلة صغيرة على جبينه، أشاح وجهه عنها، وقال بصوت ضخم:

- لو كنتُ حبيبكِ لما تركتني دون وداع.

ابتسمت نور وعضّت على شفتيها ندمًا، ثم رفعت غطاء السرير عن خالها، وقالت:

- أنا آسفة، كنت مضطرة إلى العودة للمعسكر.

حاولت أن توسّط أمها بينها وبين خالها حين دخلت تحمل طعام الإفطار وتضعه على سرير أيمن بحب، نظرت الأم إلى أيمن الذي أسند ظهره إلى السرير واحتضن نور بقوة وشوق، فيما بدت كعصفورة عادت إلى عشها بعد وقت طويل، في عينيها أمن وحب وارتياح، كانت الأم ترقبهما والسعادة تملؤها، فيما بدأت بإعطاء طفليها أرغفة الخبز لبدء الطعام، بدا عليها وأنها تذكرت شيئًا ما وهي تنظر إلى نور، فقالت:

- صديقكِ هذا شاب لطيف جدًا.

استغربت نور من كلام أمها، توقفت عن تناول الطعام قليلًا، ثم نظرت إلى خالها لعلها تجد عنده الجواب، كان خالها ينظر إليها ويشعر أنها ستصطدم بما سيقوله؛ فابتسم محاولًا أن يخفّف عنها ما تشعر به، ثم قال:

- لقد جاء القائد إلى البيت.

تركت نور كل ما في يديها وكانت الدهشة تسيطر على أجزاء جسدها وقلبها الذي بدأ يخفق بسرعة، فلم تستطع أن تفعل شيئًا، إلا أن قالت:

- ماذا! القائد؟!

هز أيمن رأسه وهو يتوقع ردة فعلها؛ فاستطرد ليخفف من حجم الأسئلة الكثيرة التي يشعر أنها تملأ رأسها قائلًا:

- أجل، جاء بعد رحيلكِ بفترة وجيزة، تناولنا معًا طعام الغداء وقال إنه كان في زيارة للقرية فأحب أن يراكِ.

- يا إلهي.

كانت نور ترتعش منذهلة خائفة، لا تعرف كيف حصل كل ذلك، وكيف يمكن أن تفسر سبب قدومه، بدأت تنظر إلى البيت ترقبه وكأن القائد دخل لتوه فيه، أين جلس؟ ماذا قال؟ لماذا جاء؟ هل سأل عني؟ هل كان بشوق لي؟ لماذا لم يخبرني أنه آت؟ ربما إنني تركت كل العالم و انتظرته.

و ابلٌ من الأسئلة ألقَتها نور على خالها طوال الأسبوع الأخير من أجازتها، وآلاف من الإجابات التي كررها كثيرًا لتصمت وتبتعد عنه دون فائدة، فقد اشترى لها ما تريد من ثياب وأكاليل؛ لتحضر فيها عرس صديقتها لينا؛ لأنها أتعبَت خالها أيامًا طوال حتى استقرّت على ملابس ترضيها وتنافس فيها جميع الفتيات الجميلات اللواتي سيحضرن الحفلن حتى اضطرت في النهاية لإثارة الشك في نفس خالها حين قال:

- نور، هل ثمّة منافسةٌ لكِ في هذا الحفل؟

شعرت نور بالضيق من سؤال خالها، فقالت وهي تنظر إلى المرآة بغرور واضح:

- ليس ثمة من تنافسني أبدًا.

ضحك أيمن وهو يستمع لكلام نور، ثم قال بتواضع:

- سنرى ذلك في يوم العرس.

يوم العرس... وأخيرًا جاء يحمل الفرح والسعادة والأمل بحدوث أشياء جديدة وجميلة، كل من في الحفل يتوقعون مجيء غيرهم؛ فمشاعر الشوق والحب تتغلب على الخصومة والكراهية، كانت قرية نور تزدان بزيارة كل أصدقائها لها دفعة واحدة، ما كان يسعدها أنها ستعرّف أصدقاءها بقريتها التي تحب، وتعرّف قريتها بأصدقائها الذين تعشقهم، فيالها من لحظات سعيدة حين أتمّت نور ارتداء ملابسها بعد طول انتظار من خالها، الذي كرّر مائة مرة "هيا يا نور"، تمسّكت نور بخالها لتزهو به هذه الليلة أمام الجميع، وليكون حاميًا لها مما ستلقاه حين ترى ساميةن كانت نور أشبه بزهرة نضرة لا يعرف لها مثيل؛ فزادها غرورًا ورغبة في إثارة استفزاز القائد اليوم، لم يكن قد قدّم الجميع بعد؛ فالقريه بعيدة عنهم، وأول ما فعلته نور هي أن توجّهت مع خالها إلى ليث ولينا وهما كلؤلؤتين تبرقان بالحب وسط الكمّ الهائل من ألوان الزينة والأضواء الخلّابة التي تزيدهما روعة وبهاءً، لم ترغب في أن تفكّر فيما سينتهي إليه هذا اليوم، رغبَت فقط أن تستغل لحظاته الجميلة التي بدأتها بقولها للعروسين:

- لا أعرف ماذا أقول لكما، لكنني سعيدة جدًا بهذه اللحظات الجميلة التي تجمعكما.

كان العروسان يستمعان لنور بسعادة متمنيّة لينا لها العُقْبى عما قريب، واكتملت الحلقة الدائرية بحضور مصطفى واعتدال التي بدأت تتغزل بثوب لينا والذي يزدان بإكليل من الأزهار المُرصّع بلآلئ بيضاء ناصعة، كانت كلمات الترحيب والتهنئة تملأ أفواه الجميع، حتى اقتربَت عُلا منهم قائلة:

- مرحبًا يا أصدقائي، هل أستطيع أن أسلّم على العروسين؟

خفق قلب نور وهي تسمع صوت عُلا حين ظنّت أن القائد يرافقها، ولكن بعد لحظات قليلة اكتشفت أنها وحدها، لكنها كانت بدون شكّ جميلة وجذابة، وكذلك رُبا التي اقتربَت منهم وهمّت بتقبيل لينا بحب كبير، كان الضحك يجمعهم، بينما ليث يهمّ بالحديث والجميع ينظر إليه بسعادة، حيث قال مشيرًا إلى أيمن:

– أظنه خالكِ يا نور؟

هزت نور رأسها ونظرت بابتسام إلى خالها قائلة:

– أجل يا صديقي.

فيما تدخّلت عُلا قائلة:

– إنه كما وصفتِه لنا تمامًا.

اقتربَت نور من خالها والْتصقَت بيديه، فيما قالت اعتدال بمرح:

– لقد اتفقتُ مع مصطفى أن نسمي ابننا إن كان ولدًا على اسمه "أيمن"؛ حتى تسعدي به كما سعدتِ بابن ماهر أحمد.

كانت نور ترقب نظرات اعتدال الخبيثة بشيء من اللوم على الموقف المحرج الذي وضعتها به، لكن تدخل ماهر بتلك الأزهار الجميلة المقدّمة إلى العروسين أنهت الموقف تمامًا، فتقدم معتذرًا عن حضور شيرين وأحمد الصغير، ثم علق قائلًا:

– أتوق لرؤية طفلك، سأحضر قريبًا أنا ولينا لنبارك لكما.

شكر ماهر ليث على كلامه اللطيف وتنحى قليلًا لينضم اثنان إلى الحلقة الجميلة، من هما؟ قفزَت عُلا بسرعة ووقفت بين أمها وأبيها معرّفة عليهما وسعيدة مدلّلة بهما، شعرت نور والباقون بشيء من الرهبة ذكّرتهما بالقائد،

كانت نور ترقبهم بحذر شديد وشيء من الرسميةن خاصة بعد أن سلّما على العروسين ونظرا إلى الجميع للتعرف، ابتعدت عُلا عنهما قليلًا وقالت:

- هيا وحدكما تعرّفا على الو اقفين هنا.

كانت والدة أحمد تشبه ابنها إلى حد ما جدية في ملامحها رغم لطفها، تحسن المجاملة وتملك ابتسامة جميلة، أما والده فكان متحدثًا مميزًا، بصوت هادىء وقوي نظرا إلى الجميع بسرعة واستقرا على اعتدال، التي قالت بمرح:

- أظن أن أول من ستعرفانهما هما ليث ولينا، هذه أول نقطة كسبتماها.

ضحك الجميع من كلام اعتدال، فبادلها والد أحمد بقوله:

- وأظن أنكِ اعتدال.

هزت رأسها مو افقة، فيما قالت لها والدة أحمد:

- إنكِ خفيفة الظل كما وصفتكِ عُلا.

تدخّلت عُلا بدعابة فقالت:

- لا يا أمي، إنها دائمة التعليق على أخي، وتقول إنها لا تتخيل أن يكون له أمًا لشدة قسوته.

الحديث عن القائد أثار شجون نور فقد مر وقت طويل ولم يأت بعد، ورغم غضبها من ذلك إلا أنها مشتاقة إليه وإلى رؤيته اليوم، عادت نور بفكرها إلى أم عُلا التي كانت تدافع عن ابنها بحب حين قالت:

- أما أنا فأنظر إلى أحمد أنه ابني الصغير الر ائع الذي رغم قسوته وجديته إلا أنه الأجمل والأحلى في هذا العالم.

كان الجميع يو افق كلام الأم، حتى قطع صمتهم صوت عُلا قائلة:

- أظن أن نور لها رأيٌ مختلف.

نظر الجميع إلى نور التي كانت فعلًا نورًا للعرس، وقع اسم نور على مسمع والدَي عُلا بفضول؛ فهما في شوق لرؤيتها، تاهَت أعينهما في البحث عنها، حتى استقرا عليها قائلين معًا:

- أأنتِ نور؟

أومأت نور برأسها خجلة من الاهتمام الذي لاقَته دفعة واحدة، مما أثار هذا استياء اعتدال فقالت:

- أجدكما قد اهتمَمتُما بمعرفة نور كثيرًا، لماذا؟

تقدمت والدة عُلا بأدب جمّ ونظرت إلى نور، ثم ابتسمت بكثير من المشاعر الهادئة والسعيدة قائلة:

- لقد تحدثَ عنكِ أحمد كثيرًا يوم اختفائك، وكان مهتما بأمرك إلى درجة شوقتنا لرؤيتك.

زاد الكلام نور خجلًا ورونقًا جذابًا؛ فشكرت الوالدة على كلامها الجميل وعلى اهتمام ولدها، لكن الحديث الهادئ لم يستمر طويلًا، حيث قالت اعتدال باعتداد وهي تنظر إلى مدخل الحفلة:

- أعتقد أنكما ستعرفان هذا الشاب الوسيم الذي دخل لتوه أيضًا.

نظر الجميع فوجدوا القائد يدخل بحلّة جميلة وجذابة و ابتسامة تحيط بملامح وجهه، وإلى جانبه سامية التي بدخولها لفتَت كل الأنظار، كانت بالفعل شديدة الجمال كما وصفها الجميع، وما أن دخلا معًا متجهين إلى العروسين حتى اختلطت كل المشاعرن تقدم القائد بفرح؛ ليعانق ليث بحرارة وحب

بالغين، في فترة استمرت دقائق طويلة، ثم سلّم على لينا بسعادة وهو يقول:

- أنا الاكثر سعادة بكما هذا اليوم.

- ولماذا؟

قالت اعتدال بلطف إلى القائد الذي نظر إليها بتمعن، وقال:

- لأنني الأقرب إليهما منكم جميعًا، فهذا ليث صديق طفولتي وجزء مني وشيء من روحي، أما لينا فهي مجندتي وصديقتي وزوجة صديقي.

كان جو المرح الذي غمر الجميع لا يروق لنور التي فاجأها دخول القائد مع سامية، الأمر مزعج، خاصة بعد أن نسيا أنفسهما بالحديث مطولًا مع العروسين دون الاهتمام لوجود أحد آخر، قبضت نور على يد خالها ليتنحيا عن الحلقة التي ضاقت بالجميع، وكان في نفسها حزن بالغن لكن كلام ليث أوقفهما حين قال مداعبًا القائد:

- كنت أتمنى أن تكون إلى جانبي هذا اليوم يا صديقي.

تحمس الجميع للفكرة ور اقت لهم حين علّقت والدة أحمد قائلة:

- لكان يومًا رائعًا.

ابتسم القائد وهو ينتظر تعليق اعتدال التي قالت:

- ما زلنا في الحدث، تستطيع اختيار أيٍّ من الفتيات الجميلات في الحفل ونجلسكما إلى جانب العروسين.

ضحك القائد من كلام اعتدال، وقال دون أن ينظر إلى أحد:

- أنتِ فقط ترغبين بالتخلص مني يا اعتدال.

لحظات جميلة عمّت الجميع إلا نور التي انزوَت مع خالها على طاولة بعيدة ترقب الابتسامات والفرح الذي كان يملأ المكان، وهي تشعر في هذه اللحظات أنها خسرَت كل شيء؛ فالقائد منذ ساعة في العرس لم يقل كلمة واحدة، أو حتى نظرة، كان طوال الوقت منشغلًا مع سامية ومتنقلًا بين والديه وبين العروسين، لم تظن نور للحظة أن العرس سيكون مؤثرًا عليها إلى هذه الدرجة، ومع ذلك كانت قد أقسمت في البيت ألا تبكي مهما كانت الأسباب؛ فهذه فرحة العمر لصديقتها التي كانت تلوّح لها مبتسمة بين الحين والآخر، بدأ كل شيء يتضح أمامها الآن، فالقائد وعدها بالزواج ولم يفِ بوعده، حتى أنه لم يتحدث في الموضوع أبدًا، وسامية عادت ثانية لتستقطبه بعد أن ظنّت نور أنه أصبح لها، السؤال الوحيد الذي يشغل ذهن نور في تلك اللحظة ولم تجد له جوابًا هو كيف لنا أن نخسر كل شيء دفعة واحدة؟ ماذا تفعل عندها؟ بدأ اليأس يتسلّل إلى قلبها المليء بالحزن، مالذي حدث؟ لماذا أنا وحدي التي خسرَت هذه الخسارة الفادحة؟ حاولَت نور قدر استطاعتها أن تجمع قواها لتواجه هذا الموقف المؤلم، كانت تداعب الطاولة بأناملها الرقيقة وتتذكر قول صديقتها مروة التي نصحتها بأن تنظر إلى الوجه المشرق من أحزانها؛ لتستطيع أن تعيش بشيء من الهدوء، لم تكن نور تعزي نفسها، بل كانت متأكدة بأن الأمور لا تسيركما كانت تظن، ربما أن سامية والقائد يحبان بعضهما فعلًا و أنا التي وقفَت بينهما؟ أو لعل سامية لم تكن متزوّجة فعلًا وهي حجة ليتزوج القائد منها، مالذي حدث؟ بالأمس كنت معه وكان بشوق بالغ لي رغم عتبه وغضبه، هل انتهى كل شيء و أنا وحدي من خسرت؟ وهل وحدي أنا فقط من عليها أن تعشق وتحزن وتبكي دون مقابل؟ تنهدَت بحزن وألم وعيناها تنظران إلى الطاولة لم تفارقها حين وصلت إلى هذه النتيجة التي شقّت قلبها إلى نصفين.

الشيء الوحيد الذي خفف من ألمها نظرة أيمن لها، ودفء يده التي أحاطت بيدها وهو يقول:

- هل نغادر؟

شعرت نور بارتياح، رغم أنها علمَت تمامًا أن خالها يعلم حجم الألم الذي يكويها ووهج النيران التي تحرق قلبها، فأجابت بهدوء:

- أجل هيا.

وفي لحظات خشيت أن تغادر فلا يهتم أحد بها، عندها تكون النهاية، انتظرت قليلًا وهي تنظر بعينين حزينتين لهذا الحفل الجميل، حاولت بعدها أن تنظر إلى خالها؛ ليتحدثا بأمور قد تبعدهما عما تشعر به، لكنها بدون قصد منها قالت:

- هل أنا ساذجة إلى هذه الدرجة يا خالي؟

كان أيمن ينظر إلى نور بحزن، لا يستطيع أن يفعل لها شيئًا ولا يعرف ماذا يقول، حاول ان يخفف من ألمها، فقاطعته قائلة:

- انظر إليهم، جميعهم يهزؤون بي حتى أنهم لا يعيرون لبعدي عنهم أهمية، لم ينظر أحدهم إلى أين أجلس، هل كنت حمقاء إلى هذه الدرجة؟ كنت أظن أنني أعني الكثير لهم، ولكن...!

عاد أيمن ليهدئ من غضب وحزن نور قليلًا، فقال لها مازحًا:

- نور حبيبتي، كيف تبحثين عن غيري و أنا معكِ؟

شعرت نور أنها أصبحت في مكان بعيد جدًا عن الجميع، وأن حلمها التي كانت دائمًا تظن أنه أصبح حقيقة بات خيالًا لن يتحققح فصمتت لتكتم تلك الدموع التي تصارع وجدانها، خشي أيمن من حدوث أمر مزعج لها، فقال:

- نور، لا تخنقي دموعك بهذه الطريقة يا عزيزتي.

وفي النهاية بعد أن تأكدَت من أن كل شيء بدا باهتًا لا قيمة له، وأنها محط سخرية من الجميع وأن لا مجال لمقارنتها بسامية كما قرأت بأعينهم، وقفت، ومعها وقفَت كل الذكريات الجميلة التي قررت أن تتركها وراءها لتبدأ حياة جديدة تكتب هي وحدها البداية والنهاية فيها، كانت أيامًا جميلة، وهل نحزن إلا إذا سرق الزمن منا ما نعدّه وقتًا رائعًا لن يتكرر، عاشت نور في هذه اللحظات ذكريات السجن ورحيلها إلى قسم آخر، عاشت معنى الحب حين يجلدنا دون رحمة بعذابه، فقط هناك عرفَت ما كان يعنيه أيمن حين نصحها أن تستمتع بعذاب الحب كما تستمتع بنعيمه، قسوة القائد وعيناه الحادتان وكلامه الصعب، كل هذا كان ذكرى جميلة من الأيام لن تنساها، ولن تنسى معها أنها أحبّت بصدق رغم أنها كانت آخر ما يمكن أن تتخيله حين الْتقَت بالقائد أول مرة ووصفته بعامل النظافة، يالتلك اللحظات التي كنتُ فيها بكامل عنفواني وحيويتي وبراءتي، لو توقّف هناك الزمان لعلمني ألا أحب إلا من يناسبني، كم أنا غبية، لماذا لم أفهم اعتدال حين لامَتنِي على حب القائد وأخبرتني ان عشق القادة صعب؟ هل كان عليّ أن أدفع ثلاث سنوات من عمري وأن أبكي وأحزن و أتألم وأرقب شجر اللوز ليزهر حتى أصل إلى هذه النتيجة؟ كان بوسعه أن يسخر مني ولكن بموقف آخر غير هذا، وحدها هي شجرة اللوز الساكنة أمام نافذة غرفتي، سأهدي أور اقها لصديقتي منى، أزين بها قبرها؛ فهي الوحيدة التي تحبني وتعرف قيمة الوعد وجمال شجر اللوز، ماذا لو كنتِ أنتِ هنا يا صديقتي وكنتُ أنا مكانكِ؟ أعدكِ بأنني سأعيش حرة وأغادر هذا

المكان، و أنزع من قلبي كل من فيه وإلى الأبد.

مازال أيمن جالسًا ونور ترقبه باستغراب؛ فهما اتفقا على مغادرة الحفل، إلا أن ابتسامته الجميلة غيّرت كل شيء، فاضت نور غيظًا من خالها وقالت له:

– هيا يا خالي، علينا أن نذهب.

– إلى أين ستذهبين؟

نظرت نور بسرعة خلفها لتجد القائد يقف أمامها مباشرة بصوته الهادئ المتزن، ارتبكَت قليلًا ثم تمالكت نفسها ثانية، وأعادت النظر إلى خالها قائلة:

– خالي، هيا بنا.

لكن أيمن لم يقل شيئًا، كان ينظر إلى العرس وكأن نور لا تحدثه أبدًا ولا تجلس إلى جانبه؛ مما أثار غضبها، فتركته غير آبهة بوقوف القائد إلى جانبها، وحين امتدت إليها يده كانت دافئة تنبض بالحب، وعاشقة؛ فأفلتت يدها بعصبية دون أن تقول شيئًا، لكن صوت خالها أوقفها للحظة وهو يتحدث إلى القائد قائلًا:

– لقد أوصلتُ لكَ الأمانة.

ضحكا معا وتقدم القائد ليشكر أيمن على تعاونه معه، في ماذا؟! لم يتضح الأمر بعد لنور التي كادت كل المشاعر تقتلها فجأة، هي لم تفهم شيئًا ولم تعرف ماذا يحدث؟ فغادرت حزينة متألمة، لا تشعر برغبة في أن توجه أنظارها إلى أي إنسان.

عادت يد القائد تحاصرها مجددًا بعد أن اقتربت قليلًا من الباب، رغبَت نور في هذه اللحظة أن تصرخ بوجهه وتفرغ كل ما في جوفها من ألم وحزن، لكن ابتسامته المستفزة منعتها من قول شيء؛ لأن البعض بدأ ينظر إليهما بفضول،

فآثرت أن تتمالك أعصابها وتقول بهدوء مصطنع:

- ابتعد عن وجهي؛ حتى لا يحصل ما لا يُحمَد عُقباه.

ضحك القائد منها وهو يعلم ما تشعر به من غضب، وقال:

- ليس قبل أن تجيبي على سؤالي، ماذا يعني الجدار في لغة العشاق؟

بدأت الدموع تحلق في عيني نور التي تحاول كتمان مشاعرها الغاضبة قائلة:

- لا أريد أن أعرف شيئًا.

قبض القائد على يدها بقوة ومشى معها خطوات قبل أن تحاول الابتعاد عنه، وهي تصرخ دون أن تنتبه لأحد قائلة:

- اتركني.

كل الأنظار اتجهت إليهما وهما يقفان أمام بعضهما، شعرت نور بالإحراج الشديد وصكّت على شفتيها، فيما اعتذر القائد بحركة من رأسه وابتسامة مجاملة من شفتيه للجميع، ثم أخذ نور وتوارى عن الأنظار، كانت نور ضعيفة حزينة، لكنها تريد أن تثأر لكرامتها ولحبها الذي أهمله القائد كثيرًا هذا اليوم، فغلبتها الدموع وهي تقول:

- ماذا تريد؟ لقد سخرتَ بي وهزأتَ مني، كان بإمكانكَ أن تؤجّل كل هذا إلى وقت آخر؛ لتعلمني أنني لا أهمية لي مع وجود فاتنتك سامية.

بقي القائد صامتًا وهو ينظر إليها، لم يغضب للحظة؛ فهو يعلم تمامًا أنه قسا عليها لدرجة أوصلتها إلى ما هي عليه الآن من انفعال لكن صمته استفزّها أكثر وجعلها تميل إلى العدائية والعنف بشكل لم يلحظه من قبل، فهي كانت ترفض كل شيء منه؛ يده، وابتسامته، وقربه منها، حتى حبه المعلن في عينيه وقلبه، وما أن صمتت حتى قال:

- أريد أن أقول لكِ شيئًا، وبعد ذلك اذهبي إلى حيث تشائين.

لكنها تركته في خطوة واحدة؛ ليوقفها قائلًا:

- من حقي أن تسمعيني كما سمعتكِ أنا.

لم توقف كلمات القائد نور التي لم يتبقّ لعودتها إلى الحفل إلا بضع خطوات فقط؛ مما أثار استياءه، واضطر إلى أن يعيدها إلى مكانها بالقوةن وهي تصرخ بوجهه وتضرب كتفه بيدها الصغيرة، فقال بجدية واضحة:

- نور، اسمعيني.

كانت نور في أسوأ حالاتها، منهارة تمامًا، دموعها غزيرة وساخنةن سبّبَت حزنًا للقائد الذي لم يعلم أبدًا أن ما فعلة قد أثر فيها إلى هذه الدرجة؛ فحاول ان يستوعب غضبها واستفزازها وهو صامت يرقبها حتى بدأت تهدأ، ثم قال:

- نور، أنتِ حبيبتي و أنا لا أرى سواكِ، منذ دخلتُ ور أيتكِ سحرتني بجمالك وهِمتُ بحبك، قد رغبت باستفزازك؛ لأعاقبكِ على ما فعلته معي في الفترة الأخيرة، وإن كنتُ قسوتُ عليكِ كثيرًا فأنا آسف ومستعد للاعتذار حتى الصباح.

لم تستوعب نور ما قاله القائد لها؛ فهي لم تستطع التحكم بغضبها و انفعالها حين قالت:

- أنا لا أريد شيئًا منك، فأنا اليوم أكرهك كثيرًا كثيرًا، وقررتُ أن أخرجكَ من حياتي إلى الأبد، فقد كنتُ غبية جدًا حين أحبَبتك.

لم تتوقع أن تلقَى كلماتها هذه الابتسامات من القائد حين تقدم إليها، ورفع إكليل الورد الذي يحيط برأسها قائلًا:

- أنا آسف لأني جعلتُ صغيرتي تبكي وتنفعل إلى حد أن كل هذا الجمال حزين الآن.

ابتعدت عنه لتصطدم بالجدار من خلفها، وتقول بأنوثة جذابة:

- يكفي أن سامية كاملة الجمال، لم يتأثر جمالها بشيء.

كانت أصوات ضحك القائد مقلقة حين لم تستطع أن تستفزه رغم قسوة كلامها ولو للحظة واحدة، الخطوة التي ابتعدت بها عنه اقترب فيها من نور ثانية، وقال هامسًا:

- الجدار يا حبيبتي وُجد ليحسن العاشق إرضاء حبيبته عليه.

كانت نور مرتبكة، تشعر بالقهر والهزيمة رغم ما فعله وقاله القائد من أجلها، فهي لم ترضَ بعد، ولعل هذا من الايجابيات التي لا تنكرها المرأة في العشق، هذه اللحظات أنسَت نور كل الحزن الذي لاقته قبل قليل، فهي وحدها مع القائد، بينهما أنفاس دافئة وعشق جميل، خاصة بعد أن كفّت عن البكاء ودارت ابتسامة حين أخبرها القائد عن الجدار، بينما شق صمت اللحظات همس القائد لها قائلًا:

- هل تندمين على أنكِ أحببتني يومًا؟

هزت نور رأسها وقالت بقوة:

- أجل.

ابتسامة القائد لم تفارقه وهو يتعامل معها وكأنها طفل صغير يداريه كي لا يبكي، وهذا كان حاله في كل كلمة يقولها حين همس قائلًا:

- لا يهم، ما يهمني أنكِ أحببتني ولو للحظة واحدة.

لم تستطع نور أن تجاوز غضبها رغم كل الحب الذي أغدقه القائد عليها، لكنها مسحَت دموعها وأظهرت شجاعتها بقوة قائلة:

- هل من العدل أن ترافق سامية إلى الحفل؟
- وهل من العدل أن أحبكِ ثلاث سنوات دون أن أحظى بكلمة حب واحدة؟

أربك القائد نور وغيّر حالها إلى درجة أنها نسيَت كل الكلام والأحزان، بينما كان يمد يده ليضم يدها هامسًا:

- كيف حال يدك؟ لقد قسوت عليها كثيرًا.

لم تفلح كلماته في أن يزول الخجل الذي قيّدها وهي تحاول أن تبعد يدها، والتي رفعها وقبّلها بحب قائلًا:

- هل زال الألم؟

وفي تلك اللحظات كانت تنزرع ابتسامة جميلة على محياها، وهي تسمع سؤال قائدها قائلًا:

- تعرفتِ على والداي؟

بدت الجدية على ملامح نور وأشعرت بصمتها على أنها تعرفت عليهما جيدًا، وفي لحظة تذكرت شيئًا ما؛ فنظرت إلى القائد قائلة بغضب:

- ماذا كان يعني خالي بالأمانة؟ ولماذا ضحكتما معًا؟

كان يريد أن يبادل نور بنفس الجدية والإهمال، إلا أنه عدَل عن ذلك ليدخل السعادة إلى قلبها قائلًا:

- حين ذهبت لزيارتكم في البيت كان شجر اللوز في آخر إزهاره وأول

إثماره؛ لذلك تقدمتُ لخطبتك من والدتك وخالك فو افقا، وقررنا أن يكون ذلك سرًا بيننا حتى أخبركِ أنا به، وحتى لا تعتبريني خائنًا للعهد، إلا أن الظروف لم تسمح لنا بالحديث في هذا الموضوع إلى الآن، فهل أنتِ مو افقة على الزواج مني؟

حتى هذه اللحظات تغيّرت ملامح نور، واستقرّت على الراحة والهدوء، لولا تدخل سامية المفاجئ الذي أعاد الغضب ثانية والاستغراب من دخولها، من أعطاها الحق بالدخول؟ ومن تكون هي حتى تفرق بين اثنين؟ هذا ما قرأه القائد في ملامح نور وفهمته سامية، فقالت بسرعة:

– أنا آسفة جدًا، ولكنني اضطررتُ إلى المغادرة، إلا أن هناك شيء مهم جدًا يجب أن أقوله أمام الجميع، فمن فضلكما أن تحضرا قليلًا وتسمعاني.

أخذ القائد بيد نور وخرجا مع سامية، فيما كانت كل الوجوه تنظر إليهما بسعادة أحرجتهما وأوقفتهما قليلًا، قبل أن تقول سامية:

– يا أحبتي، أنا سعيدة بوقوفي أمامكم الآن، فمنكم تعلمتُ أشياءً كثيرة، وبفضل هذه الفتاة الجميلة نور أحببتُ الحياة مجددًا، وعرفتُ أنها يمكن أن تخفي لنا السعادة وراء الحزن الطويل، أما زوجي الحبيب الذي لا يشاركنا بجسده بل بروحه العذبة قررنا أن نهدي لأحمد ونور هدية متواضعة أرجو أن تروق لهما.

تقدمت سامية تحمل صندوقًا جميلًا ذا لون أحمر فاتن، فتحته للحبيبن ليلقيا فيه خاتمَي الخطوبة مصطفَّين إلى جانب بعضهما في أجمل منظر يأتي بعد الوطن، فكان الدفء والحب والألم وكل الأشياء الجميلة تسكن الخاتمين وجسدَي العاشقين اللذين انضما إلى بعضهما بشوق.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017